المؤلفات الأساسيّة فى التحليل النفسِى

بإشراف الدكتور مصطفى زيور

ثلاث مقالات فى نظريّة الجنسية

تأليف

سيجموند فرويد

ترجمة

سامى محمود على

مراجعة

مصطفى زيـور





دار المعارف

ثلاث مقالات فى نظرية الجنسيّة

المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى

بإشراف : الدكتور مصطفى زيور

ثلاث مقالات فى نظرية الجنسية

تأليف

سيجموند فرويد

ترجمها عن الألمانية

سامى محمود على

راجعها

مصطفى زيور



دار المعارف

١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ع. م

الفهرس

تصدير

بقلم
دكتور مصطفى زيور

« إنما الحب هو المطلع من اللاوجود إلى الوجود »
أفلاطون

ذكرت فى تصدير الترجمة العربية لكتاب « تفسير الأحلام » الذى نشرته دار المعارف عام ١٩٥٨ فى هذه المجموعة : « المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى » — ذكرت أن صفحات « تفسير الأحلام » تشمل الأسس التى قامت عليها دراسات فرويد اللاحقة فى شتى نواحى الحياة الإنسانية .

والواقع أن كتاب «المقالات الثلاث فى نظرية الجنسية » الذى نقدمه إلى القارئ العربى ، إنما هو ثمرة من ثمار ذلك النضال المرير الذى قام به فرويد محارباً فى جبهتين : جبهة مقاومات المريض أثناء التحليل النفسى ، وجبهة مقاوماته الذاتية التى كانت تقف حائلاً بينه وبين إدراك المعانى المختفية فى ثنايا خواطر مرضاه وأحلامهم . ولم تكن لديه فى هذا النضال من الأسلحة سوى منهج التداعى الطليق ومادة أحلامه هو ، بالإضافة إلى أحلام مرضاه وخواطرهم . وظل هذا النضال سجالاً فترة ، لم يظفر خلالها بشىء يذكر ، حتى فطن إلى أن تعطل قدرته على فهم ما يعتاج فى نفوس مرضاه ، إنما يصدر عن باعث ذاتى يعمل على الجهالة والحيلولة دون الإدراك . وهذا أمر لا نعهده فى أى مبحث من المباحث العلمية .

حقاً إن تاريخ المعرفة يتميز بأنه نضال بين المألوف وغير المألوف ، بين سوابق الرأى وما يستجد من الحقائق أثناء البحث . ولكن العلماء يفطنون إلى هذا النوع من العقبات فيقفون عادة موقف من يتوقع ما لا يُنتظر . أما أن يصطنع الباحث نفسه المجْهَلة — دون أن يعلم — فيمتنع عليه فهم حقيقة الإنسان ، ويظل على إصراره وعناده فى أن يشيح بوجهه فلا يرى ولا يفهم من هو ، ولا من هم هؤلاء الذين تقوم بينه وبينهم شتى العلاقات الإنسانية ، وما هى طبيعة هذه العلاقات ، كل هذا الاستجهال يعتبر من أبرز مكتشفات التحليل النفسى ، فينبغى لنا أن

نستيقن أولا من برئنا من عوامل التجهيل ، قبل أن نقر أو نرفض قضية مما أسفرت عنه بحوث التحليل النفسى .

فإذا عدنا إلى فرويد وموقفه السالف الذكر ، رأيناه وقد صمم على أن يسلك السبيل المنطقى لفض أزمة تعطل قدرته على الفهم ، أعنى أن يقوم بتحليل نفسى ذاتى متخذاً من أحلامه مادة لهذا التحليل ، حتى يزيل الغشاوة عن بصيرته . وما أن تم له ذلك حتى انجلى الأمر أمامه ، وتلاحقت اكتشافاته فى طبيعة النفس الإنسانية ، كأنه أمام كتاب مفتوح ، يقرأ فيفهم ، بالرغم مما فى لغته من إغراب وما فى بيانه من إهدار لكل قواعد المنطق المألوف .

وكانت أول اكتشافاته عندئذ أن تبين حقيقة ما كان يسرده مرضاه من حوادث الإغراء أو الاعتداء الجنسى الذى وقع عليهم من آبائهم أثناء سنوات الطفولة . فقد تبين له أن ذكريات مرضاه عن الاعتداء الجنسى لا تعدو أن تكون تخييلات مبعثها رغبات نشأت إبان سنوات الطفولة . ومن ثم وضحت هذه الحقيقة المزدوجة: أعنى وجود دفعات جنسية أثناء الطفولة ، مغلفة فى غلاف النسيان أو ملفقة فى صورة ذكريات اعتداء . ولم يلبث فرويد بعد ذلك أن اكتشف مأساة كل طفل ، أعنى عقدة أوديب . وهكذا نتبين صحة العبارة التى سقتها فى مطلع هذا التصدير ؛ أعنى أن كتاب « المقالات الثلاث فى نظرية الجنسية» إنما هو الثمرة الحتمية لكتاب « تفسير الأحلام » .

إنها لحقيقة تستثير الفكر وتبعث على التأمل : أن تشغل مسألة الأحلام وتفسيرها رواد الفكر منذ أقدم العصور ، كما يتضح مما جاء عنها فى الكتب المقدسة ، وما أولاها من عناية كل من المعلم الأول — أرسطو — وأب الطب هيبوقراط ، ثم الكثيرون ممن جاءوا بعدهما من الفلاسفة والعلماء على مر العصور حتى نهاية القرن التاسع عشر ، ومع ذلك نرى إغفالا تامًّا لحقيقة يعرفها كل فان كما يقول « سوفوكليس » على لسان « يوكاستا » مخاطبة « أوديب » فى تراجيديا « أوديب ملكا » : « كم من فان قبلك ضاجع فى الحلم أمه ، ولكن يسهل عبء العيش لمن لم يلق إلى ذلك بالاً » . لقد أعلن الكاهن « تيرسياس» نبوءته فى اللحظات الأولى من التراجيديا فى قوله : « ستتكشف الأحداث عن نفسها ، على رغم هذا

الصمت الذى أسترها به » . ولكن الأحداث لم تتكشف عن نفسها علمياً إلا بعد مرور أكثر من ألفى سنة .

فإذا تساءلنا عن السبب فى هذا الإغفال أو قل الإنكار فينبغى ألا يفوتنا أن الأمر لا يقتصر على اشتهاء المحارم ، وإنما يتضمن أيضًا دفعات عدوانية آثمة نحو أقرب الناس إلى نفس الطفل ، مما يستثير الشعور بالذنب والخوف من العقاب .

* * *

إن الحق فى إبداء الرأى فى قضية علمية ليس حقًّا طبيعيًّا وإنما هو حق يكتسب . ولا يتم ذلك إلا بممارسة الوسائل التجريبية وما إليها من طرق البحث العلمى التى يستند إليها منطوق القضية العلمية . ولا يختلف اثنان فى ذلك فيما يختص بالعلوم الفيزيائية والبيولوجية . أما علم النفس فإن مأساته – تلك التى جعلته آخر العلوم فى تثبيت أقدامه – أن كل إنسان يعتبر نفسه عالمًا بالنفس طالما أنه يحس ويشعر ويدرك – أو هكذا يخيل إليه – كل ما يجرى فى نفسه .

ويظهر التناقض وإغفال ما تقتضيه الأمانة العلمية فى هذا الموقف عند ما نرى بعض المثقفين وبينهم بعض علماء النفس يقرون مكتشفات التحليل النفسى فيما يختص «بسيكولوجية الأنا» ، وحيلها الدفاعية وعلى الأخص حيلتى الكبت والإنكار ، ولكنهم يرفضون مع ذلك قبول مكتشفات التحليل النفسى التى ظفر بها بعد إبطال عمليتى الكبت والإنكار ، غافلين عن هذه الحقيقة الجوهرية : حقيقة أن الكبت معناه إقصاء بعض محتويات النفس عن منطقة الشعور ، فتغدو لا شعورية ممتنعة على الإدراك المباشر ، ثم إنكارها إذا ما أفلتت من قبضة الكبت .

إن فى مكتشفات التحليل النفسى فى أصول المعرفة – وخاصة معرفة الإنسان بنفسه – ما يستثير الفكر ويقتضينا أن ندرك أن المنطق العادى لا يصلح محكًّا نقبل أو نرفض مكتشفات التحليل النفسى استناداً إليه .

يحدث كثيراً عند ما يتقدم المريض فى علاجه بالتحليل النفسى أن يخطر له خاطر فيقول لنا مثلاً : « لعلك تتساءل من تكون هذه السيدة التى ظهرت لى فى الحلم الذى رويته لك . إنها على كل حال ليست أمى »، وتدلنا التجربة على أن هذه السيدة هى أمه من غير شك . يمكن إذن للمحتوى اللاشعورى المكبوت

أن يدخل منطقة الشعور على شرط أن يُنكر . ولما كان الإنكار ضرباً من الحكم المنطقى ، وكان الحكم هو الوظيفة العقلية الأساسية ، لأن كل تفكير لا يعدو أن يكون حكماً ، فبوسعنا أن نستوضح الأصول النفسية الأولى التى يبزغ منها العقل. ذلك أن الطفل فى أول الأمر لا يصدر إلا عن مبدأ اللذة ، فينزع إلى أن يدمج فى نفسه كل ما يطيب له ويطرد كل ما يزوَرّ عنه ويفنيه ، بحيث يقوده ذلك حتماً إلى الكبت ، أى جعل الردىء شيئاً غريباً عن النفس ، خارجياً بالقياس إلى الشعور .

وتبين لنا دراسة عملية الحكم فى ضوء المشاهدات التحليلية النفسية ، كيف تنشأ الوظائف العقلية من العمليات الوجدانية الأولية . فالحكم هو وليد عمليّى الإدماج والطرد التى ينتظمهما مبدأ اللذة. ولا تصبح وظيفة الحكم ممكنة إلا بابتداع صيغة النفى التى تتيح للتفكير قدراً من الاستقلال إزاء نتائج الكبت وبالتالى إزاء مبدأ اللذة . فكأن أساس التفكير ضرب من التصعيد لنزعة الطرد والإفناء تُستخدم فيه أداة النفى كوسيلة للاستبصار والمعرفة دون الاعتراف أى الإنكار . وبعبارة أخرى يدلف العقل من الغريزة فتكون معرفة الحقيقة بتقرير بطلانها . ومن الجلى أن الخطوة التالية فى معرفة الحقيقة لا تكون إلا بنفى النفى .

إن التحليل النفسى الذى يستند إلى منهج التداعى الطليق إنما هو الوسيلة المثلى لنفى النفى . ذلك أن التداعى الطليق يتضمن إسكات المنطق العادى إلى حين ، ذلك المنطق الذى لا يستهدف إلا التجهيل والإنكار ، فتتخذ الخواطر والمشاعر أثناء التحليل صورة فريدة ، يطلق عليها « التحويل » تتضمن فى بادئ الأمر لبساً بين الواقع والمتخيل ، إذ نرى مشاعر المريض تجاه الطبيب تتبلور فى مجموعة من الانفعالات لا يبررها الموقف الذى يكتنفهما ، ويتضح فى النهاية — عند الشفاء من اللبس — أنها ترديد لمواقف وجدانية مطبوعة بطابع شبقى ، كان المريض قد وقفها من والديه أثناء الطفولة .

وجدير بالذكر أن سيرة معرفة الإنسان بنفسه أثناء التحليل على النحو الذى وصفناه لا يقتصر على المرضى ، وإنما تنطبق على أى فرد من الأصحاء إذا أخضع نفسه لتجربة التحليل النفسى ، كما يؤيد ذلك ما يحدث لكل طلاب التحليل

النفسى . ذلك أن الشرط الأساسى للتدريب على التحليل النفسى فى كل معاهده هو أن يُجرَى على الطالب تحليل نفسى يقوم به أحد أساتذته ، بحيث يصبح الطالب بين من يقول عنهم فرويد : « من كانت له عينان ليرى وأذنان ليسمع ، فإن بوسعه أن يوقن بأنه ما من فان بقادر على أن يطوى سره . فإن صمتت شفتاه ثرثر بأطراف أصابعه ، وتنضح النميمة من كل مسامه . وهكذا فإن مهمة الوصول بأمعن خبايا النفس فى الخفاء إلى الشعور ، لهى مهمة يمكن إنجازها تماماً » .

* * *

ولا بد من الإشارة إلى أن مفهوم الجنسية فى التحليل النفسى مرادف لمفهوم الحب بأوسع معانيه ، فهو يتضمن أولاً الحب الجنسى وما يهدف إليه من الاتحاد الجنسى (أى الاتصال الجنسى بفرد من الجنس الآخر) كما يتضمن حب الذات ، وحب الوالدين والأولاد ، والصداقة ، وحب الإنسانية عامة ، وكذلك التعلق الحميم بالموضوعات العيانية والأفكار المجردة . فكل هذه الميول ، كما تبين خبرة التحليل النفسى ، تعبر عن دوافع غريزية واحدة . فنى العلاقات بين الجنسين تقتحم هذه الدوافع الطريق صوب الاتحاد الجنسى . ولكنها تتحول فى ظروف أخرى عن هذا الهدف ، أو تُمنع من الوصول إليه ، وإن ظلت دائماً تحتفظ بقدر من طبيعتها الأصلية يكفى للتعرف على وحدتها (كما يشاهد فى الحنين إلى القرب والتضحية بالذات)[1] .

ويقوم الدليل الحاسم — فيما أرى — على وحدة هذه الميول جميعاً وعلى أصلها الذى تصدر عنه ، عند ما يضرب معول المرض فى بنائها فتنحل إلى مصدرها الجنسى الطفلى ، كما نرى ذلك فى مرض البارانويا إذ تتدهور الصداقة إلى هذيان اضطهاد استجناسى (جنسية مثلية) . وسيرى القارئ فى هذا الكتاب أن فرويد يطلق لفظ « الليبيدو » على الطاقة المستثمرة فى الحب بكل أنواعه بما فى ذلك مواضيع الاهتمامات فى الحياة الإنسانية السوية بوجه عام ، بحيث لا يقتصر فعل المرض على قطع الصلة بمواضيع الحب الجنسى ، وإنما يزيد فتنحسر الاهتمامات والتعلق

(١) انظر The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud. Vol. XVIII, p. 90-91., London, The Hogarth Press. 1955.

الحميم عن المواضيع العيانية والمجردة جميعًا . وترتد هذه الطاقة على الذات وخاصة فى المرض المستفحل .

كل هذا يقودنا إلى إدراك أن النزعات الجنسية — وتطورها أثناء سنوات الطفولة — أنما هى لحمة الحياة الإنسانية وسداها . ذلك أن الطفل فى بدء حياته يختص ذاته بنزعاته الجنسية العشقية (وهى ما يطلق عليه النرجسية الأولية) ولا يكاد يقيم لغيره من الناس اعتباراً فى حياته . وعند ما تتحول هذه النزعات تدريجيًّا نحو الغير يحتل «الآخر» ، ثم الآخرون فى حياته مكانة تنمو مع تطور الطفل النفسى الجنسى حتى تصل فى بنائها إبان الموقف الأوديبى إلى نموذج مصغر يحاكى علاقات الراشد فى حياته الاجتماعية ، التى يكتمل بناؤها عند مرحلة البلوغ . وليس من قبيل المصادفة أن معظم الأمراض النفسية والعقلية وخاصة جنون المراهقة — أعنى الفصام وهو أخطر الأمراض العقلية — تندلع غالبًا فى مرحلة البلوغ عند ما يصطدم تيار الجنسية المتدفق بما خلفه التطور النفسى الجنسى المتعثر أثناء الطفولة من الحواجز النفسية ، فيحتدم الصراع بينها بحيث يدفع عنف هذا الصراع بالمراهق إلى التقهقر إلى مرحلة من مراحل الطفولة التى تتميز بنقصان العلاقات الإنسانية وفجاجتها .

إن الجنسية بما هى قصدية إدراك لموضوع وفهم عشقى له ، ونسج لأنماط سلوكية ناضجة سليمة تتميز بالمودة والرحمة إزاء الآخرين ، ولا يكون للعدوان فيها مكانة إلا بقدر ما تقتضيه الحياة من الكفاح . أما إذا نكصت الجنسية إلى مراحلها الأولى بتأثير عوامل المرض ، تصدعت العلاقات الإنسانية — وهو لب المرض النفسى — فترتد إلى أنماط طفلية قد تصل فى المرض المستفحل إلى النرجسية الأولية ، فيكون الموت النفسى ، بما هو موت اجتماعى ، أى بفناء المريض بما هو إنسان ، وتسيطر فى هذه الحالة الكراهية والحنق ونزعات التدمير على حياة المريض. وهكذا تتضح صحة عبارة أفلاطون : « إنما الحب هو المطلع من اللاوجود إلى الوجود » ، كما يتضح السبب الذى أفضى بمكتشف التحليل النفسى فى دراساته اللاحقة إلى أن يعتبر الجنسية « غريزة الحياة » بوصفها نقيض « غريزة الموت »[1].

* * *

---

(١) انظر رسالة فرويد : Beyond the Pleasure Principle. The Standard Edition of The Complete Psychological Works. Vol. XVIII, London, The Hogarth Press. 1955.

وإنه ليسعدنى أن أسجل إعجابى وتقديرى للمجهود الذى بذله صديقى وزميلى الدكتور سامى محمود على فى نقل هذا الكتاب من نصه الألمانى إلى اللغة العربية نقلاً يتميز بالدقة والأمانة والاستبصار — وهى صفات لا تجتمع إلا لمحلل نفسى مؤهل ، درس التحليل النفسى فى معاهده ودُرب عليه فيها سنوات طويلة ، فضلاً عن صفاته الأكاديمية التى اكتسبها من دراساته الجامعية فى السوربون حتى حصل على إجازة الدكتوراه .

وفى اعتقادى أن ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية يعتبر حدثاً ثقافياً عظيماً فى تاريخ المكتبة العربية ، لا يضارعه إلا ترجمة كتاب « تفسير الأحلام » .

مصطفى زيور

دكتور فى الطب
أستاذ علم النفس ورئيس قسم الدراسات النفسية
بجامعة عين شمس
عضو الاتحاد الدولى للتحليل النفسى
رئيس عيادة الأمراض النفسية بكلية الطب
بباريس سابقاً

القاهرة فى ١١ من أبريل سنة ١٩٦٣

تنبيه

تعتمد هذه الترجمة بادى ذى بدء على النص الألمانى المنشور فى المجلد الخامس من أعمال فرويد المجمعة ، فى طبعة « إيماجو » بلندن ١٩٤٢ ، تحت عنوان :

Drei Abhandlungen zur Sexualtheorie.
Gesamelte Werke, Band V.
Imago Publishing Co., London 1942.

وقد نشر الكتاب أول ما نشر سنة ١٩٠٥ ، ثم أعيد طبعه فى ١٩١٠ ، و١٩١٥ ، و١٩٢٠ و ١٩٢٤ و١٩٢٥ ؛ وفى كل من هذه الطبعات المتتالية — باستثناء طبعتى ١٩٢٢ و ١٩٢٣ — عدل فرويد النص الأصلى ، حذفاً وإضافة وتنقيحاً ، تمشياً مع كشوف التحليل النفسى من ناحية (مثل نظريات الأطفال الجنسية وتنظيمات اللبيدو القبل تناسلية) وتطورات الكيمياء العضوية من ناحية أخرى(ولاسيما فيما يتصل بالأسس الكيمائية للحياة الجنسية). وقد حصر فرويد هذه التعديلات فى أضيق الحدود وقصرها على المسائل الجوهرية وحدها ، إبقاء على الكتاب فى صورته الأصلية واحتفاظاً بوحدته الأولى . والنص الوارد فى أعمال فرويد المجمعة يتضمن إذن آخر ما انتهى إليه الكتاب من تعديل ، دون إشارة إلى المراحل التى مر بها فى طبعاته المتقدمة على طبعة ١٩٢٥ .

ومن هذه الناحية تتميز الطبعة الإنجليزية على الأصل الألمانى بميزة لا تضارع . فقد عنى « جيمس ستريتشى » (James Strachey) فى ترجمته التى نشرها ضمن الطبعة النهائية من أعمال فرويد[1] بتسجيل هذه التنقيحات المتعاقبة تسجيلا دقيقاً وتقصى ما طرأ على النص الأول من تعديل فى الطبعات الأربع ، وتحديد تاريخ الإضافات المختلفة ، فجاء الكتاب نموذجاً يحتذى فى نزاهة التحقيق ودقة البحث . لذلك رأينا ضرورة الرجوع إلى الترجمة الإنجليزية والإفادة من هذا التتبع التاريخى للنص خلال الطبعات المختلفة .

(١) *The Standard Edition of the Complete Psychological Works of Sigmund Freud.* Hogarth Press, London 1953.

ومن ثمة كانت ترجمتنا العربية جمعاً بين مزية النقل عن النص الألمانى مباشرة والانتفاع بتحقيقات الترجمة الإنجليزية وهوامشها . وغنى عن البيان أننا اكتفينا بنص الترجمة الإنجليزية وحدها فى نقل الهوامش التى ظهرت فى الطبعات الألمانية السابقة ولم يعد لها ما يناظرها فى نص أعمال فرويد المجمعة (١٩٤٢) .

بيد أنا لم نتقيد بترتيب الهوامش فى الطبعتين الألمانية والإنجليزية . فقد رأينا أن من الأفضل وضع هذه الهوامش — وقد استطالت استطالة غير مألوفة — فى نهاية الكتاب لا فى أسفل الصفحات ، تبسيطاً للعرض ومنعاً من توزع الانتباه بين الهوامش المختلفة ، الأصيلة والدخيلة . ثم إننا أضفنا للنص هوامش شارحة قليلة أوردناها فى أسفله كلما مست حاجة إلى مثل هذه الشروح .

وقد أطلقنا هوامش فرويد بدون علامة مميزة ، ووضعنا هوامش « شتريتشى » بين قوسين معقوفين أما هوامشنا فثمة نص صريح على أنها إضافة المترجم .

وقد رأينا أن نلحق بالكتاب معجماً يعرض المفاهيم الأساسية الواردة فى المتن عرضاً مستفيضاً ، حتى يتمكن القارئ من فهم النص بما يقتضيه الفهم من إلمام بأصول بعض نظريات التحليل النفسى والطب النفسى المذكورة فيه ضمناً .

وقد سبق لنا أن ذيلنا كتاب فرويد « الموجز فى التحليل النفسى »[1] بثبت مماثل للمصطلحات ، مما يحدو بنا إلى وضع معجم شامل لمفاهيم التحليل النفسى ، نأمل أن نتمكن من إنجازه فى مستقبل غير بعيد .

المترجم

---

(١) فرويد : الموجز فى التحليل النفسى . ترجمة سامى محمود على وعبد السلام القفاش . دار المعارف القاهرة ١٩٦٢ .

كلمة المترجم

نعتبر « المقالات الثلاث فى نظرية الجنسية » إحدى الدعامات الأساسية فى التحليل النفسى شأنها فى ذلك شأن «تفسير الأحلام » . فقد ضمنها فرويد كشفه الثورى وهو أن الحياة الجنسية لا تبدأ – كما هو شائع – عند مرحلة النضج الفسيولوجى فى البلوغ ، بل إن لها صوراً مميزة أخرى يمكن للباحث النزيه أن يتبينها فى مراحل الطفولة المختلفة . وسوف نعرض فيما بعد لمناقشة ما لهذا الكشف من مغزى . وكذلك فقد دلل فرويد فى « تفسير الأحلام» على وجود نشاط لاشعورى منظم يتجلى فى صور الحلم ، وأن الحلم – وإن أمعن فى الغرابة – ظاهرة ذات معنى . فهو أشبه بلغة مصورة يمكن قراءتها متى عرفنا القواعد التى تلتزم بها فى صوغ الحلم . وبذلك نفذ إلى صميم الحياة النفسية فى مظاهرها الخلاقة والمرضية على حد سواء . ويعلق فرويد – فى شىء من السخرية – على هذين الكشفين اللذين غيرا مجرى الدراسات الإنسانية فى العلوم المعاصرة تغييراً حاسماً بقوله : « لقد قدر لى ، فيما يبدو ، ألا أكتشف إلا البديهى ، أن للأطفال مشاعر جنسية – وهو ما تعرفه كل المربيات ، وأن أحلام الليل إشباع رغبة شأنها شأن أحلام النهار »[1] .

بيد أن اكتشاف البديهى – إن كان يمس المكتشف ذاته والإنسان عامة – ليس بالأمر الهين ، بل تقف دونه عقبات داخلية كبرى مصدرها الإنسان ذاته وما دأب عليه من تمويه على الذات وإلغاء لما لا يتسق والصورة التى رسمها عما ينبغى أن يكون عليه . والصعوبة لا تنفك تتزايد كلما زاد الإنسان معرفة بنفسه وحاول البلوغ إلى حقيقة وجوده . وصعوبة الكشف ههنا مرادفة لبداهته أى وقوعه مباشرة على الإنسان . وليس أدل على هذه الصعوبة من تخلف علوم الإنسان تخلفاً جعل بينها وبين علوم الطبيعة بوناً شاسعاً . وليس عرضاً كذلك أن تأتى كشوف التحليل النفسى متأخرة فى تاريخ العلوم الإنسانية ما دامت تنصب على هذا الموجود

(١) E. Jones : *Sigmund Freud, Life & work*, vol. I, p. 384. Hogarth Press, London 1953.

الذى اتجه أول ما اتجه إلى معرفة الكون وغفل عن معرفة نفسه ، وأن تستثير لدى الكثيرين صوراً منوعة من عدم القبول أساسها الهوى ونقص البصيرة[١] . ولكن فلنذكر بهذا الصدد ما فى قول «نيتشه» التالى من حكمة وعمق : « إن كلاً منا – بالنسبة لنفسه – أبعد ما يكون عن نفسه[٢] » ذلك هو موقف الإنسان ونقطة البدء فى السؤال عن ماهية الإنسان .

وليس يرجع إلى الصدفة ولا إلى القدر أن يحل فرويد لغز الحلم وأن يكشف فى الآن نفسه عن وجود صور من الحياة الجنسية فى الطفولة . فالواقع أن الكشفين مرتبطان أوثق ارتباط بالتحليل النفسى من حيث هو منهج علاجى يقوم أصلا على تطبيق قاعدة التداعى المطلق ويتوسل بها إلى تحديد معنى الأحداث النفسية . ولا يكون ذلك ممكناً إلا بعد التغلب على أضرب المقاومات المختلفة وتحليل الحيل اللاشعورية التى تعمل جاهدة على تغطية هذا المعنى وتحريف مقاصده . وليس المعنى الذى يبحث عنه التحليل النفسى ، وراء الأعراض المرضية مثلا ، شيئاً ينضاف من الخارج إلى الظواهر النفسية وإنما هو جانب من جوانب الوجود الإنسانى استبعده المريض وعامله كأنه غير موجود . والغريب أن هذا الاستبعاد يتم لاشعورياً ، أى أن التمويه فعل لا إرادى فى ظاهره وإن كان يتميز بما يتميز به الفعل الإرادى من غائية وتدبير ، أو هو بالأحرى فعل شخصى لا ذكر فيه لضمير المتكلم . والتحليل النفسى طريقة مثلى للكشف عن صنوف التحريف التى تحل « بالنص

---

(١) يقول فرويد إن جل ما وجه إلى نظرية التحليل النفسى من اعتراضات « مرجعه إلى أن موضوع النظرية يجرح مشاعر إنسانية قوية . وقد لاقت نظرية داروين عين المصير ، لأنها قوضت الحاجز الذى وضع بغطرسة بين البشر والحيوان . وقد سبق أن نبهت إلى هذه المماثلة فى مقالة متقدمة (١٩١٧) ، بينت فيها كيف أن النظرة التحليلية النفسية للعلاقة بين الأنا الشعورى واللاشعور الغلاب كانت ضربة قاسية للحب الإنسانى للذات . وهو ما وصفته بأنه ضربة سيكولوجية لنرجسية بنى البشر وقارنتها بالضربة البيولوجية التى كالتها نظرية النشوء والضربة الكونية السابقة الموجهة إليها فى اكتشاف كوبرنيك » .

S. Freud : The resistences to psychoanalysis. *Collected Papers, V*, p. 173.
Hogarth Press, London 1950.

راجع أيضاً — : One of the difficulties of analysis. *Collected Papers, IV.*
وتعليقنا على ذلك أن ما فقده الإنسان من حب ذاته كسبه أضعافاً فى حب الحقيقة .

(٢) F. Nietzsche : *La généalogie de la morale*, p. 8. Mercure de France, Paris 1948.

الأصيل » ومنهاج لتفسير معانيه كما تتبدى شتاتًا فى تاريخ الفرد المبكر وما خلفه من ذكريات وأحلام وشواهد نفسية وجسمية بقيت على الزمن فى صور لم تعد مفهومة .

ووجه الجدة فى التحليل النفسى أنه المنهج الوحيد القادر على تناول هذه القدرة الهائلة على الإنكار أو النفى التى يتميز بها الوجود الإنسانى والتى تتكشف فى سلسلة متصلة من الظواهر تتأدى من الهفوات إلى المرض العقلى . والإنكار ينصب ههنا على وجود الفرد أولا بالنسبة لنفسه لا بالنسبة لغيره والتمويه — بادئ ذى بدء — هو تمويه على الذات يتم فى مستوى لاشعورى ، أى أنه — بحسب تعبير « ميرلو — بونتى » — « مرض يحل بالكوجيتو[١] » . فالإنكار فعل يحدد به الإنسان واقعه الإنسانى وبه يصبح ما هو عليه . وهو لا يتعلق أولا بعملية الكبت كما نتبينها فى بعض صور الأمراض النفسية والعقلية ، بل إن عملية الكبت هذه هى بالأحرى مظهر تتجلى فيه قدرة الإنسان الجوهرية على الإنكار ، على نحو ما تتجلى فى صور أخرى يتخذها الواقع الإنسانى ولا ترتبط بالمرض ارتباطًا ضروريًا[٢] . وقد بيّن فرويد أن القدرة العقلية على الحكم إنما تنشأ أصلا عن موقف الإنكار هذا الذى يعبر به الإنسان عما هو عليه بأن ينفى ما هو عليه ، بحيث يصبح « الإنكار رفعاً للكبت دون أن يكون تقبلا لما هو مكبوت[٤] » ، وبحيث « يعبر الأنا بصيغة سلبية عن تعرفه اللاشعور[٤] » . **وهذا السلب هو الفعل المقوم للأنا** . والإنسان بهذه المثابة هو الموجود الوحيد القادر على الإنكار وهو من دون الموجودات جميعًا الوحيد الذى يستطيع الكذب كما يستطيع تقبل الحقيقة والسعى إليها .

ولما كان التحليل النفسى يبحث فى صور النفى التى يحدد بها الإنسان وجوده ،

---

(١) M. Merleau-Ponty : *Phénoménologie de la perception*, p. 188. Gallimard, Paris 1945.

(٢) هناك أوجه لمقارنة هذا المرض بنظرية « هيجل » فى نشأة الواقع الإنسانى عن طريق نفى الوجود الطبيعى فى الإنسان . انظر :

A. Kojève : *Introduction à la lecture de Hegel*. Gallimard, Paris 1947.

(٣) S. Freud : Negation. *Collected Papers, V*, p. 182.

(٤) *Ibid.*, p. 185.

قارن J. Hyppolite : Commentaire parlé sur la *Verneinung* de Freud. *La psychanalyse*, I, 1956.

استطاع أن يمد نطاق بحثه إلى ظواهر « هامشية » فقيرة المضمون إلى أقصى حدود الفقر ، بل إنه كثيراً ما يتناول أحداثاً نفسية يكتنفها الغموض حتى ليرتاب المرء فى وجودها ذاته ، مما يخلع على التحليل النفسى مسحة من الغرابة ويبعث لدى المتأمل شيئاً من العجب ، نلمسه مثلا فى اعتراض البعض على دراسة فرويد الأحلام رغم ما تتسم به من عدم التحديد(١) . والواقع أن عدم التحديد هذا خاصية جوهرية لا تقل شأناً عن الخصائص المميزة للظواهر النفسية الأخرى ، وإن دلت على شىء فعلى وجود دافع لاشعورى إلى التعمية وطمس المعالم . فضآلة المضمون الموضوعى تحيل فى النهاية إلى جسامة العوامل الذاتية التى تعمل على النفى والإلغاء . كما يتضح من تحليل المثال التالى :

مريضة متشككة تقص على فرويد حلماً طويلا يثنى فيه بعض الأشخاص على كتابه فى « النكتة » ثناء عظيماً ، ثم يرد فجأة ذكر « قناة » : « ربما كان ذلك فى كتاب آخر يتحدث عن قناة أو على صلة بقناة ما ، فهى لم تعد تعرف . . . والأمر مختلط غاية الاختلاط »(١) . وإليك تعليق فرويد على هذا الحلم الذى أوشك أن يتلاشى من ذاكرة المريضة ولم تستبق منه إلا عناصر متفرقة ملتبسة المعنى : « ربما جنحتم للاعتقاد بأن « قناة » عنصر موغل فى عدم التحديد بحيث يفلت من كل تفسير . ومن المؤكد أن التفسير يصطدم بصعاب ، ولكن هذه الصعاب لا تصدر عن عدم وضوح العنصر بل إن عدم الوضوح وصعوبة التفسير يصدران — على الضد — عن علة واحدة بالذات . ولم ترد على بال الحالمة أية فكرة خاصة بالقناة ، وليس فى وسعى بالطبع أن أقول شيئاً بصددها . وفيما بعد ، أى فى اليوم التالى ، طرأت على ذهنها فكرة ربما كانت متعلقة بهذا العنصر من عناصر حلمها . والأمر متعلق بنكتة سمعتها . فعلى ظهر باخرة تربط « كاليه » بـ « دوفر » يتجاذب كاتب معروف أطراف الحديث مع إنجليزى يستشهد — فى معرض حديثه — بالعبارة التالية : « بين السامى والمضحك ليس إلا خطوة »(٣) . فرد الكاتب : « أجل . خطوة كاليه »

(١) S. Freud : *Introduction à la psychanalyse*, p. 96-7. Payot, Paris 1947.

(٢) *Ibid.*, p. 132.

(٣) "Du sublime au ridicule, il n'y a qu'un pas".

بالفرنسية فى النص الألمانى .

(Le pas de Calais) ويعني بذلك أنه يجد فرنسا سامية وإنجلترا مضحكة . بيد أن « خطوة كاليه » قناة هي قناة المانش . وسوف تسألوني إن كنت أرى علاقة ما بين هذه الفكرة والحلم . بكل تأكيد ، لأن الفكرة المذكورة تمدنا في الواقع بحل لهذا العنصر الملغز من الحلم[١] » . فالحلم إذن نكتة ترد بها المريضة على كتاب فرويد في النكات ، وتعبر في ردها عليه عن شكها في قيمة الكتاب بل إنها لتسعى بذلك إلى النيل من قدر المحلل والتحليل النفسي عامة رغم ما كانت تبديه إبان التحليل ولا سيما في الشطر الأول من الحلم من مشاعر الإعجاب ، وكأنها تقول : « ما أقرب الشقة بين ما يبعث على الإعجاب وما يستثير الضحك في هذا العلاج الذي ابتدعته ! » وما كان يمكن تأويل الحلم لو اتجه الباحث إلى المضمون لا إلى القوى التي تجهد في إلغاء هذا المضمون في الحلم ذاته وفي ذكرى الحلم!

* * *

كل ذلك يجعلنا نفهم أمرًا كان لا بد أن يظل مستغلقًا فهمه علينا : ألا وهو أن اكتشاف الجنسية الطفلية لم يتوصل إليه فرويد — إن تقصينا تاريخ كشوفه العلمية في مجال علم النفس المرضي — إلا من خلال تحليل ظاهرة النسيان الهستيري خاصة ، وفقدان الذاكرة الطفلي عامة . فالمعروف أن النسيان يشمل لدى معظم الناس سنوات الطفولة الأولى حتى السنة السادسة أو الثامنة . وهي حقبة من العمر غنية بالانطباعات القوية التي تؤثر في نمو الطفل النفسي أعمق الأثر وأبقاه ، وغريب حقًّا أن يطوي صفحاتها النسيان فتختفي ذكراها من حياة الفرد وكأنها لم تكن قط . ومن جهة أخرى فقد لاحظ فرويد وجود ظاهرة نسيان مماثلة لدى المرضى الهستيريين ، تجعل طفولتهم المبكرة أشبه بمرحلة من مراحل ما قبل التاريخ . أما دلالة هذا النسيان الهستيري فقد بدأ فرويد يتلمسه عند ما تنبه في سنة ١٨٩٣ ، إلى أن أعراض الهستيريا تنشأ جميعًا عن صدمات « غالبًا ما » تحدث في الطفولة[٢] . والواقع أن اكتشاف فرويد الجنسية الطفلية جاء تدريجيًّا إثر التغلب على عقبات عدة تتعلق بموضوع البحث وطرافته تعلقها بالباحث ذاته وقدرته على الاستبصار . وقد

(١) *Ibid.*, p. 132-3.

(٢) S. Freud : On the psychical mechanism of hysteria. (In collaboration with J. Breuer, 1892). *Collected Papers, I*, p. 25.

توصل فرويد فى سنة ١٨٩٥ إلى تفسير شامل للهستيريا[1] ، رد فيه أسباب المرض صراحة إلى الصدمات النفسية التى يعانيها الطفل إذ يتعرض للغواية الجنسية من قبل الراشدين . وكان فى تلك الآونة يعتبر الجنسية الطفلية مجرد قوة كامنة لا تخرج إلى الفعل إلا عرضاً بتأثير الغير ويفضى ظهورها إلى أوخم العواقب وأضرها بالفرد فى نموه النفسى . وكذلك فقد ميز بين نوعين من الخبرات الجنسية الطفلية ، الخبرات السلبية والخبرات الإيجابية ، فجعل الأولى فى أصل الهستيريا ، والثانية علة للعصاب الوسواسى . ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا الرأى فى ١٨٩٦[2] ، فبين أن الخبرات الإيجابية ذاتها تسبقها دائماً خبرات سلبية ، بحيث تصبح الأحداث الخارجية هى المسئولة أخيراً عن منشأ الجنسية الطفلية . بيد أنه كان يعجب لكثرة ورود الصدمات الجنسية الناتجة عن الغواية فى سير مرضاه الذين يعالجهم واطراد وقوعها اطراداً رتيباً ، مما يتضمن وجود عدد من المنحرفين يربو على عدد العصابيين وهى نتيجة غير مقبولة . أضف إلى ذلك أن من العسير أن نميز بين ما هو واقعى وما هو متخيل فيما يرويه المرضى من ذكريات طفولتهم الأولى لأن اللاشعور لا يتضمن أى « دليل على الواقع »[3] . ومن جهة أخرى « فمن المشكوك فيه أن الأحداث التى ترد فى وقت متأخر تكون قادرة على إثارة أخيلة ترجع إلى الطفولة . ولهذا السبب يبدو أن عامل الاستعداد الوراثى يعاود اكتساب ما فقد من أهمية[4] » . ومن ثمة فقد أقلع فرويد عن نظريته فى الغواية الجنسية إقلاعاً نهائياً فى سنة ١٨٩١ ، واكتشف فى حوالى نفس الفترة وجود دوافع جنسية غرزية لا تتوقف فى ظهورها على الأحداث الخارجية وإنما تصدر عن استعداد طفلى أصيل وتتجلى فى أخيلة تتعلق بالوالدين ، تفضى إلى ما يعرف بالموقف الأوديبى . وما كان فرويد ليخطو هذه الخطوة الحاسمة التى فتحت له أفقاً

---

(١) انظر الجزء الثانى من « تخطيط لسيكولوجية عامية » الملحق بوسائل فرويد إلى « فلهلم فليس »

S. Freud : *La naissance de la psychanalyse. Lettres à W. Fliess, notes et plans*, 1887-1902. Presses Universitaires de France, Paris 1956.

(٢) S. Freud : Further remarks on the defence neuro-psychoses (1896) *Collected Papers, I.*

(٣) — : *La naissance de la psychanalyse*, p. 191.

(٤) *Ibid.*, p. 192.

جديداً لم يرتده باحث من قبل ، لولا التحليل الذاتى الذى شرع فى القيام به فى السنة عينها ، مستعيناً فى ذلك بتأويل أحلامه ، فاستطاع أن يتبين لدى مرضاه ما كان يأبى أن يتبينه فى نفسه [١] .

وهكذا يتضح لنا — من هذه اللمحة التاريخية — أن النسيان الهستيرى وثيق الصلة بفقدان الذاكرة الطفلى وأنهما لا ينتجان عن انطماس الآثار الذكروية انطماساً نهائياً لا رجعة فيه بل عن كبت يقع على الميول الجنسية الطفلية وما ترتبط به من خبرات فيستبعدها عن نطاق الذاكرة الشعورية استبعاداً يتكفل برفعه التحليل النفسى .

بيد أن فرويد لم يكتف بإثبات وجود دوافع جنسية مميزة للطفولة ، فقد سبقه إلى الارتياب فى وجودها جمهرة من الأخصائيين الذين عنوا من قبل بدراسة الصور المختلفة التى يتخذها الشذوذ الجنسى على وجه التخصيص ، وإنما صاغ نظرية سيكولوجية شاملة تتبع فيها نشأة الدوافع الجنسية والمراحل التى تمر بها فى الطفولة حتى تنتهى إلى النضج الفسيولوجى فى البلوغ فتتحد الميول المتفرقة فى تيار واحد معد لوظيفة النسل . أو قد يتوقف التيار عند مايعترض سبيله من عقبات ، فيكون ذلك تمهيداً لظهور العصاب أو الانحراف بأنواعهما . وبعبارة أخرى فإن فرويد لم يقنع بالكشف عن **واقعة** تتصل بالدوافع الجنسية فى فترة الطفولة بل عمل بالأحرى على تبيان **معنى** هذه الواقعة بالنسبة للوجود الإنسانى عامة فى أحوال السواء والمرض والانحراف .

والأمر مماثل لما حدث فيما يتعلق بوجود « اللاشعور » . فقد أحس الشعراء والفلاسفة فى القرن التاسع عشر ، ولا سيما الرومانسيون الألمان ، بأن ثمة قوة غامضة لا ندرك كنهها تهيمن على حياتنا النفسية الواعية فى مظاهرها المختلفة ، بل إن منهم من نص صراحة على أن «معرفة الحياة النفسية الشعورية نجد مفتاحها فى منطقة

---

(١) يقول فرويد فى رسالة إلى « فليس » بتاريخ ١٤ نوفمبر ١٨٩٧ : « ما زال تحليلى الذاتى متوقفاً ، وقد فهمت الآن علة ذلك . فإنى لا أستطيع أن أحلل نفسى إلا مستخدماً المعلومات المكتسبة موضوعياً (كما هى الحال مع شخص غريب) . والتحليل الذاتى الحق شىء ممتنع فى الواقع وإلا لم يكن ثمة مرض . ولما كانت الحالات التى أعالجها ما تزال تثير عندى بعض المشكلات الأخرى ، فإنى أرانى مجبراً على وقف تحليلى الشخصى » .

راجع : E. Jones: *Sigmund Freud*, chap. *XIV: Self-analysis.*

اللاشعور[١]». بيد أن هذه التأملات الفلسفية لم تؤد إلى الكشوف العلمية الحاسمة التى ضمنها فرويد نظريته فى اللاشعور ولا إلى وصفه المفصل لماهية العمليات النفسية اللاشعورية (ما يسميه فرويد بالعمليات الأولية) فى علاقتها بالحياة النفسية الشعورية (ما يسمى بالعمليات الثانوية)[٢]. وشتان بين مجرد التسليم بوجود جانب لاشعورى من حياة الإنسان وإبراز دلالة هذه الواقعة ضمن نظرية عامة فى الحياة النفسية .

ونود أن ننبه ههنا إلى أن نظرية الجنسية الطفلية التى يعرضها فرويد تقوم أساساً على المشاهدات المنوعة التى يمدنا بها التحليل النفسى وحده مداً مباشراً . فالأمر لا يقتصر على التحقق من أن الكبت الهستيرى يخفى وراءه خبرات جنسية طفلية تتعلق بالموقف الأوديبى ، بل إن فرويد قد استعان بخبرته التحليلية التى لا تضارع فى مجال الأمراض النفسية والعقلية للاستدلال على الصورة المميزة للجنسية الطفلية والتغيرات المتعاقبة التى تطرأ عليها باطراد نمو الطفل . وهو فى الواقع « يعاود بناء » هذه الصورة إثر ما لحق بها فى حياة الفرد من صنوف التشويه والحذف والتحريف مما جعلها غريبة الملامح غامضة القسمات. وعمل المحلل هذا متميز عن التفسيرات التى يدأب على عرضها على المريض كلما مست إليها الحاجة . فالتفسير ينصب عادة على عنصر واحد بعينه من العناصر التى تتكشف عنها مستدعيات المريض ، على حين يعمل المحلل الآن على تجميع شتات فترة برمتها من حياة المريض المبكرة حل بها النسيان . وهو فى ذلك أشبه بعالم الآثار . « فكما يبنى عالم الآثار حوائط المبنى من الأسس التى ظلت قائمة ويحدد عدد الأعمدة وموضعها من منخفضات الأرضية ويعاود تكوين الزخارف والرسوم الحائطية من البقايا الموجودة التى عثر عليها بين الأنقاض ، فكذلك ينهج المحلل حين يستخلص النتائج من مستدعيات الفرد فى التحليل وسلوكه[٣]» . بيد أن المحلل ينفرد بميزة تيسر له مهمة تحديد معالم تاريخ الفرد من خلال الشذرات المتبقية منه تيسيراً عظيماً : فالحياة النفسية تتسم باتصال الماضى بالحاضر وإمكان التقدم والتراجع من حيث التطور الزمنى والقدرة على استبقاء

(١) العبارة لـ «كارل جوستاف كاروس» (Carl-Gustav Carus) وهى مقتبسة من الكتاب التالى :
A. Béguin : *L'âme romantique et le rêve*, p. 132. Corti, Paris 1946.

(٢) راجع E. Jones : *Ibid.*, p. 436.

(٣) S. Freud : Constructions in analysis (1938). *Collected Papers, V*, p. 360.

انطباعات مبكرة تلوح لأول وهلة وكأنها اختفت إلى غير رجعة . وإن ما نسعى إلى معرفته من مراحل النمو الأولى موجود بالفعل فى خبرة الفرد الحاضرة ولكنه موجود بحيث يتعذر على الفرد تعرفه أو استجلاء معناه مباشرة . « فالعناصر الجوهرية قد بقيت جميعًا ، وحتى الأشياء التى يبدو أنها قد نسيت نسيانًا تامًا ما برحت حاضرة على نحو ما وفى مكان ما ، وكل ما هنالك أنها انطمرت وأمست فى منأى عن متناول الفرد[١] » .

ومن أخطر الظواهر التى تكشف عن استمرار هذا الماضى المنسى فى حاضر الفرد — إن لم يكن أخطرها كلها — ما يسمى بظاهرة التحويل وهى عماد العلاج بالتحليل النفسى . فى التحويل يكرر المريض فى علاقته بالمحلل نمطاً من العلاقة اكتسبه فى طفولته دون أن يشعر أن سلوكه لا يصدر عن الموقف الراهن وإنما هو بعث لخبرة طفلية منسية . فهو يستعيد فى مسلكه — لا فى ذاكرته — موقفًا حال الكبت بينه وبين استعادته شعوريًا . وتكرار السلوك ههنا بديل عن الذكرى الشعورية وإساءة لإدراك الفرد للواقع برده إلى ماضيه الطفلى . مثال ذلك « أن المريض لا يقول إنه يتذكر كيف نشأ على تحدى سلطة والديه ونقدها ولكنه يسلك من الطبيب هذا المسلك . وهو لا يذكر كيف انتهى فى سعيه الطفلى وراء حقيقة الأمور الجنسية إلى فشل العاجز واليائس وإنما يأتى بحشد من الأحلام والمستدعيات المختلطة ويشكو من أنه لا ينجح فى شىء ألبتة ويصف حاله بأنه قد كتب عليه ألا يستطيع إنجاز أى شىء . وهو لا يذكر أنه كان يخجل خجلا شديداً من بعض أنواع النشاط الجنسى ولكنه يوضح أنه يخجل من العلاج الذى خضع له وأنه يبذل غاية جهده للإبقاء على سريته ، وما إلى ذلك[٢] » . ودراسة صور التحويل المختلفة دراسة مفصلة مستفيضة تربط بينها وبين أنماط الأمراض النفسية والعقلية المتباينة هى التى تجعل من الممكن نظريًا رسم الخطوط العامة لمراحل النمو النفسى

---

(١) *Ibid.*, p. 361.

(٢) S. Freud : Further recommendations in the technique of psychoanalysis. Recollection, repetition & working through. *Collected Papers, II*, p. 369.

والجنسى فى أحوال المرض والسواء[١] . وهو ما أتاح لفرويد وضع نظريته فى الجنسية الطفلية استناداً إلى معطيات التحليل النفسى وحدها دون الرجوع إلى مكتشفات علم الحياة والكيمياء العضوية من ناحية أو إلى الملاحظة المباشرة لسلوك الأطفال من ناحية أخرى .

وغنى عن البيان أن مثل هذه النظرية — وإن نشأت أصلا فى نطاق الخبرات الإكلينيكية التحليلية — تخضع للمعايير العلمية الموضوعية الخاصة باختيار صحة الفروض فى علوم الإنسان ، أسوة بمفاهيم التحليل النفسى المتصلة بالأعصبة والنمو النفسى عامة[٢]. ولكن نظراً للصعوبات التى واجهت الدراسات التجريبية التى أجريت على فروض التحليل النفسى المختلفة ، أحب أن أشير إلى نقطة تتصل بمشكلة الصدق فى التحليل النفسى لم تلق من جانب الأخصائيين اهتماماً كافياً . فالحق أن التحليل النفسى ، بما هو منهج علاجى ، يتضمن معياراً باطنياً للصدق لا ينفصل عن عملية ارتياد جوانب النفس ذاتها . فالمحلل لا يسأل : ما الذى يضمن لى أن ما يحكيه المريض الآن عن طفولته مطابق للواقع ، علماً بأن هذا الواقع قد اندثر منذ أمد بعيد ؟ وإنما يسأل : أى دافع يدفع المريض إلى أن يصور طفولته هذا التصوير الذى يجعل منه ضحية لوالده مثلا ؟ بمعنى أن السؤال لا ينصب على الواقع بل على القوى — الشعورية واللاشعورية — التى تزيف هذا الواقع فى خبرة الفرد الحاضرة . ولهذه الفكرة مقابل فنى فى إحدى القواعد الأساسية التى يلتزم بها المحلل فى صياغة التفسير الذى يدلى به للمريض ، فالتفسير يجب أن يقع أولا على « حيل الدفاع » قبل أن يتناول « المضمون » الذى يعمل المريض على استبعاده عن نطاق الشعور مستعيناً بحيلة أو بأخرى من حيل الدفاع هذه . ولنمض إلى أبعد من

---

(١) يجد القارئ مثالا توضيحياً مشوقاً على هذا المنهج فى استنباط « أبراهام » وجود مرحلتين شرجيتين ساديتين ، مرحلة مبكرة وأخرى متأخرة ، فى مقابل السوداء والعصاب الوسواسى على التوالى . راجع :

K. Abraham : A short history of the development of the Libido, viewed in the light of mental disorders (1924). *Selected Papers*, Hogarth Press, London 1949.

(٢) انظر مثلا :

R.R. Sears : Survey of objective studies of psychoanalytical concepts. *Soc. Science Research Counsil Bulletin*, 1943, 51.

ذلك: فإن المحلل النفسى لا يهتم بمطابقة أقوال المريض لموقف واقعى فى حاضره أو ماضيه لأن التحليل النفسى إنما يقوم أصلا على تعليق كل حكم وكل تقويم على صلة بالواقع الذى يعيشه الفرد فى خبرته الحية حتى يتسنى له أن يبرز مسئولية الفرد بالنسبة للعالم وبالنسبة لنفسه . ومطابقة أقوال المريض « للواقع » لا تتضمن بالضرورة أنه يقول الحق بل قد تعنى بالضد أنه يسعى إلى التمويه على الذات وتغطية ما لا يود التصريح به لنفسه . وقد يواجه المحلل مثل هذا الموقف على نحو ما واجهه فرويد فى حالة « دورا » ودفعه إلى إبداء هذه الملاحظة الملفتة : « عند ما يعرض المريض إبان العلاج التحليلى النفسى سلسلة من الحجج السليمة التى لا جدال فيها فلربما شعر الطبيب لحظة بحيرة قد يستغلها المريض بأن يسأل : "إن كل هذا صحيح وحقيقى ! فما تستطيع أن تغير منه بعد أن رويته لك ؟" ولكن سرعان ما يتضح أن المريض يستخدم مثل هذه الأفكار التى لا يستطيع التحليل مهاجمتها لكى يخفى أفكارًا أخرى تجهد فى الإفلات من النقد والشعور »[1]. ومن ثمة يجب التمييز بين الواقع والحقيقة والتنبه إلى أن التحليل النفسى يستهدف الحقيقة ولا ينى يتوسل إليها بتحليل منوع الحيل التى يحتال بها الشخص على اخفائها أو تشويهها. ومن ثمة فإن « الواقع » لا يتبدى إلا لماماً فى خاتمة المطاف بعد أن يعدل الفرد عن تصوره الزائف لنفسه وللآخرين ، ، أى بعد أن ينتقل انتقالا وجوديا من الكذب إلى الصدق . وبهذا المعنى يختلف التحليل النفسى عن العلوم الإنسانية الأخرى اختلافًا جوهريًا فى النحو الذى يضع عليه مشكلة الصدق وفى المنهج الذى ينتهجه فى حلها .

* * *

ونتتقل الآن إلى إبداء بعض الملاحظات على نظرية فرويد فى الجنسية كما يعرضها فى مقالاته الثلاث هذه : فقد يتبادر إلى الذهن أن النتائج التى يتأدى إليها فرويد من تحليله النشاط الجنسى فى صوره المتباينة لا تصدق إلا على العصابيين والمنحرفين ما دامت المقدمات التى يستند إليها مستمدة من خبرته الإكلينيكية بهاتين الفئتين

(١) S. Freud : Fragment of an analysis of a case of hysteria. *Collected Papers, III,* p. 44-5.

بالذات . وهو تفسير خاطئ كل الخطأ ، فالمعروف أن الاضطراب الذى يتسبب فيه المرض إذ يصيب وظيفة جسمية أو نفسية معينة قمين بأن يكشف لنا عن العمليات المميزة للمرض والصحة على حد سواء ، فالمرض يكون بهذه المثابة « متغيرًا تجريبيًّا » نتتبع على هديه ما يحدث فى الكائن العضوى من ظواهر لم تكن بارزة للعيان من قبل[١] .

والمثل يقال عن اضطرابات الوظيفة الجنسية فى العصاب والانحراف : فمن الممكن الاستدلال على الوظيفة الجنسية فى حالة السواء من دراسة أحوالها فى المرض . وإن نفس المبادئ النظرية لكفيلة بتفسير التغيرات المختلفة التى تطرأ عن الظاهرة عينها فى الصحة والمرض ، دون تسليم بقسمة الظواهر قسمة مصطنعة أساسها الأحكام التقويمية التى تتنافى وموضوعية النظرية العلمية ، ودون وضع مبادئ خاصة بالسواء وأخرى لتفسير المرض . وليس أدل على نظرة فرويد النزيهة إلى السلوك الجنسى من هذه الملاحظة التى قد يدهش لها البعض : « إن ما يستشعره الرجال حيال النساء من اهتمام مقصور عليهن يثير من وجهة نظر التحليل النفسى مشكلة تتطلب توضيحًا ، فهو ليس واقعة بيّنه بذاتها أساسها — فى النهاية — جاذبية ذات طبيعة كيمائية[٢] . أضف إلى ذلك أننا — متى تحررنا من أحكامنا السابقة المغرضة — سرعان ما نتبين وجود سلسلة متصلة الحلقات تربط ظواهر كانت تبدو لنا للوهلة الأولى مختلفة فيما بينها اختلافًا كيفيًّا يحول دون ترابطها على أى وجه من الوجوه . فثمة أولا علاقة جوهرية تصل بين العصاب والانحراف : فالعصاب — كما يقول فرويد — هو « الصورة السالبة للانحراف »[٣] . ومن جهة أخرى فهناك عناصر مشتركة بين العصاب والانحراف والمرض العقلى مردها إلى أن « أخيلة المنحرفين الشعورية الواضحة التى تتحول فى الظروف المواتية إلى سلوك ظاهرى ، والمخاوف الهذائية التى يسقطها مرضى البارانويا على الغير إسقاطًا عدائيًّا ، وأخيلة

---

(١) ذلك هو المنهج الذى أخذ به « جولد شتاين » مثلا فى وضعه نظريته فى « المتعضى بوصفه كلا » بناء على تحليل ما يطرأ على وظائفه من تغيرات فى حالة إصابات المخ بالذات . انظر :

K. Goldstein : *La structure de l'organisme.* Gallimard, Paris 1951.

(٢) الهامش رقم ١٣ من هوامش المقالة الأولى .

(٣) المقالة الأولى ، فقرة « العصاب والانحراف » ص ٥٤

المستيرين اللاشعورية الّتى يكشفها التحليل النفسى وراء الأعراض لديهم ، تتطابق كلها من حيث المضمون تطابقاً يبلغ حد التفاصيل[١]» . وأخيراً فإن نفس الاستعداد الطفلى غير المتفاضل نجده فى أصل كل من الصحة والمرض والانحراف جميعاً : « إن ثمة شيئاً فطرياً بالفعل يكمن وراء الانحرافات ولكنه شىء فطرى فى كل الناس ، يتفاوت شدة من حيث هو استعداد ويزيد بتأثير الحياة الفعلية . ولب الموضوع هو الجذور الجبلية الفطرية للغريزة الجنسية . فقد تنمو هذه الجذور فى عدد من الحالات (الانحرافات) فتصبح الوسائل الفعلية الّتى يصطنعها النشاط الجنسى ، وتعانى فى حالات أخرى إلغاء غير كاف (الكبت) بحيث تتمكن من أن تجذب إليها — بطريق ملتو — قدراً عظيماً من الطاقة الجنسية فى شكل أعراض ، بينما تصبح — فى الحالات المواتية الّتى تتوسط هذين الطرفين — وسائل للتقييد الفعلى وغيره من أنواع التغير ، فتفضى إلى ما يعرف بالحياة الجنسية السوية[٢]» فنحن إذن حيال إمكانيات للنمو النفسى والجنسى يحدد الإنسان وفقاً لها الصورة الّتى يصوغ فيها وجوده، وكلها تردنا إلى موقف أول أصيل يجده كل منا فى نفسه إن أمعن التأمل فى نفسه . وهو ما عبر عنه « جوته » أجمل تعبير فى قوله : « ليس غريباً عنى كل ما هو إنسانى »[٣].

بقيت نقطة أخيرة تمس جوهر النظرية . فالكشف الكبير الذى اهتدى إليه فرويد يتعلق بوجود دوافع جنسية طفلية أو قبل تناسلية نجد آثارها فى اللذة الممهدة للفعل الجنسى السوى وفى أنواع الانحرافات الجنسية المختلفة ، بحيث يغدو مفهوم « الجنسى » متميزاً عن مفهوم « التناسلى » (وهما فى اللغة الدارجة مترادفان) ، بل يصبح أوسع نطاقاً منه . ويثير هذا التوسع فى مفهوم الجنسية صعوبات نظرية تدور حول تأويل ما يقصد إليه فرويد على وجه التحديد[٤] ، فضلا عما أثار من

---

(١) الهامش رقم ٤٣ من هوامش المقالة الأولى .

(٢) المقالة الأولى ، ص ٥٩

(٣) ذلك ما يذكرنا بكلمة «أوليس» ، وهو يتأمل عدوه « آجاكس» يهذى وقد فقد رشده: « إن ما يهمك ليهمنى وفيك أرى صورتى أنا » . انظر :

L. Binswanger : *Le cas de Suzanne Urban*, p. 97. Desclée de Brouwer.

(٤) انظر مثلا :

M. Merleau-Ponty: *Phénoménologie de la perception* V. Le corps comme être sexué.

اتهامات باطلة يلمح إليها المؤلف فى تصدير الطبعة الرابعة من الكتاب الحالى . ولست أرغب فى أن أعرض ههنا النحو الذى أرتئى أن من الممكن أن نفسر عليه نظرية فرويد فى الجنسية الطفلية فذلك التفسير سيكون موضوع دراسة مستقلة نعمل على إعدادها . وإنما أكتفى بالإشارة إلى الاتجاه العام فى هذا التفسير . إن نقطة البدء فى تأملات فرويد ملاحظة غاية فى البساطة والعمق ، هى أن الوظائف الحيوية الكبرى فى الإنسان ، ولا سيما التغذية والإخراج ، لا تلبث أن تحيد عن هدفها الفعلى فتسعى إلى تحصيل اللذة مستقلة عن الأحوال الواقعية التى يتعين توفرها كيما تؤدى عملها الأصيل . وأوضح الأمثلة مص الرضيع أصبعه وفيه يستعيد الطفل **ذكرى** لذة خبرها من قبل فى علاقته بثدى أمه أو بديلتها ، « فلا بد لهذا الإشباع أن يكون موضع خبرة سابقة كيما يخلف وراءه الحاجة إلى تكراره »[1]. والإشباع يتحقق بتكرار موقف الإشباع الأول تكراراً **هلواسيا** ، بمعنى أن « النشاط النفسى الأول يهدف إلى إحداث « عينية إدراكية » أى إلى تكرار عين الإدراك الذى ارتبط بإشباع الحاجة[2]» . ومعنى هذا أن النشاط الشهوى الفمى فى الطفولة نشاط **متخيل** وثيق الصلة بمفهوم التكرار الذى يشغل فى نظرية التحليل النفسى مكاناً بالغ الأهمية رغم عدم بروزه صراحة[3]. ويقوم التكرار بدور مماثل فى أنواع النشاط الجنسى الطفلى الأخرى وخاصة فى المظاهر الاستمنائية ، بحيث يصح القول بأن نظرية فرويد فى الجنسية الطفلية هى فى الآن عينه **وصف للبعد المتخيل من الوجود الإنسانى**[4] **وتتبع لنشأة الصورة الجسمية من حيث إن هذه الصورة**

---

(١) المقال الثانى ، فقرة « الهدف الجنسى الطفلى » ص ٦٨

(٢) تفسير الأحلام : ص ٥٥٥ . ترجمة مصطفى صفوان — دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٣) أليس مما يدعو للتأمل أن بداية الحياة ونهايتها تخضعان كلاهما لعملية التكرار ، وأن اكتشاف فرويد « غريزة الموت » (التى تثير من الاعتراضات ما يعيد إلى الذهن الاعتراضات التى أثارتها الطفلية الجنسية) متعلق أيضاً بمفهوم التكرار ؟

(٤) انظر فى معنى « المتخيل » : J-P. Sartre : *L'imaginaire.* Gallimard, Paris 1948.

وكذلك :

جان بول سارتر : نظرية فى الانفعالات .

ترجمة الدكتور سامى محمود على والأستاذ عبد السلام القفاش — دار المعارف — القاهرة ١٩٦٠

تحقيق أول للمتخيل وأول تعبير عن إنية الفرد (فالأنا الأولى – على ما يقول فرويد – هو الجسم)[1]. ومن ثمة نتبين أن مفهوم الجنسي يمكن حده بأنه تعبير متخيل عن وظيفة حيوية أو هو الحيوي على سبيل المجاوز، بحيث نفهم السبب العميق فى بسط فرويد مفهوم الجنسية إلى ما سماه بالمناطق الشهوية . وإن مكتشفات الطب النفسى الجسمى لتدعونا إلى التوسع فيه أيضًا وجعله يشمل « المناطق الشهوية الداخلية » فضلا عن المناطق الشهوية الظاهرية التى تعرض لها فرويد فى كتابه .

* * *

ولا بد من أن نورد فى مختتم هذا التقديم ملاحظة ذكرها فرويد فى تصديره الطبعة الرابعة من « المقالات الثلاث فى نظرية الجنس »، « يقول : « ولو أن بنى البشر استطاعوا التعلم من المشاهدة المباشرة للأطفال لكان من الممكن أن تبقى هذه المقالات الثلاث بغير كتابة» . ولعل الاعتبارات النظرية الذى سقناها قد بينت لم كان من الضرورى أن يكتب فرويد هذا الكتاب الجوهرى .

يناير ١٩٦٣

دكتور سامى محمود على
مدرس علم النفس بكلية الآداب – الإسكندرية
دكتوراه الدولة فى علم النفس (السربون)
عضو الجمعية الباريسية للتحليل النفسى
عضو الاتحاد الدولى للتحليل النفسى .

(١) S. Freud : *The Ego & the Id.*, p. 31. Hogarth Press, London 1949.

تصدير الطبعة الثانية [1]

ليس المؤلف مخدوعاً عما يحيط بهذا العمل الصغير من ضروب النقص والغموض، ولكنه صمد لإغراء أن يدمج فيه نتائج أبحاث هذه السنوات الخمس لما فى ذلك من قضاء على وحدته وطابعه التقريرى . ومن ثمة فهو يعاود طبع النص الأصيل بتعديلات طفيفة ، قانعاً بإضافة هوامش قليلة تميزها منجمة عن القديم منها[2] . وكذلك فإن أمنيته الصادقة لهى أن يتقادم العهد بالكتاب سريعاً . وأن ما كان فيه جديداً ذات مرة يصبح موضع قبول عام، وما هو ناقص فيه يستبدل به شىء أفضل .

فيينا ، ديسمبر ١٩٠٩

---

(١) (حذف هذا التصدير من ١٩٢٠ فصاعداً) – لذلك فقد ترجم ههنا عن الطبعة الإنجليزية وحدها . (المترجم)

(٢) (أهمل هذا التعبير فى كل الطبعات التالية) .

تصدير الطبعة الثالثة

بعد أن راقبت زهاء ما يقرب من عشر سنوات ما لقيه هذا الكتاب من قبول وما أحدثه من أثر ، فإنى أتحين فرصة نشر طبعته الثالثة لكى أصدره ببعض ملاحظات تستهدف منع ضروب من سوء الفهم وأمنيات لا يمكن الوفاء بها . وقبل كل شيء فلا بد من توكيد أن العرض الذى يتضمنه مستمد بأسره من المشاهدة الطبية اليومية التى تسبغ عليها مكتشفات البحث التحليلى النفسى عمقاً إضافياً ودلالة علمية . فمن المحال أن تشتمل هذه **المقالات الثلاث فى نظرية الجنس** شيئاً لم يجعل التحليل النفسى من الضرورى افتراضه أو من الممكن إثباته . فلا محل إذن لإمكان التوسع فيها لكى تصبح « نظرية جنسية » كاملة الأطراف ، ومن الطبيعى أن يظل عدد من مشاكل الحياة الجنسية الهامة لا تتناولها على الإطلاق . فلا يعتقدن أحد ، بناء على ذلك ، أن الفصول المتروكة من هذا الموضوع الكبير لم تحظ باعتراف المؤلف أو أنه أهملها لضآلة قدرها .

أما أن هذا الكتاب يعتمد على التجارب التحليلية النفسية التى أدت إلى تأليفه ، فأمر لا يتبدى فى انتقاء مادته فحسب بل فى تنسيقها كذلك . فقد وضعت العوامل المنوعة ، خلال الكتاب بأسره ، فى ترتيب معين من السبق ، فكان التفضيل للعوامل العارضة بينما جاءت العوامل الاستعدادية فى المحل الثانى ، ونال النشوء الفردى — دون النشوء النوعى — قسطا أعظم من الاهتمام . وذلك لأن العوامل العارضة تقوم بالدور الرئيسى فى التحليل : وهى تكاد تكون جميعاً خاضعة لتأثيره . والعوامل الاستعدادية تظهر من بعدها وكأنها شيء بعثته الخبرة من الرقاد . بيد أن تقويمها يقصينا عن نطاق التحليل النفسى .

وإن رابطة مماثلة لتتحكم فى العلاقة بين النشوء الفردى والنشوء النوعى . فمن الممكن اعتبار النشوء الفردى تكراراً للنشوء النوعى من حيث أن الخبرة المستحدثة لم تؤثر فى هذا الأخير . ويمكن أن نستبين نشاط الاستعداد النشوئى النوعى وراء

عملية النشوء الفردى . وما الاستعداد فى النهاية إلا راسب من رواسب خبرة النوع المبكرة مضافاً إليها خبرة الفرد المستحدثة بوصفها جماع العوامل العارضة .

وأيـًّا ما كان فلا بد أن أؤكد أن عملى الحاضر هذا لا يتميز بأنه قائم كلية على البحث التحليلى النفسى فحسب بل بأنه مستقل استقلالا متعمداً عن مكتشفات علم الحياة أيضاً . فقد حرصت — فى هذه الدراسة التى تتعلق بالوظائف الجنسية لدى الكائنات الإنسانية والتى مكننا من القيام بها فن التحليل النفسى — على تجنب إدخال أى من الافتراضات العلمية سواء كانت مستمدة من علم الحياة الجنسية العام أو علم حياة أى نوع حيوانى معين . والواقع أن هدفى كان بالأحرى معرفة مدى ما يستطيع الفحص السيكولوجى كشفه من بيولوجية الحياة الجنسية لدى الإنسان . وكنت محقـًّا فى الإشارة إلى نقط الالتقاء والاتفاق التى تبرز إبان الفحص ، ولكن لم تكن بى حاجة إلى الانصراف عن طريقى إن أفضت الطريقة التحليلية النفسية — فى عدد من النقاط الهامة — إلى آراء ومكتشفات تختلف اختلافاً بيـّناً عن تلك التى تقوم على اعتبارات بيولوجية .

وقد أضفت إلى هذه الطبعة الثالثة إضافات عدة دون أن أعلمها بعلامات خاصة كما فعلت فى الطبعة السابقة . وإن كان العمل العلمى فى ميداننا قد خفف الآن من سرعة خطاه ، إلا أنه كان من الضرورى إلحاق إضافات معينة بهذا الكتاب كيما يظل معقود الصلة بالمؤلفات التحليلية النفسية المستحدثة [١].

فيينا : أكتوبر ١٩١٤

---

(١) [ظهر الهامش التالى فى هذا المكان سنة ١٩١٥ وحدها :] فى ١٩١٠ وعلى أثر نشر الطبعة الثانية ، نشرت بنيويورك ترجمة إنجليزية قام بها ا.ا. بريل ، وفى ١٩١١ ظهرت بموسكو ترجمة روسية قام بها ن . أوسيوف . [وكذلك ظهرت خلال حياة فرويد ترجمات إلى المنغارية (١٩١٥) والإيطالية (١٩٢١) والأسبانية (١٩٢٢) والفرنسية (١٩٢٣) والبولاندية (١٩٢٤) والتشكوسلوفاكية (١٩٢٦) واليابانية (١٩٣١)] .

تصدير الطبعة الرابعة

أما وقد انحسرت أمواج فترة الحرب ، فمن بواعث الرضا أن يستطيع المرء أن يقرر أن الاهتمام بالبحث التحليلى النفسى ما زال باقياً فى العالم أجمع سليماً غير منقوص . بيد أن الأجزاء المختلفة من النظرية لم يكن لها جميعاً نفس المصير . فالقضايا السيكولوجية الخالصة ومكتشفات التحليل النفسى فى اللاشعور والكبت والصراع الذى يفضى إلى المرض ومكسب المرض وحيل تكون الأعراض وغيرها حظيت باهتمام متزايد وكانت موضع اعتبار حتى لدى خصومنا الرئيسيين . ومع ذلك فإن ذلك الجزء من النظرية الذى يقع على تخوم علم الحياة والذى أرسيت أسسه فى هذا الكتيب ، ما برح يواجه معارضة لا تتضاءل ، بل إنه أدى ببعض من اهتم وقتاً ما بالتحليل النفسى اهتماماً شديداً إلى تركه واعتناق آراء جديدة تحد ثانية من الدور الذى يؤديه عامل الجنسية فى الحياة النفسية السوية والمرضية .

ومهما يكن من أمر ، فليس يسعنى أن أتقبل الفرض القائل بأن هذا الجزء من النظرية التحليلية النفسية أكثر بعداً مما عداه عن الواقع المطلوب كشفه . وإن الذاكرة والفحص المستعاد بلا توان ليقولان لنا إن هذا الجزء من النظرية قائم على ملاحظة ذات قدر مماثل من النزاهة والدقة . وليس ثمة صعوبة فى تفسير هذه التفرقة فى التقبل عامة . فبدايات الحياة الجنسية الإنسانية الموصوفة ههنا لا يمكن أن يؤيدها — بادئ ذى بدء — إلا الباحثون المزودون بقسط واف من الصبر والمهارة الفنية يتيح لهم المضى بالتحليل إلى السنوات الأولى من طفولة المريض . وفرصة القيام بهذا لا تتوفر عادة لأن العلاج الطبى يقضى — فى ظاهره على الأقل — أن يعالج المريض علاجاً أسرع . وعلى أية حال فإن الأطباء الذين يمارسون التحليل النفسى يستطيعون وحدهم النفاذ إلى هذا المجال من مجالات المعرفة أو يتاح لهم تكوين حكم نزيه عما ينفرون منه أو يميلون إليه . ولو أن بنى البشر استطاعوا التعلم من المشاهدة المباشرة للأطفال لكان من الممكن أن تبقى هذه المقالات الثلاث بغير كتابة .

ومهما كان من أمر فلنذكر أن بعض ما يتضمنه هذا الكتاب — من إبرازه أهمية الجنسية فيما ينجز بنى البشر من أعمال ومحاولته التوسع فى مفهوم الجنسية — قد زود المعارضة للتحليل النفسى بأقوى دوافعها . فقد ذهب الناس فى بحثهم عن الشعارات الطنانة إلى حد الكلام عن « الجنسية الشاملة » فى التحليل النفسى واتهامه اتهامًا أحمق بأنه يفسر « كل شىء » بالجنسية . وكنا نعجب لهذا إن استطعنا نحن أنفسنا أن ننسى كيف أن العوامل الانفعالية تبلبل ضمائر الناس وتنسيهم ما يعلمون . وذلك لأن الفيلسوف «أرتورشوبنهاور» (Arthur Schopenhauer) قد بين للناس منذ أمد طويل إلى أى مدى تحدد النوازع الجنسية — بالمعنى المألوف للكلمة — نشاطهم وجهودهم . ومن المحال قطعًا أن يستبعد من ذهنه فريق بأسره من القراء هذا التحذير الملفت . أما عن « بسط » مفهوم الجنسية بسطاً حتمه تحليل الأطفال ومن ندعوهم شواذًّ ، فإن من ينظر من عليائه نظرة ازدراء إلى التحليل النفسى عليه أن يذكر مدى التطابق الوثيق بين الجنسية التى توسع فيها التحليل النفسى والإيروس لدى أفلاطون الإلهى [قارن « ناخمانزون » (Nachmansohn) : نظرية الليبيدو لدى فرويد ومقارنتها بنظرية الإيروس لدى أفلاطون . **المجلة الدولية للتحليل النفسى** . المجلد الثالث سنة ١٩١٥] .

فيينا ، مايو ١٩٢٠

المقالة الأولى

الانحرافات الجنسية[1]

إن وجود الحاجات الجنسية لدى الإنسان والحيوان يعبر عنه فى علم الحياة بافتراض « غريزة جنسية » * ، على مثال الجوع فى غريزة التغذية . ولما كانت اللغة الدارجة تعوزها لفظة تقابل كلمة « الجوع » فإن العلم يستخدم « اللبيدو » بهذه الصفة[2] .

ويتصور الرأى الشعبى تصورات محددة غاية التحديد فى طبيعة هذه الغريزة الجنسية ومميزاتها . فهى مفتقدة فى الطفولة وتظهر فى فترة البلوغ مرتبطة بعملية النضج وتتجلى فى مظاهر جذب لا يقاوم يمارسه أحد الجنسين بالنسبة للآخر وهدفها الاتحاد الجنسى أو أفعال تسير — على أية حال — فى طريق يفضى إليه .

بيد أن لنا من الأسباب ما يجعلنا نكتشف أن هذه الدعاوى تصور الواقع فى أزيف صورة ، وإن أمعنا فيها النظر وجدناها تنطوى على أغلاط وتحريفات وأحكام متعجلة .

فلندخل مصطلحين : فنسمى الشخص الذى يصدر عنه الجذب الجنسى بالموضوع الجنسى والفعل الذى تستهدفه الغريزة بالهدف الجنسى . ومن ثمة تدلنا التجربة العلمية الدقيقة على أن الكثير من الانحرافات تحدث بالنسبة لكل من الموضوع الجنسى والهدف الجنسى ، بحيث تتطلب علاقتها بحالة السواء فحصاً شاملا .

* الأصح ترجمة هذا المفهوم (Geschlechtstrieb) بالدافع الغرزى الجنسى لولا أن الشائع فى الفرنسية والإنجليزية ترجمته بالغريزة . ومن ثمة يجب التنبيه إلى أن فرويد يستخدم مفهوم الغريزة بهذا المعنى الخاص الذى لا يتضمن وجود هدف ثابت لا يتغير ولا موضوع محدد تسمى اليه الغريزة بالفطرة — (المترجم) .

(١) الانحرافات فى الموضوع الجنسى

إن النظرية الشعبية فى الغريزة الجنسية تعبر عنها أجمل تعبير الأسطورة الشعرية الخاصة بقسمة البشر إلى نصفين — الرجل والمرأة — يسعيان إلى الاتحاد فى الحب ثانية[٣]. ومن ثمة فما يثير فينا عجباً عظيما أن نسمع أن من الرجال من يتخذ الرجل لاالمرأة موضوعاً جنسياً ومن النسوة من يتخذن المرأة لاالرجل موضوعاً جنسياً. ويسمى أمثال هؤلاء الأشخاص منعكسين جنسياً أو بالأحرى مرتكسين والواقعة ارتكاساً. وأمثال هؤلاء الأشخاص جم غفير وإن كان ثمة صعوبات فى تقرير ذلك على وجه الدقة[٤].

(١) الارتكاس

سلوك المرتكسين : يسلك هؤلاء الأشخاص وفقاً لاتجاهات مختلفة كل الاختلاف.

(ا) فقد يكونون مرتكسين **مطلقين** ، بمعنى أن موضوعهم الجنسى مقصور على أفراد جنسهم وحدهم ، بينما لا يكون أفراد الجنس الآخر موضوعاً لرغبتهم الجنسية على الإطلاق بل لا يأبهون لهم أو يشمئزون منهم جنسياً . فإن كانوا رجالا أفضى بهم الاشمئزاز إلى العجز عن أداء الفعل الجنسى السوى أو إلى افتقاد كل لذة فى أدائه .

(ب) وقد يكونون **مرتكسين خليط** (خناث من الناحية النفسية الجنسية) بمعنى أن موضوعهم الجنسى قد يكون منتسباً إلى جنسهم أو إلى الجنس الآخر على حد سواء ، وهكذا يفقد الارتكاس طابع الأحادية .

(حـ) وقد يكونون مرتكسين **عرضيين** ، بمعنى أنهم يستطيعون — فى ظروف معينة — منها عدم توفر الموضوع الجنسى السوى والمحاكاة — اتخاذ شخص من جنسهم ذاته موضوعاً جنسياً يحسون بالإشباع عند إتيان الفعل الجنسى معه .

ثم إن المرتكسين يقفون من الحكم على انحراف غريزتهم الجنسية مواقف

متباينة ، فالبعض يعتبر الارتكاس شيئًا طبيعيًّا لديهم مثلما يتقبل السوى اتجاه اللبيدو لديه ويدفعون دفعًا قاطعًا بمشروعيته بقدر مشروعية الاتجاه السوى . بينما يتمرد البعض الآخر على ارتكاسهم ويشعرون به وكأنه قهر مرضى[٥] .

وثمة اختلافات أخرى تخص مسألة الزمن . فقد تكون سمة الارتكاس فى الفرد دائمة مهما أوغلت ذاكرته فى الماضى أو قد لا تظهر إلا قبل أو بعد البلوغ[٦] . وقد تظل السمة باقية طوال الحياة كلها أو قد تختفى وقتًا ما أو قد تكون حدثاً فى مجرى النمو السوى ، بل قد تتبدى لأول مرة فى متأخر الحياة بعد انقضاء فترة طويلة من النشاط الجنسى السوى . وكذلك فقد شوهد تذبذب دورى بين الموضوع الجنسى السوى والارتكاسى . وثمة على وجه التخصيص حالات مشوقة تحول فيها اللبيدو فى اتجاه الارتكاس إثر خبرة مؤلمة بالموضوع الجنسى السوى .

وعادة ما تكون هذه النسق من الأنواع مستقلا بعضها عن البعض الآخر . أما عن الصورة القصوى فيها فمن الممكن أن نفترض أن الارتكاس قد وجد منذ عهد مبكر غاية التبكير وأن الشخص شعر بأنه غير منفصل عن سمته هذه .

وقد يأبى الكثير من المؤلفين الجمع بين الحالات المحصاة ههنا جمعًا موحداً ويؤثرون إبراز أوجه الخلاف لا الشبه بين هذه المجموعات ، بما يتفق ونظرتهم المفضلة إلى الارتكاس . ومع أنه لا مجال لإنكار الفروق إلا أنه من المحال التغاضى عن وجود أمثلة عدة من كل نمط بحيث نخلص بالضرورة إلى أننا حيال سلسلة متصلة الحلقات .

تأويل الارتكاس : إن أول تقويم للارتكاس يقوم على تفسيره بأنه علامة فطرية من علامات الانحلال العصبى ، نظراً لأن الملاحظين الطبيين صادفوه أولا لدى مرضى الأعصاب أو لدى أشخاص يبدون فى مثل هذه الحال . ويتضمن هذا الوصف دعوتين يجب النظر فيهما كلا على حدة : الفطرية والانحلال .

الانحلال : يثير الانحلال اعتراضات يمكن إثارتها على استخدام الكلمة عامة فى غير تمييز . فقد أصبح من المألوف اعتبار أن أى عرض من أعراض المرض لا يرجع مباشرة إلى الصدمة أو العدوى ، علامة على الانحلال . وإن تصنيف « مانيان » (Magnan) المنحلين مجعول بحيث لا يمنع من تطبيق مفهوم الانحلال على

جهاز عصبي فى حالة عامة ممتازة . وللمرء أن يسأل ، فى هذه الأحوال ، إن كان الحكم « بالانحلال » ما يزال ذا نفع أو ذا مضمون جديد . ويلوح أن من الأحكم عدم الحديث عن الانحلال إلا :

١ ــ حيث تتجمع عدة انحرافات خطيرة عن حالة السواء .

٢ ــ وحيث يبدو أن القدرة على الإنتاج والحياة قد تلفت تلفاً خطيراً [٧].

أما أن المرتكسين ليسوا منحلين ــ بهذا المعنى المشروع للكلمة ــ فهو ما تتآزر عدة وقائع على إبرازه :

١ ــ فالارتكاس يوجد لدى أشخاص لا يبدو عليهم أى انحرافات خطيرة عن السواء .

٢ ــ وكذلك لدى أشخاص لم تختل لديهم القدرة على الإنتاج وإنما يتميزون بنمو عقلى وثقافة أخلاقية عالية[٨] .

٣ ــ إن غضضنا الطرف عن المرضى الذين نعرفهم بخبرتنا الطبية وجلنا ببصرنا فى أفق أرحب وجدنا وقائع ذات اتجاهين تمنعنا من اعتبار الارتكاس علامة من علامات الانحلال :

(ا) يجب أن نلتفت إلى أن الارتكاس كان ظاهرة شائعة ــ إن لم يكن نظاماً ذا وظائف هامة لدى الشعوب القديمة فى ذروة ثقافتها .

(ب) ونجده منتشراً على نحو ملفت بين كثير من الشعوب المتوحشة والبدائية على حين يقتصر مفهوم الانحلال على الحضارة فى أوجها (ا . بلوخ) بل إن الطقس والعنصر ، لدى أكثر شعوب أوربا حضارة ، ليؤثران أقوى أثر فى انتشار الارتكاس والحكم عليه[٩] .

الفطرية : لا تنسب الفطرية بالطبع إلا إلى الفئة الأولى المتطرفة من المرتكسين بناء على توكيد هؤلاء أن غريزتهم الجنسية لم تبد فى أى فترة من فترات الحياة أى اتجاه آخر . وأن مجرد وجود الفئتين الأخيرتين ولا سيما الثالثة يجعل من الصعب الجمع بينه وبين فرض الخلق الفطرى . ومن هنا كان ميل المؤيدين لهذا الرأى إلى فصل جماعة المرتكسين المطلقين عن الجماعات الأخرى وفى ذلك تخل عن فرض فى

الارتكاس ينطبق على الحالات جميعها . ومن ثمة يكون الارتكاس فى مجموعة من الحالات ذا طابع فطرى ، بينما يمكن أن يتأتى بطريقة مغايرة فى حالات أخرى .

ونقيض ذلك يتمثل فى الفرض القائل بأن الارتكاس سمة مكتسبة للغريزة الجنسية . وهو فى هذا يستند إلى :

١ ــ أن من الممكن تبين ــ لدى كثير من المرتكسين (وحتى المطلقين منهم) ــ أن انطباعاً جنسياً فعالا مبكراً قد ترك أثراً باقياً فى صورة ميل جنسى مثلى .

٢ ــ وأنه لدى كثير غيرهم ، يمكن تحديد ظروف خارجية من ظروف الحياة كان لها تأثير موات أو معطل ، أدت عاجلا أو آجلا إلى تثبيت الانحراف (قصور العلاقات على نفس الجنس والزمالة فى الحرب والاعتقال فى السجن وأخطار العلاقات الجنسية الغيرية والتبتل والضعف الجنسى وما إلى ذلك) .

٣ ــ وأن من الممكن استبعاد الارتكاس عن طريق الإيحاء التنويمى ، وهو أمر يدعو للعجب إن افترضنا سمته الفطرية .

وبناء على هذه الشواهد ، جاز للمرء التشكك فى وجود ارتكاس فطرى عامة ، ويمكن التدليل (هافلوك إيليس) على أن الإمعان فى فحص الحالات المزعومة من الارتكاس الفطرى يكشف كذلك عن احتمال وجود خبرة من خبرات الطفولة المبكرة حددت للبيدو اتجاهه ولم تحفظها ذاكرة الفرد الشعورية وإن كان من الممكن استرجاعها عن طريق تأثير ملائم . وليس يمكن فى رأى هؤلاء الكتاب وصف الارتكاس إلا بأنه تغير فى الغريزة الجنسية يحدده عدد من ظروف الحياة الخارجية .

بيد أن هذا اليقين الظاهرى تقضى عليه ملاحظة مضادة : فإن كثيراً من الأشخاص تعرضوا للمؤثرات الجنسية المذكورة (وكذلك للتغرير والاستمناء المتبادل فى بواكير الصبا) دون أن يرتكسوا أو يظلوا مرتكسين على الدوام . ومن ثمة نجدنا مدفوعين إلى التسليم بأن الموازنة بين الفطرى والمكتسب ليست قاطعة أو أنها لا تتناول كل ما ينطوى عليه الارتكاس من مسائل .

تفسير الارتكاس : إن طبيعة الارتكاس لا يفسرها الفرض القائل بفطريته ولا الفرض الآخر القائل بأنه مكتسب . ولا بد فى الحالة الأولى من تحديد ما هو

فطرى فيه ، إن لم نأخذ بالتفسير الفج الذى ينص على أن شخصاً ما يولد وغريزته الجنسية مرتبطة بموضوع جنسى معين . وفى الحالة الأخرى نتساءل عما إذا كانت المؤثرات العارضة المختلفة كافية لتفسير الانحراف دون معاونة شىء صادر عن الفرد نفسه . وليس ينبغى ، كما بينا من قبل ، إنكار هذا العامل الأخير .

اللجوء إلى الجنسية الثنائية : إن الاعتبارات التى أوردها « فرانك لايدستون» (Lydston) [١٨٨٩] و« كيرنان» (Kiernan) [١٨٨٨] و«شيفالييه» (Chevalier) [١٨٩٣] فى محاولتهم تفسير إمكان أحد أنواع الارتكاس الجنسى ، تعارض الرأى الشعبى معارضة جديدة . فهذا الأخير يقرر أن الإنسان إما رجل أو امرأة . بيد أن العلم يعرف حالات تبدو فيها الصفات الجنسية مختلطة بحيث يغدو من العسير تحديد الجنس ، ويتجلى ذلك بادئ ذى بدء فى مجال التشريح . فالأعضاء التناسلية لدى هؤلاء الأشخاص تجمع بين خصائص الذكورة والأنوثة (الخنثوية) . وفى حالات نادرة يوجد الجهازان التناسليان جنباً إلى جنب وقد اكتمل نموهما (الخنثوية الحقة) ، وإن كان الأكثر شيوعاً وجودهما فى حالة من الضمور [١٠] .

بيد أن أهمية هذه الشذوذات ترجع إلى أنها تسهل فهم البناء السوى على نحو غير متوقع . فإن درجة معينة من الخنثوية التشريحية لا تنفصل عن السواء ، وما من فرد ذى تكوين ذكرى أو أنثوى سوى إلا وجدنا لديه آثار جهاز الجنس الآخر ، سواء ظلت بغير وظيفة بوصفها أعضاء أثرية أو تحولت متخذة وظائف أخرى . وثمة تصور قائم على هذه الحقائق التشريحية المعروفة منذ أمد طويل وهو أن ثمة ميلا أصيلا ثنائى الجنس تحوّل إبان النمو إلى جنسية أحادية ، مصحوبة بآثار قليلة من آثار الجنس الضامر .

وكان من المغرى نقل هذا التصور إلى المجال النفسى وتفسير الارتكاس بأنواعه بوصفه تعبيراً عن الخنثوية النفسية . ويقتضى حل الإشكال وجوب أن يكون الارتكاس مصحوباً دائماً بالعلامات النفسية والبدنية للخنثوية .

إلا أن هذا الأمل قد خاب . فمن المحال البرهنة على وجود مثل هذه العلاقات الوثيقة بين الخنثوية النفسية المزعومة والخنثوية التشريحية المقررة. وكثيراً ما نجد لدى المرتكسين انخفاضاً عاماً فى الغريزة الجنسية (هافلوك إيليس Havelock Ellis

١٩١٥) وضموراً تشريحياً طفيفاً فى الأعضاء . كثيراً لا دائماً ولا حتى غالباً . فمن ثمة لابد من الاعتراف بأن الارتكاس والخنثوية مستقل أحدهما عن الآخر على وجه العموم .

وكذلك فقد أسبغت قيمة كبرى على ما يسمى بالصفات الجنسية الثانوية والثلاثية وأبرزت كثرة ورودها لدى المرتكسين (هافلوك إيليس ١٩١٥) . وكثير من هذا صحيح ولكن يجب أن لا ننسى أن الصفات الجنسية الثانوية والثلاثية كثيرة الورود عامة لدى الجنس الآخر ، فهى علامات على الخنثوية دون أن تدل على تغير الموضوع الجنسى فى اتجاه الارتكاس .

وكان يؤيد الخنثوية النفسية أن يكون ارتكاس الموضوع الجنسى مصحوباً على الأقل بتحول مقابل فى صفات الفرد النفسية المعتادة وغرائزه وسماته الخلقية إلى ما يتميز به الجنس الآخر . بيد أن مثل هذا الارتكاس فى الخلق لا يمكن أن نتوقعه – بشىء من الاطراد – إلا لدى النسوة المرتكسات ، بينما يمكن أن تمتزج لدى الرجال الذكورة النفسية فى أكمل صورها بالارتكاس . فإن كان لنا أن نتمسك بالخنثوية النفسية ، فلا بد من أن نضيف أن مظاهرها فى المجالات المختلفة لا تترابط فيما بينها الا ترابطاً ضعيفاً . والمثل يصدق كذلك على الخنثوية الجسمية . ويرى « هالبان » (Halban) (١٩٠٣)[١١] أن ضمور الأعضاء الفردية والصفات الجنسية الثانوية فى تكونها مستقل كلاهما عن الآخر إلى حد بعيد .

وقد عبر أحد الناطقين بلسان المرتكسين الذكور عن نظرية الجنسية الثنائية فى أفج صورها بقوله : مخ امرأة فى جسم رجل . بيد أننا لا نعرف خصائص مخ المرأة . وإن إحلال المسائل التشريحية محل المشاكل السيكولوجية أمر لا جدوى منه ولا مبرر له . ومحاولة « كرافت – إيبنج » التفسيرية تبدو أدق من محاولة « أولرش » رغم عدم اختلافها معها فى الجوهر . ويرى « كرافت » – إيبنج » أن الاستعداد الجنسى الثنائى فى الفرد يمده بمراكز المخ الذكرية والأنثوية كما يمده بالأعضاء الجنسية الجسمية . وهذه المراكز تنمو لأول مرة فى البلوغ ، وغالباً ما يكون ذلك بتأثير الغدة الجنسية التى تكون مستقلة عنها من حيث الاستعداد الفطرى . وما يصدق عن « الأمخاخ » الذكرية والأنثوية يصدق بالمثل على « المراكز » الذكرية والأنثوية .

وبهذه المناسبة فنحن نجهل تماماً ما إذا كان لنا أن نفترض وجود بعض مناطق مخية (« المراكز ») مخصصة لوظائف الجنس على نمط ما نفترض لوظائف الكلام[١٢] .

تبقى فكرتان تدعمهما هذه المناقشات : أن ميلا جنسياً ثنائياً يتدخل بالنسبة للارتكاس وإن كنا لا نعرف على أى أساس من البناء التشريحى يقوم هذا الميل ، وأنه ينبغى أن نهتم بتناول الاضطرابات التى تطرأ على الغريزة الجنسية إبان نموها .

الموضوع الجنسى لدى المرتكسين : تفترض نظرية الخنثوية النفسية أن الموضوع الجنسى لدى المرتكسين على عكس ما هو عليه لدى الأسوياء . فالرجل المرتكس يتأثر بالفتون الصادر عن صفات الجسم والنفس الذكرية ، فهو يشعر بنفسه كأنه امرأة تسعى إلى رجل .

ومهما كانت دقة انطباق هذا على فئة بأسرها من المرتكسين ، إلا أنه لا يكشف عن مميز شامل من مميزات الارتكاس . فلا ريب أن نسبة كبرى من المرتكسين الذكور يحتفظون بالطابع النفسى للذكورة وأنهم يتميزون بعدد غير قليل نسبياً من الصفات الثانوية للجنس الآخر وأنهم إنما يبحثون فى موضوعهم الجنسى عن السمات النفسية المؤنثة . وإن كان الأمر على غير ذلك ، بات غير مفهوم لم كان البغايا الذكور الذين يعرضون أنفسهم على المرتكسين فى الوقت الحاضر كما فى العصور الماضية يحاكون النساء فى مظاهر الملبس والمسلك جميعاً ، وإلا كانت هذه المحاكاة نيلا من المثل الأعلى للمرتكسين . وقد كان من الجلى لدى الإغريق — حيث ينتمى أكثر الرجال ذكورة إلى المرتكسين — أن ما يستثير حب الرجل ليس الطابع الذكرى الذى يتسم به الصبى وإنما شبهه البدنى بالمرأة وما يتصف به من صفات الأنثوية النفسية من حياء وتواضع وافتقار إلى التعلم والعون . وما إن يصبح الصبى رجلا حتى يقلع عن كونه موضوعاً جنسياً للرجال بل ربما أصبح نفسه محباً للصبية . فالموضوع الجنسى فى هذا المثال كما فى كثير غيره ليس الجنس نفسه وإنما هو الجمع بين صفات الجنسين وكأن ثمة توفيقاً بين دافع يسعى إلى الرجل ودافع يسعى إلى المرأة بشرط أن يكون الجسم (الأعضاء التناسلية) مذكراً بالضرورة ، بحيث يكون انعكاساً لطبيعة الفرد الثنائية الجنس[١٣] .

والأمر أكثر وضوحاً فى حالة المرأة حيث تبدى المرتكسات الإيجابيات كثيراً

من خصائص الرجال البدنية والنفسية ويبحثن عن الأنوثة فى موضوعهن الجنسى ، وإن كان تعمق المعرفة قد يكشف ههنا أيضاً قدراً أعظم من التنوع ؟

الهدف الجنسى لدى المرتكسين : إن الشىء المهم الذى يجب الوقوف عنده هو أنه لا يمكن وضع هدف واحد للانحراف . فالاتصال الجنسى عن طريق الشرج لدى الرجال لا يستغرق الارتكاس كله ؛ فغالباً ما يكون الاستمناء هدفهم الأوحد والقيود التى تحد من الهدف الجنسى — فترده إلى مجرد سورة من الانفعال — أكثر شيوعاً ههنا منها بين من يحبون أفراد الجنس الآخر . وكذلك فإن الأهداف الجنسية منوعة لدى النسوة المرتكسات ، ويبدو أن ثمة تفضيلا للملامسة عن طريق الغشاء المخاطى للفم .

نتيجة : الحق أننا نرى أنفسنا عاجزين عن تفسير أصل الارتكاس تفسيراً مرضياً على أساس من المادة التى عرضنا لها حتى الآن . بيد أنا نلحظ أن بحثنا قد قادنا إلى حقيقة من الممكن أن تبدو لنا ذات مغزى أعظم من حل المشكلة المذكورة ذاتها . فقد تبين لنا أننا تعودنا اعتبار الرابطة بين الغريزة الجنسية والموضوع الجنسى أوثق مما هى عليه بالفعل . وقد لقنتنا الخبرة التى تمدنا بها الحالات الشاذة أن ثمة التحاماً خارجياً ههنا بين الغريزة الجنسية والموضوع الجنسى ، نحن فى عرضة لإهماله نتيجة لاطراد الصورة السوية التى يتبدى فيها الموضوع غير منفصل عن الغريزة . وفى ذلك لفت لنا لكى نرخى عرى الرباط الذى يربط فى ذهننا بين الغريزة والموضوع ، فالمرجح أن الغريزة الجنسية غير مرتبطة أولا بموضوعها وأن أصلها لا يرجع إلى الاستثارات التى تصدر عن الموضوع .

(ب) غير الناضجين جنسياً والحيوانات باعتبارهم موضوعات جنسية

إن ما يسترعى نظر الملاحظ لدى الأشخاص الذين لا ينتمى موضوعهم الجنسى إلى الجنس الملائم ، أعنى المرتكسين ، هو أنهم عدد من أفراد قد يكونون أصحاء فى النواحى الأخرى ، بينما نجد أن الحالات التى ينصب فيها اختيار الموضوعات الجنسية على أشخاص غير ناضجين جنسياً (الأطفال) تعتبر مباشرة انحرافات قائمة بذاتها . ولا يكون الأطفال موضوعات جنسية وحيدة إلا استثناء ، إذ عادة

ما يوكل إليهم هذا الدور حين يجعل منهم شخص جبان عنّين مثل هذا الموضوع البديل أو حين لا تستطيع غريزة مندفعة (لا تحتمل الإرجاء) الحصول على موضوع أكثر ملاءمة . ومهما كان الأمر فما يكشف عن طبيعة الغريزة الجنسية أنها تسمح بتنوع موضوعها وتدهوره على هذا النحو ، وهو ما لا يسمح به الجوع إلا فى حالات نادرة لتمسكه بموضوعه تمسكًا قويًا . ومثل هذه الملاحظة تصدق على الاتصال الجنسى بالحيوان اتصالاً ليس بالنادر لاسيما بين أهل الريف : ففيه يكون الجذب الجنسى قد جاوز حدود النوع .

وقد تنسب – لاعتبارات جمالية – هذه الانحرافات وغيرها من الانحرافات الشديدة للغريزة الجنسية إلى المرضى العقليين ، بيد أن ذلك أمر محال . فالخبرة تدل على أننا لا نجد من اضطرابات الغريزة الجنسية لدى هؤلاء المرضى غير ما نجد لدى الأصحاء فى كافة الأجناس والأحوال . ومن ثمة نجد أن التغرير بالأطفال يقع بكثرة غريبة بين المعلمين والمشرفين ، لا لسبب إلا لمواتاة الفرصة على أفضل الوجوه . أما المرضى العقليون فتظهر لديهم مثل هذه الانحرافات بدرجة مشددة فحسب أو قد يصبح النشاط الجنسى مقصوراً عليها فتحل محل الإشباع الجنسى السوى ، وهو أمر له دلالته على وجه التخصيص .

ومما يدعو إلى التأمل قيام هذه العلاقة الملفتة بين التنوعات الجنسية والسلم المتدرج من الصحة إلى المرض العقلى . وإنى أجنح للاعتقاد بأن من الممكن تفسيرها على أساس أن دوافع الحياة الجنسية هى ضمن الدوافع التى لا تسيطر عليها أفعال العقل العليا إلا فى أضيق الحدود . وتدلنى خبرتى على أن الشخص غير السوى عقليًا ، سواء كان ذلك من الناحية الاجتماعية أو الأخلاقية ، يكون دائمًا أبداً غير سوى فى حياته الجنسية كذلك . بيد أن كثيراً من الناس يكونون غير أسوياء فى حياتهم الجنسية وإن اقتربوا من السوية فى كافة الجوانب الأخرى ، وذلك بعد أن مروا مثل غيرهم بعملية النمو الحضارى الإنسانى حيث ما تزال الجنسية هى نقطة الضعف .

وإن أعم نتيجة نخلص بها من هذه المناقشات هى أن طبيعة الموضوع الجنسى وقيمته لا تحتلان مكان الصدارة فى عدد عظيم من الحالات لدى كثرة مذهلة من الأفراد ، وأن العنصر الجوهرى الثابت من الغريزة الجنسية شيء آخر [١٤].

(٢) الانحرافات فى الهدف الجنسى

يعتبر الهدف الجنسى السوى هو اتحاد الأعضاء التناسلية فى فعل يعرف بالجماع ويؤدى إلى إطلاق التوتر الجنسى وانطفاء الغريزة الجنسية انطفاء مؤقتاً (وهو إشباع مماثل للشبع فى الجوع) . بيد أنا قد نكتشف ، حتى فى أكثر العمليات الجنسية سوية ، آثاراً كان يمكن أن تؤدى ، متى اكتمل نموها ، إلى شذوذات توصف بأنها انحرافات . إذ أن ثمة علاقات معينة متوسطة بالموضوع الجنسى (تقع فى الطريق المؤدى إلى الجماع) مثل لمسه والنظر إليه ، من المعترف به أنها أهداف جنسية تمهيدية . وهذه الأنواع من النشاط تكون من جهة مصحوبة باللذة وتزيد من جهة أخرى التهيج الذى يجب أن يستمر حتى يتحقق الهدف الجنسى النهائى . وفضلا عن ذلك فإن القبلة ، وهى ملامسة معينة من هذا النوع بين الغشاء المخاطى لشفاه فردين ، تعتبر لدى كثير من الشعوب (ومنها أكثرها حضارة) ذات قيمة جنسية عالية ، رغم أن أعضاء الجسم المذكورة لا تخص الجهاز الجنسى ، وإنما تؤلف المدخل إلى القناة الهضمية . إذن فثمة عوامل تربط بين الانحرافات والحياة الجنسية السوية ، يمكن استخدامها فى تصنيف هذه الانحرافات . فالانحرافات إما (ا) **امتدادات** تشريحية لمناطق الجسم المخصصة للاتصال الجنسى وإما (ب) **وقفات** عند العلاقات المتوسطة بالموضوع الجنسى ، وهى علاقات يتعين المرور بها فى حالة السواء مرًّا سريعاً لبلوغ الهدف الجنسى النهائى .

(ا) الامتدادات التشريحية

المبالغة فى تقويم الموضوع الجنسى : إن تقويم الموضوع الجنسى تقويماً نفسيًّا باعتباره هدفًا تسعى إليه الغريزة الجنسية لا يكون مقصوراً على الأعضاء التناسلية إلا فى أندر الحالات . وإنما يمتد إلى جسم الموضوع الجنسى كله ويميل إلى استيعاب كل الأحاسيس المستمدة منه . وتنتشر المبالغة فى التقويم ذاتها إلى المجال النفسى ، فيغدو الفرد فى حالة من الافتتان العقلى (وهن الحكم) حيال أفعال الموضوع الجنسى

وكمالاته النفسية كما ينصاع لأحكامه فى سذاجة . وهكذا تصبح سذاجة الحب مصدراً هامًّا من مصادر السلطة إن لم يكن أهمها[١٥] .

وليس من السهل التوفيق بين هذه المبالغة فى التقويم الجنسى — وهى تساعد على تحويل أنواع النشاط المتعلقة بأعضاء الجسم الأخرى إلى أهداف جنسية — وقصور الهدف الجنسى على اتحاد الأعضاء التناسلية اتحاداً فعليًّا[١٦].

ويمكن دراسة عامل المبالغة فى التقويم الجنسى على أفضل الوجوه لدى الرجال لأن حياتهم العشقية قد أصبحت وحدها موضوعًا للبحث ، بينما حياة النساء ما برح يكتنفها ظلام حالك مرجعه إلى الأحوال الحضارية غير المواتية وميلهن التقليدى إلى التستر والتمويه [١٧].

استخدام الغشاء المخاطى للشفاه والفم استخداماً جنسيا : يعتبر استخدام الفم — بوصفه عضواً جنسيًّا — انحرافًا إذا لامست شفاه شخص ما (أو لسانه) الأعضاء التناسلية لشخص آخر ، لا إذا تلامست الأغشية المخاطية لشفاه كليهما . وهذا الاستثناء الأخير هو همزة الوصل بحالة السواء . وإن من يأنف من الممارسات الأخرى التى مارستها الإنسانية منذ أقدم العصور من حيث هى انحرافات ، فإنه يبدى شعوراً جليًّا بالاشمئزاز يقيه من تقبل هذا الهدف الجنسى . بيد أن حدود هذا الاشمئزاز تقليدية فى الغالب : فمن يقبل شفتى فتاة جميلة قد يشمئز من استخدام فرشة أسنانها رغم أنه ليس ما يدعو لافتراض أن تجويف فمه هو أنظف من تجويف فم الفتاة . وههنا يتبدى للعيان عامل الاشمئزاز الذى يتدخل فى المبالغة اللبيدية فى تقويم الموضوع الجنسى وإن كان يستطيع اللبيدو من جانبه أن يتغلب عليه . ونستطيع أن نستبين فى الاشمئزاز إحدى القوى التى أدت إلى انكماش الهدف الجنسى . والقاعدة هى أن هذه القوى تتوقف قبل أن تصل إلى الأعضاء التناسلية ذاتها . ولكن لا ريب أن الأعضاء التناسلية للجنس الآخر قد تكون فى حد ذاتها موضوعًا للاشمئزاز وأن هذا الموقف هو إحدى سمات مرضى الهستيريا جميعًا (ولا سيما من النساء) وأن قوة الغريزة الجنسية لتتجلى فى تغلبها على هذا الاشمئزاز (انظر فيما بعد) .

استخدام فتحة الشرج استخداماً جنسيا : فإذا ما اهتممنا بالشرج تبين لنا بشكل أوضح مما رأينا فى الحالات المتقدمة أن الاشمئزاز هو الذى يطبع هذا

الهدف الجنسى بطابع الانحراف. وإنى آمل ألا أتهم بالتحيز فى ملاحظتى أن تفسير هذا الاشمئزاز على أساس أن هذا الجزء من الجسم يؤدى وظيفة الإخراج وأنه متصل بما يثير بذاته الاشمئزاز — البراز — ليس أصدق من تفسير الفتيات الهستيريات اشمئزازهن من الأعضاء التناسلية الذكرية على أساس أنها تستخدم فى التبول .

والدور الجنسى الذى يؤديه الغشاء المخاطى للشرج لا يقتصر ألبتة على الاتصال بين الرجال ، وتفضيله لا يميز الشعور المرتكس . بل إنه ليبدو على الضد أن الاتصال الجنسى برجل قائم على المماثلة بينه وبين فعل يتم مع امرأة ، بينما نجد أن الاستمناء المتبادل هو الهدف الجنسى الغلاب فى الاتصال الجنسى بين المرتكسين .

مغزى مناطق أخرى من الجسم : وإن امتداد الاهتمام الجنسى إلى مناطق أخرى من الجسم لا يمدنا ، رغم تنوعاته ، بشىء جديد من حيث المبدأ ، ولا يزيدنا معرفة بالغريزة الجنسية التى تعلن على هذا النحو عزمها على الاستحواذ على الموضوع الجنسى من كل ناحية واتجاه . بيد أن هذه الامتدادات التشريحية تعلمنا أن ثمة عاملا ثانياً غريباً عن المعارف الشعبية ، بجانب المغالاة فى التقويم الجنسى . فبعض مناطق الجسم التى تظهر دائما فى هذه الممارسات ، مثل الغشاء المخاطى للفم والشرج ، تطالب بأن تعتبر وتعامل كأنها أعضاء تناسلية . وسوف نرى أن نمو الغريزة الجنسية يبرر هذا المطلب ، وأنه يتحقق فى أعراض بعض حالات المرض .

بدائل غير ملائمة للموضوع الجنسى — الفتشية : إن ثمة حالات ملفتة بوجه خاص يستبدل فيها بالموضوع الجنسى موضوع آخر متصل به ولكنه غير ملائم على الإطلاق لبلوغ الهدف الجنسى السوى . وكان الأفضل ، من حيث التصنيف ، أن نذكر هذه الفئة المشوقة غاية التشويق من انحرافات الغريزة الجنسية ضمن الشذوذات المتعلقة بالموضوع الجنسى ولكنا أرجأنا الأمر حتى نحيط علماً بعامل المبالغة فى التقويم الجنسى ، وهو العامل الذى تعتمد عليه هذه الظواهر المرتبطة بانتباذ الهدف الجنسى .

وبديل الموضوع الجنسى جزء من الجسم (مثل القدم والشعر) غير ملائم ألبتة للأغراض الجنسية أو موضوع جامد محدد الصلة بالشخص الجنسى أو هو بالأحرى

على صلة بحياة ذلك الشخص الجنسية (قطعة من رداء أو ملابس داخلية) . وتقارن هذه البدائل بحق بالفتش الذى يرى فيه المتوحش تجسداً لإلهه .

والنقلة إلى حالات الفتشية التى ينتبذ فيها كلية الهدف الجنسى السوى أو غير السوى ، إنما تتوفر فى حالات أخرى لابد للموضوع الجنسى فيها أن يحقق شرطاً فتشيًّا . إن قدر للفرد بلوغ الهدف الجنسى (لون من الشعر وملبس معينان بل نقائص جسمية) وما من تنوع آخر من تنوعات الغريزة الجنسية فى اقترابها من المجال المرضى يثير تطلعنا مثل هذا التنوع لغرابة الظواهر التى يفضى إليها . ويبدو أنه لا بد من التسليم — فى كل الأحوال — بوجود نقص ما فى الدافع الذى يسعى إلى تحقيق الهدف الجنسى السوى (وهن القدرة التنفيذية للجهاز الجنسى)[١٨] . ونقطة الالتقاء بالسواء تنحصر فى المبالغة الضرورية فى تقويم الموضوع تقويمًا نفسيًّا يمتد حتماً إلى كل ما هو مرتبط به . لذلك فعادة ما نجد فى الحب السوى درجة ما من الفتشية لا سيما فى مراحله التى يتبدى فيها الهدف الجنسى السوى بعيد المنال أو ممتنع التحقيق :

« آتنى بمنديل لامس صدرها

أو برباط مس ساق حبيبتى » (فاوست) [١٩]

وتصبح الحالة مرضية بادئ ذى بدء حين يتوقف السعى إلى الفتش على مثل هذا الشرط ويحل محل الهدف السوى ، وكذلك حين ينفصل الفتش عن شخص معين فيصبح هو الموضوع الجنسى الأوحد . تلك فى الواقع هى الشروط العامة لتحول تنوعات الغريزة الجنسية إلى انحرافات مرضية .

ويكون اختيار الفتش، كما أكد « بينيه » (Binet) (١٨٨٨) أولاً وأيدته فيما بعد البينات العديدة ، نتيجة لانطباع جنسى يتلقاه المرء عادة فى الطفولة المبكرة ، ويمكن مقارنته بما يؤثر عن الحب الأول من بقاء «فالمرء لا ينفك يرجع إلى حبه الأول» ("On revient toujours à ses premiers amours") . ومثل هذا الاشتقاق يتجلى بوضوح — على وجه التخصيص — فى الحالات التى تشترط فى الموضوع الجنسى شرطاً فتشيًّا . وسوف نواجه ثانية أهمية الانطباعات الجنسية المبكرة فى موضع آخر[٢٠] .

وفى حالات أخرى ، يكون استبدال الفتش بالموضوع مشروطاً برباط رمزى لا شعورى فى الغالب. وليس يمكن دائماً اقتفاء أثر هذه الروابط اقتفاءً يقينياً (فالقدم رمز جنسى قديم قدم الأساطير [٢١] ، ويقوم « الفراء » بدور الفتش لارتباطه بشعر العانة) . ومهما كان الأمر فإن هذه الرمزية — على ما يبدو — ليست مقطوعة الصلة بخبرات الطفولة الجنسية [٢٢].

(ب) أضرب التثبيت على الأهداف الجنسية التمهيدية

ظهور الأهداف الجديدة : إن كل العوامل الخارجية والداخلية التى تعوق إدراك الهدف الجنسى السوى أو ترجئ إدراكه (العنة والمبالغة فى تقويم الموضوع الجنسى وأخطار الفعل الجنسى) تقوى بالطبع الميل إلى الوقوف عند الأفعال التمهيدية وتحويلها إلى أهداف جنسية جديدة قد تحل محل الهدف السوى . ودائما ما يدل الفحص الدقيق على أن أغرب هذه الأهداف الجديدة إنما تلمح إليها العملية الجنسية السوية إلماحاً .

اللمس والنظر : لا بد من قدر من اللمس ، لدى البشر على أية حال ، قبل بلوغ الهدف الجنسى السوى . والكل يعلم أن الأحاسيس الصادرة عن لمس بشرة الموضوع الجنسى تكون من ناحية مصدراً للذة ومن ناحية أخرى مورداً للإثارة . ومن ثمة لا يمكن اعتبار الوقوف عند مرحلة اللمس نوعاً من الانحراف بشرط أن يتعداها الفعل الجنسى عامة .

والمثل يقال عن النظر وهو مستمد من اللمس فى النهاية . فالانطباع البصرى ما برح الطريق الذى يفضى عادة إلى التهيج اللبيدى والانتخاب الطبيعى — إن صحت هذه الصيغة الغائية [٢١]— يعتمد على سهولة هذا الطريق حين يشجع على نمو الجمال لدى الموضوع الجنسى . وستر الجسد بالتدريج — بما يساير الحضارة — يوقظ التطلع الجنسى الذى يسعى إلى تكملة الموضوع الجنسى بالكشف عن أجزائه المستورة ، بيد أنه يمكن تحويله (« التسامى به ») جهة الفن إذا أمكن نقل الاهتمام من الأعضاء التناسلية إلى شكل الجسم ككل [٤] . ومن عادة معظم الأسوياء التوقف

إلى حد ما عند الهدف الجنسى المتوسط ألا وهو النظر المصطبغ بصبغة جنسية ، وهو ما يتيح لهم توجيه جزء من اللبيدو لديهم إلى أهداف فنية عليا . ومن جهة أخرى تصبح شهوة النظر انحرافاً (ا) إن كانت مقصورة على الأعضاء التناسلية وحدها أو (ب) إن ارتبطت بغلبة الاشمئزاز (كما هى حال محبى النظر الذين ينظرون إلى وظائف الإخراج) أو (حـ) إن حلت محل الهدف الجنسى السوى بدلاً من أن تمهد له . والنقطة الأخيرة تصدق خاصة على محبى الاستعراض وهم — إن جاز لى الاعتماد على عدة حالات حللتها[٢٥] — يعرضون أعضاءهم التناسلية لكى يتاح لهم فى مقابل ذلك رؤية الأعضاء التناسلية لدى الشخص الآخر[٢٦].

وفى الانحرافات الموجهة إلى النظر والاستعراض تتبدى لنا خاصية ملفتة للغاية سنهتم بها فى الانحراف التالى اهتماماً أعمق غوراً ، ويتميز الهدف الجنسى فيها باتخاذه صورتين ، صورة إيجابية وصورة سلبية .

والخجل هو القوة التى تعارض شهوة النظر والتى قد تتغلب عليها (مثل الاشمئزاز فيما سبق) .

السادية والمازوخية : أطلق « كرافت — إيبنج » (Kraft-Ebing) اسم **السادية والمازوخية** (السلبية) على أكثر الانحرافات قاطبة شيوعاً وأهمية ، ألا وهو الميل ونقيضه — فى صورتيه الموجبة والسالبة — إلى إيلام الموضوع الجنسى . وقد آثر كتاب آخرون [مثل « شرنك — نوتزيج » (Schrenck-Notzing) (١٨٩٩)] لفظة أكثر تحديداً تبرز اللذة فى الألم والقسوة هى « حب الألم » (Algolagnie) بينما يتمثل فى الاسمين اللذين اختارهما « كرافت — إيبنج » وجود اللذة فى أى صورة من صور الذلة والخنوع .

أما حب الألم حباً موجباً ، أى السادية ، فمن اليسير تبين أصوله لدى الأسوياء . فالحياة الجنسية لدى أغلب الرجال تشوبها شائبة من **العدوان** ، أى الرغبة فى إخضاع الغير ، وهى رغبة تنحصر دلالتها البيولوجية — على ما يلوح — فى ضرورة التغلب على الموضوع الجنسى بإتيان أفعال مغايرة للمغازلة . ومن ثمة تناظر السادية العنصر العدوانى من الغريزة الجنسية بعد استقلاله وتضخمه عن طريق تحوله إلى مركز الرئاسة اغتصاباً[٢٧].

ويتأرجح مفهوم السادية ، فى اللغة الدارجة ، بين موقف إيجابى أو عنيف من الموضوع الجنسى وبين تعلق الإشباع كلية على إذلال الموضوع والنيل منه . وهذه الحالة الأخيرة القصوى هى وحدها القمينة — إن توخينا الدقة — باسم الانحراف.

وعلى نفس النحو تدل لفظة المازوخية على كل المواقف السلبية من الحياة الجنسية والموضوع الجنسى ، وأقصاها تعلق الإشباع على معاناة الألم البدنى أوالنفسى من جانب الموضوع الجنسى . والمازوخية — من حيث هى انحراف — تبدو أبعد من نظيرتها عن الهدف الجنسى السوى . وقد يراودنا الشك لأول وهلة فيما إذا كان من الممكن لها أن توجد كظاهرة أولية أو إذا كانت على الضد تنتج دائماً عن تحول السادية[٢٨] . وكثيراً ما نتبين أن المازوخية ليست إلا امتداداً للسادية فى ارتدادها على الشخص ذاته الذى يحل بادئ ذى بدء محل الموضوع الجنسى . ويدل التحليل الإكلينيكى للحالات القصوى من الانحراف المازوخى على أن حشداً كبيراً من العوامل (كعقدة الخصاء والشعور بالذنب) قد تكاتفت على تقوية الموقف الجنسى السلبى الأصيل وتثبيته .

والألم الذى يتعين قهره ههنا ، يساير الاشمئزاز والخجل من حيث إنه قوة تعارض الليبيدو وتقاومه[٢٩] .

وتحتل السادية والمازوخية مكاناً خاصًّا ضمن الانحرافات لأن التقابل الذى يقومان عليه بين الإيجاب والسلب هو أحد الخصائص العامة للحياة الجنسية .

ويدل تاريخ الحضارة الإنسانية بما لا يدع مجالا للشك على أن ثمة رابطة وثيقة تربط القسوة بالغريزة الجنسية ، بيد أن تفسير هذه الرابطة يقصر على إبراز الجانب العدوانى لليبيدو . ويرى بعض المؤلفين أن العدوان الممتزج بالغريزة الجنسية بقية من رغبات افتراس البشر ، ومن ثمة فهو جزء من جهاز تحقيق السيطرة المخصص لإشباع حاجة كبرى أخرى أمعن فى القدم من الناحية النشوئية النوعية[٣٠]. كذلك ادعى البعض أن الألم أيًّا ما كان يتضمن فى ذاته وبذاته إمكان الشعور باللذة . وكل ما يعوزنا قوله هو أن تفسير هذا الانحراف ليس مرضيًّا على الإطلاق وأن من المحتمل أن عدداً كبيراً من الدوافع النفسية قد اجتمعت فيه وأفضت إلى نتيجة واحدة[٣١] .

بيد أن أغرب سمات هذا الانحراف هو أن صورته الموجبة والسالبة توجد عادة لدى فرد واحد بالذات . فمن يشعر باللذة فى إيقاع الألم بغيره إبان علاقة جنسية ، قادر أيضاً على الاستمتاع بأى ألم يستمده هو ذاته من علاقاته الجنسية . والسادى مازوخى دائماً فى الآن نفسه رغم أن الجانب الموجب أو السالب للانحراف قد يكون أكثر نمواً لديه وقد يمثل نشاطه الجنسى الغالب[٣٢] .

ومن ثمة نرى أن دوافع الانحراف توجد دائماً فى أزواج متضادة وهو أمر ذو أهمية نظرية كبرى بالنسبة للمواد التى نعرضها فيما بعد[٣٣]. ومن الجلى كذلك أن وجود زوج الأضداد المؤلف من السادية والمازوخية لا يمكن إرجاعه إلى عنصر العدوان وحده . وإنما يجب الربط بالأحرى بين الوجود المتآنى لهذه الأضداد وبين تضاد الذكورة والأنوثة المتضافرتين فى الجنسية الثنائية ، وهو تضاد يتعين أن نبدل به — فى مجال التحليل النفسى — تضاد الإيجاب والسلب[٣٤].

(٣) الانحرافات بوجه عام

التنوع والمرض : إن الأطباء الذين درسوا من الانحرافات أولا أمثلة بارزة فى أحوال خاصة ، كانوا ميالين بالطبع إلى اعتبارها سمة للمرض أو علامة على الانحلال ، كما هو الشأن مع الارتكاس . ومع ذلك فمن الأيسر استبعاد هذا الرأى فى هذه الحالة منه فى الأخرى . فالخبرة اليومية تدلنا على أن معظم هذه الامتدادات ، أو أقلها خطراً على أية حال ، إنما هى عناصر يندر ألا توجد فى الحياة الجنسية للأسوياء وأن حكمهم عليها مماثل لحكمهم على الأحداث الشخصية الأخرى . وحين تتوفر الظروف المواتية يستطيع الأسوياء أيضاً — لأمد طويل — أن يحلوا انحرافاً من هذا القبيل محل الهدف الجنسى السوى أو قد يجعلون له مكاناً بجانبه . وما من سوىّ إلا وأضاف للهدف الجنسى السوى إضافات يمكن أن تسمى انحرافية ، وهذا الشمول يكفى بذاته لإظهار عدم صلاحية استخدام لفظ الانحراف فى أغراض الزجر . ونحن نواجه — فى مجال الحياة الجنسية — صعاباً خاصة لا سبيل إلى حلها إن وضعنا الحدود القاطعة بين مجرد التنوعات التى تحدث فى المجال الفسيولوجى والأعراض المرضية .

ومع ذلك فإن كيف الهدف الجنسى الجديد يتطلب — فى بعض هذه الانحرافات — تقويماً خاصًّا . فثمة انحرافات أبعد ما تكون مضموناً عن السوية ، بحيث لا يسعنا إلا أن نعلن أنها « مرضية » ، لا سيما حين تمضى الغريزة الجنسية إلى مدى مذهل فى التغلب على مقاومات الخجل والاشمئزاز والرعب والألم (لعق البراز والاتصال الجنسى بالجثث) . وليس ينبغى — حتّى فى هذه الحالات — التسرع فى افتراض أن من يأتى هذه الأفعال أشخاص يعانون حتماً أمراضاً خطيرة من نوع آخر أو أنهم مرضى عقليون . ولا مناص ههنا من التسليم بأن الأشخاص الذين يسلكون فى النواحى الأخرى مسلكاً سويًّا قد يدخلون فى زمرة المرضى فى مجال الحياة الجنسية وحده ، بفعل أشد الدوافع الغرزية جموحاً . ومن جهة أخرى فإن ما تنطبع به سائر العلاقات فى الحياة من طابع المرض الظاهر إنما يرجع فى أصله على الدوام إلى سلوك جنسى مرضى .

وفى معظم حالات الانحراف لا نجد طابع المرض فى مضمون الهدف الجنسى الجديد بل فى علاقته بالسواء . فبدلا من أن يقتصر الانحراف على الظهور بجوار الهدف والموضوع الجنسيين السويين ولا يظهر إلا حين تكون الظروف غير مواتية لهما ومواتية له ، وإنما يستبعدهما استبعاداً تامًّا ويحل محلهما فى كافة الأحوال ، أى حين يتسم الانحراف بسمات الاقتصار على موضوع واحد والتثبيت عليه ، إذ ذاك نكون محقين فى اعتباره عرضاً مرضيًّا .

العنصر النفسى فى الانحرافات : ربما كان لا بد من الاعتراف بأن العامل النفسى يؤدى أعظم الأدوار فى تحويل الغريزة الجنسية فى أبغض الانحرافات. ولا سبيل إلى إنكار أن قدراً من العمل النفسى ، معادلا للاستمثال ، قد تحقق فيها رغم ما أفضى إليه من نتيجة مخيفة . وقد لا تتبدى القدرة المطلقة للحب أقوى مما تتبدى فى انحرافاتها هذه . والذروة والقاع فى مجال الجنسية وثيقا الترابط على الدوام (« من السماء إلى الجحيم عبر العالم »)[٣٥].

نتيجتان : بينت لنا دراسة الانحرافات أنه يتعين على الغريزة الجنسية مصارعة بعض القوى النفسية بوصفها مقاومات ، أبرزها الخجل والاشمئزاز . ومن الجائز افتراض أن هذه القوى تسهم فى الحد من الغريزة ضمن ما يعتبر سويًّا وهى وإن نمت

فى الفرد قبل أن تبلغ الغريزة الجنسية أوج قوتها فلا شك أنها حددت لنمو الغريزة وجهته[٣٦]. وقد لاحظنا أيضاً أن بعض الانحرافات التى فحصناها لا تفهم إلا بالجمع بين عدد كبير من الدوافع . فإن هى قبلت التحليل — أى التجزئة — فلا بد أنها ذات طبيعة مركبة . وهو ما يوحى لنا بأن الغريزة الجنسية ذاتها قد لا تكون بسيطة بل مركبة من عناصر انقسمت ثانية فى الانحرافات . وهكذا تجذب المشاهدة الإكلينيكية انتباهنا إلى أخلاط ضاعت معالمها فى السلوك السوى الرتيب[٣٧].

(٤) الغريزة الجنسية لدى العصابيين

التحليل النفسى : إن معرفتنا بالغريزة الجنسية لدى الأشخاص الذين يقتربون على الأقل من السواء ، يمكن أن نضيف إليها إضافة هامة مستمدة من مصدر لا يمكن بلوغه إلا بطريق معين . فليس ثمة إلا وسيلة واحدة للحصول على معرفة شاملة غير مضللة عن الحياة الجنسية لدى من يسمون بالعصابيين النفسيين (مرضى الهستيريا والعصاب الوسواسى وما يسمى خطأ بالنورستانيا فضلا عن الجنون المبكر والبارانويا[٣٨]) وذلك بإخضاعهم للفحص التحليلى النفسى المستخدم فى الطريقة العلاجية التى وضعها كل من « ج . بروير J. Breuer » وأنا نفسى سنة ١٨٩٣ والتى كانت تعرف إذ ذاك باسم « التطهير » .

ولا بد لى أن أشرح بادئ ذى بدء — على نحو ما فعلت من قبل فى كتابات أخرى — أن هذه الأعصبة النفسية ، بقدر ما وصلت إليه خبراتى ، إنما تقوم على القوى الغرزية الجنسية . ولست أعنى بذلك أن طاقة الغريزة الجنسية تسهم فى القوى التى تحتفظ بالظواهر المرضية (الأعراض) فحسب بل أود أن أؤكد صراحة أن هذا الإسهام هو المصدر الوحيد الثابت الأهم لطاقة العصاب . ومن ثمة فإن الحياة الجنسية لدى هؤلاء الأشخاص تظهر فى الأعراض إما وحدها أو بصفة خاصة أو بصورة جزئية . والأعراض ، كما قلت فى موضع آخر ، هى النشاط الجنسى للمرضى . والبينة على هذا التوكيد قوامها العدد الذى لا ينفك يتزايد من حالات مرضى الهستيريا وغيرهم من العصابيين الذين قمت بتحليلهم إبان الخمس

والعشرين سنة الأخيرة[٣٩] وهي حالات قدمت عن نتائجها ، وسوف أواظب على ذلك ، تقريراً مفصلا ورد في منشورات أخرى[٤٠].

والتحليل النفسي يزيل الأعراض الهستيرية مفترضاً أنها بدائل — أو نسخ مطابقة للأصل إن جاز التعبير — لعدد من العمليات النفسية والأمنيات والميول ذات الشحنة الانفعالية ، وكلها قد حيل بينها وبين الانصراف في نشاط نفسي يجيزه الشعور ، إثر عملية نفسية خاصة (الكبت) . وهذه العمليات النفسية ، وقد استبعدت على هذا النحو في اللاشعور ، تسعى إلى التعبير عن نفسها تعبيراً يتناسب وأهميتها الانفعالية ، أي أنها تتطلب منصرفاً . وهي تجد في حالة الهستيريا مثل هذا المنصرف عن طريق عملية التحول إلى ظواهر بدنية — أي إلى أعراض هستيرية . ونحن إذ نرجع هذه الأعراض إرجاعاً منتظماً بطريقة فنية خاصة إلى تصورات ذات شحنة انفعالية يمكنها الآن أن تدخل في نطاق الشعور ، نحصل على أدق المعارف في طبيعة هذه الأبنية النفسية التي بقيت لاشعورية وأصلها .

نتائج التحليل النفسي : وعلى هذا النحو تبين لنا أن الأعراض تمثل بديلا عن الدوافع التي تستمد قوتها من الغريزة الجنسية . وإن ما نعرفه عن خلق الهستيريين — وهم نموذج لجميع العصابيين — قبل مرضهم وعن الأحوال التي عجلت به ، يتفق وهذا الرأي كل الاتفاق . فالخلق الهستيري يتجلى في وجود درجة من الكبت الجنسي تزيد على القدر السوي وفي اشتداد المقاومات للغريزة الجنسية — وقد عرفناها من قبل في صور الخجل والاشمئزاز والأخلاق — وفي ما يبدو منهم من إعراض يكاد يكون غرزياً عن الاهتمام العقلي بالمسألة الجنسية . ومن ثمة يظل المرضى ، ولا سيما في الحالات البارزة ، في جهل جنسي تام يمتد إلى سنوات النضج الجنسي[٤١].

وهذه السمة الجوهرية من سمات الهستيريا ، كثيراً يحجبها عن النظرة السطحية وجود عامل جبلي آخر في الهستيريا هو نمو الغريزة الجنسية نمواً غلاباً . بيد أن التحليل النفسي يستطيع دائماً إبراز أول هذه العوامل ورفع التناقض المحير الذي تضعه الهستيريا وذلك بكشفه زوج الأضداد المميز لها ألا وهو الحاجة الجنسية المفرطة وغاية الإعراض عن الجنس .

وفي حالة من يكون ذي استعداد هستيري ، يظهر المرض حين يواجه الشخص

مطالب موقف جنسى واقعى أو نتيجة لنموه الجنسى التدريجى أو لظروف حياته الخارجية . ويهيئ له المرض طريقاً للهرب ، وسطاً بين ضغط الغريزة وما يعترضها من نفور جنسى . والمرض لا يحل الصراع بل يسعى إلى تجنبه بتحويل الدوافع اللبيدية إلى أعراض[٤٢]. وحين يمرض شخص، أى رجل ما ، بالهستيريا نتيجة لانفعال غير ذى بال أو إثر صراع غير متمركز على الاهتمام الجنسى ، فالاستثناء لا يكون إلا ظاهرياً . وفى مثل هذه الحالات يستطيع التحليل النفسى أن يبرهن دائماً على أن المرض راجع إلى العنصر الجنسى من الصراع الذى عوق العمليات النفسية عن بلوغ غايتها السوية .

العصاب والانحراف : إن جزءاً كبيراً مما تلقاه آرائى هذه من معارضة قائم على اعتبار أن الحياة الجنسية التى أرد إليها الأعراض العصابية النفسية مطابقة للغريزة الجنسية السوية . بيد أن التحليل النفسى يعلمنا أكثر من هذا . فهو يبين أن الأعراض لا تتولد ألبتة على حساب ما يسمى بالغريزة الجنسية السوية (أو على الأقل لا دائماً ولا فى الأغلب) ، وإنما هى تعبير تحولى عن غرائز يمكن وصفها — إن أمكن التعبير عنها مباشرة فى الخيال والسلوك دون أن ينشغل بها الشعور — بأنها منحرفة بأوسع معانى الكلمة . ومن ثمة تتكون الأعراض جزئياً على حساب الحياة الجنسية غير السوية ، **والعصاب — إن جاز التعبير — هو الصورة السالبة للانحراف**[٤٣] .

فالغريزة الجنسية لدى العصابيين النفسيين تتكشف عن كل الانحرافات التى درسناها بوصفها تنوعات فى الحياة الجنسية السوية ومن حيث هى مظاهر للحياة الجنسية السقيمة .

(ا) فالحياة النفسية اللاشعورية لدى العصابيين (بلا استثناء) تنطوى على دوافع نحو الارتكاس وتثبيت اللبيدو لديهم على أشخاص من نفس جنسهم . ومن المحال — ما لم نتعمق مناقشة الأمور — تقويم أهمية هذا العامل تقويماً دقيقاً بالنسبة للصورة التى تتخذها الأعراض فى المرض . ولكن لا يسعنى إلا أن أؤكد أن ثمة على الدوام ميلا لا شعورياً إلى الارتكاس يؤدى لنا أعظم الخدمات فى تفسير الهستيريا لدى الرجال على وجه التخصيص[٤٤].

(ب) ومن الممكن أن نستبين — فى اللاشعور لدى العصابيين النفسيين — ميولا تناظر الامتدادات التشريحية كلها وتكون مسئولة عن تكوين الأعراض .

وأكثر هذه الميول وروداً وقوة هى تلك التى يقوم فيها الغشاء المخاطى للفم والشرج بدور الأعضاء التناسلية .

(ج) تقوم الغرائز الجزئية[٤٥]— التى غالباً ما تظهر فى أزواج من الأضداد — بدور بارز بروزاً خاصًّا فى تكوين الأعصبة النفسية ، وقد عرفنا هذه الغرائز من حيث إنها تضع أهدافاً جديدة — وهى غريزة حب النظر والميل إلى الاستعراض وغريزة القسوة فى صورتيها الموجبة والسالبة . وما تسهم به هذه الأخيرة جوهرى لفهم الطبيعة المؤلمة للأعراض وكيف أنها تكاد تسيطر دائماً على جزء من سلوك المرضى الاجتماعى . وعن طريق هذا الارتباط بين اللبيدو والقسوة يتم كذلك تحول الحب إلى كراهية ونوازع الود إلى نوازع الجفاء وهو ما يتميز به عدد كبير من حالات العصاب والبرانويا عامة على ما يلوح .

وثمة حقائق خاصة[٤٦]تزيد من أهمية هذه المكتشفات :

(ا) فكلما وجدنا فى اللاشعور غريزة من هذا القبيل يمكن أن تتزاوج وضدها ، نجد دائماً أن هذه الغريزة الأخيرة تكون فعالة كذلك . فكل انحراف إيجابى يصاحبه ههنا نظيره السلبى : ومن يكون فى اللاشعور محبًّا الاستعراض يكون محبًّا للنظر فى الآن ذاته ، ومن يعانى نتائج ما كبت من نوازع سادية فثمة مصدر آخر لأعراضه مستمد من ميله المازوخى . والشىء الملفت للغاية هو ظهور الاتفاق التام مع مسلك الانحرافات « الموجبة » المقابلة . بيد أن أحد الميول المتعارضة هو الذى يقوم بالدور الغلاب فى صورة المرض .

(ب) يندر أن تنمو إحدى هذه الغرائز المنحرفة وحدها فى أى حالة بارزة من حالات العصاب النفسى ، وإنما نجد عادة عدداً كبيراً منها وآثاراً منها جميعاً على وجه العموم . بيد أن قوة كل غريزة على حدة مستقلة عن نمو الأخرى . وإن دراسة الانحرافات الموجبة تمدنا هنا أيضاً بالنسخة المطابقة الدقيقة .

(٥) الغرائز الجزئية والمناطق الشهوية[٤٧]

إن جمعنا ما تعلمناه من فحص الانحرافات الموجبة والسالبة بات من السهل تصور إرجاعها إلى عدد من « الغرائز الجزئية » وهى غرائز ليست أولية بل تقبل

مزيداً من التحليل[٤٨]. ونحن لا نقصد بالغريزة — بادئ ذى بدء — إلا أنها الممثل النفسى لمصدر إثارة داخل الجسم دائم التدفق ، على الضد من « المنبه » الناشئ عن المثيرات المفردة الصادرة من الخارج . ومن ثمة فإن مفهوم الغريزة من المفاهيم القائمة على الحد الفاصل بين النفسى والجسمى . وإن أبسط الفروض وأقربها منالا فى طبيعة الغريزة هى أنها لا كيف لها فى ذاتها بل تعتبر مجرد مقياس للعمل الذى تطالب به الحياة النفسية . وإن ما يفرق بين الغرائز ويخلع عليها الصفات النوعية لهو علاقتها بمصدرها الجنسى وأهدافها . ومصدر الغريزة عملية إثارة فى أحد الأعضاء وهدف الغريزة المباشر ينحصر فى رفع هذا المنبه العضوى[٤٩].

وثمة فرض مؤقت آخر لا مناص لنا من وضعه فى نظرية الغرائز يقول إن الإثارات تصدر عن أعضاء الجسم على نحوين أساسهما اختلافات فى الطبيعة الكيمائية . ونحن نصف أحد هذين النحوين من الإثارة بأنه جنسى نوعى والعضو الخاص به بأنه « منطقة شهوية » للغريزة الجزئية الجنسية الصادرة عنه [٥٠].

ويتضح الدور الذى تقوم به المناطق الشهوية اتضاحاً مباشراً فى الميول الانحرافية التى تتخذ فيها فتحتا الفم والشرج معنى جنسياً . فهما تسلكان وكأنهما — من كافة الوجوه — جزء من الجهاز الجنسى . وفى الهستيريا تصبح هذه المواضع من الجسم وما جاورها من مناطق مخاطية محلا لأحاسيس جديدة وتغيرات فى التعصيب — بل عمليات يمكن مقارنتها بالانتصاب[٥١] — شأنها فى ذلك شأن الأعضاء التناسلية الفعلية وهى تحت تأثير العمليات الجنسية السوية .

ومعنى المناطق الشهوية من حيث هى أجهزة مكملة للأعضاء التناسلية وبدائل لها يكون أوضح ما يكون فى الهستيريا دون الأعصبة النفسية جميعاً ، وإن كان ذلك لا يعنى أنه أقل فى الصور الأخرى التى يتخذها المرض . وكل ما فى الأمر أنه أقل بروزاً لأن تكون الأعراض فيها (العصاب الوسواسى والبارانويا) تحدث فى مناطق من الجهاز النفسى أمعن فى البعد عن المراكز الخاصة المحددة للضبط الجنسى . وما يسترعى الانتباه فى العصاب الوسواسى هو معنى تلك الدوافع التى تخلق أهدافاً جنسية جديدة وتبدو مستقلة عن المناطق الشهوية . ومهما يكن من شىء فالعين فى حب النظر والاستعراض تناظر منطقة شهوية ؛ وتقوم البشرة بدور مماثل فى

عناصر الألم والقسوة من الغريزة الجنسية ، والبشرة تفاضلت فى أعضاء معينة من الجسم فأصبحت أعضاء حسية أو استحالت إلى غشاء مخاطى ، بحيث يكون الغشاء المخاطى هو المنطقة الشهوية بالذات[٥٢].

(٦) تفسير الغلبة الظاهرية للجنسية المنحرفة فى الأعصبة النفسية

من المحتمل أن تكون المناقشة السالفة قد أبرزت الحياة الجنسية لدى العصابيين فى صورة زائفة . فربما أوحت بأن العصابيين النفسيين – بفضل استعدادهم الفطرى – أقرب إلى المنحرفين فى مسلكهم الجنسى وأبعد عن الأسوياء بنفس النسبة . ومن الممكن بالفعل – إن استثنينا قدراً مبالغاً فيه من الكبت الجنسى والإفراط فى شدة الغريزة الجنسية – أن ينطوى الاستعداد الجبلى لدى هؤلاء المرضى على ميل غير عادى إلى الانحراف ، بأوسع معانى الكلمة . بيد أن فحص الحالات الأهون شأناً يبين لنا أن الفرض الأخير ليس ضرورياً على الإطلاق أو أنه لا بد – على الأقل – أن ندخل فى اعتبارنا ، ونحن بصدد تكوين رأى فى هذه الآثار المرضية ، وجود عامل يرجح الكفة الأخرى . فجل العصابيين النفسيين يمرضون بعد سن البلوغ بتأثير مطالب الحياة الجنسية السوية . ويكون الكبت موجهاً إلى هذه الأخيرة قبل كل شىء ، وإلا ظهرت الأمراض فيما بعد حين يفشل اللبيدو فى الحصول على الإشباع بالطرق السوية . وفى كلتا الحالتين يسلك اللبيدو وكأنه نهر انسد مجراه الرئيسى ، فهو يملأ قنواته الجانبية التى ظلت فارغة حتى هذه اللحظة . وبالمثل فإن ما يبدو لدى العصابيين النفسيين من ميل قوى (وإن كان سلبياً) إلى الانحراف ، قد يكون كذلك محدداً تحديداً جانبياً ، ولا بد على أية حال أن يتلقى مدداً جانبياً . والواقع أنه لابد من وضع الكبت الجنسى عاملا داخلياً بجانب العوامل الخارجية مثل تقييد الحرية وبعد الموضوع السوى عن المنال وأخطار الفعل الجنسى السوى وما إليها ، وهى عوامل قد تؤدى إلى انحراف أفراد لولاها لظلوا أسوياء .

ومن هذه الوجهة فقد تتفاوت حالات العصاب الفردية فى مسلكها : ففى الواحدة يكون الميل الفطرى إلى الانحراف هو العامل الغلاب ، وفى الأخرى يكون

تقوية الميل نفسه تقوية جانبية نتيجة لحيدة اللبيدو عن الهدف الجنسى والموضوع الجنسى السويين . ومن الخطأ أن نتصور أن ثمة تعارضاً حيث توجد فى الواقع علاقة تآزر . فالعصاب ينجز دائماً أعظم أعماله حين تتفق الجبلة والخبرة على العمل معاً فى نفس الاتجاه . وحين تتغلب الجبلة فقد لا تتطلب مآزرة الخبرات الفعلية ، بينما قد تفضى صدمة كبرى من صدمات الحياة إلى حدوث عصاب فى جبلة عادية . وهذه النظرة فى الدلالة العلية لما هو فطرى وما هو موضع خبرة عارضة تنطبق أيضاً بصورة مماثلة على المجالات الأخرى .

فلو فضلنا رغم ذلك افتراض أن من مميزات الجبلات العصابية النفسية وجود ميل مفرط النمو فيها إلى الانحراف لوجدنا حيالنا احتمال تمييز عدد من هذه الجبلات وفقاً للغلبة الفطرية لأى من هذه المناطق الشهوية أو لأى من الغرائز الجزئية . أما إن كانت ثمة رابطة معينة تربط الاستعداد الفطرى المنحرف باختيار المرض ، فتلك مسألة من المسائل العديدة التى لم يتناولها البحث فى هذا المجال .

(٧) إشارة إلى الطابع الطفلى للجنسية

لقد زدنا من نعتبرهم منحرفين عدداً — على نحو ملفت — بإثباتنا الدور الذى تؤديه النوازع المنحرفة فى تكوين الأعصبة النفسية . وليس مرجع ذلك إلى أن العصابيين أنفسهم يؤلفون طائفة كبيرة فحسب وإنما يجب أن ندخل فى اعتبارنا أيضاً وجود سلسلة متصلة الحلقات تربط الأعصبة فى مظاهرها المختلفة بالصحة . وقد كان « موبيوس » (Mœbius) فى النهاية محقاً فى قوله إننا جميعاً هستيريون إلى حد ما . ومن ثمة فإن انتشار الانحرافات انتشاراً غريباً يحملنا على افتراض أن الاستعداد للانحرافات ليس خاصية نادرة بل لا بد أنه جزء مما يعتبر جبلة سوية .

وقد رأينا أن من مواضع الجدل مسألة ما إذا كانت الانحرافات ترتد إلى مقومات فطرية أو تظهر بفعل خبرات عارضة ، كما افترض « بينيه » (Binet) بالنسبة للفتشية . والقرار الذى نتأدى إليه الآن هو أن ثمة شيئاً فطرياً بالفعل يكمن وراء الانحرافات ولكنه شىء فطرى فى كل الناس ، يتفاوت شدة من حيث هو استعداد ويزيد بتأثير الحياة الفعلية . ولب الموضوع هو الجذور الجبلية الفطرية للغريزة

الجنسية . فقد تنمو هذه الجذور فى عدد من الحالات (الانحرافات) ، فتصبح الوسائل الفعلية التى يصطنعها النشاط الجنسى ، وقد تعانى فى حالات أخرى إلغاء غير كاف (الكبت) بحيث تتمكن من أن تجذب إليها — بطريق ملتو — قدراً عظيماً من الطاقة الجنسية فى شكل أعراض ، بينما قد تصبح — فى الحالات المواتية التى تتوسط هذين الطرفين — وسائل للتقييد الفعلى وغيره من أنواع التغير ، فتفضى إلى ما يعرف بالحياة الجنسية السوية .

بيد أننا نضيف أن هذه الجبلة المفترضة التى تحوى بذور الانحرافات جميعاً ، لا يمكن التدليل على وجودها إلا لدى الأطفال رغم أن الغرائز لا تتبدى لديهم إلا بدرجات ماطفة من الشدة . ومن ثمة نلمس مبدأ ينص على أن جنسية العصابى قد ظلت على حالة طفلية أو أنها ارتدت إليها ، بحيث يتحول اهتمامنا إلى حياة الأطفال الجنسية . وسوف نشرع فى استقصاء فعل المؤثرات التى تتحكم فى عملية نمو الجنسية الطفلية حتى تنتهى إلى الانحراف أو العصاب أو الحياة الجنسية السوية .

المقالة الثانية

الجنسية الطفلية

إهمال ما هو طفلي : من شائع الرأى فى الغريزة الجنسية أنها مفتقدة فى الطفولة وأنها تنبعث أولا فى فترة من فترات الحياة توصف بالبلوغ . وليس هذا مجرد خطأ بسيط وإنما هو خطأ تترتب عليه نتائج جسيمة لأنه المسئول الأول عن جهلنا الحاضر بالشروط الأساسية للحياة الجنسية . وإن دراسة المظاهر الجنسية فى الطفولة دراسة عميقة قد تكشف لنا الخصائص الجوهرية للغريزة الجنسية وتبين لنا نموها وتدلنا على أى نحو تتجمع به من مصادر مختلفة .

وجدير بالملاحظة أن المؤلفين الذين اشتغلوا بتفسير مميزات الفرد البالغ ونزعاته كرسوا للفترة الأولية التى تتضمنها حياة الأسلاف اهتماما أعظم — أى أنهم نسبوا للوراثة تأثيراً أكبر من تأثير الفترة الأولية الأخرى التى تقع ضمن حدود الوجود الفردى للشخص ، أعنى الطفولة . وكان يجب افتراض أن تأثير هذه الفترة من الحياة أيسر على الفهم وأنه يتطلب أن يحسب حسابه قبل تأثير الوراثة[١] . والحق أننا نجد فيما كتب عن الموضوع ملاحظات عن النشاط الجنسى المبكر لدى صغار الأطفال — من انتصاب واستمناء بل أنواع من النشاط شبيهة بالجماع — ولكنها لا تذكر دائماً إلا باعتبارها أحداثاً شاذة وطرائف أو باعتبارها أمثلة مروعة على الغواية المبكرة . وما من مؤلف ، فيما أعلم ، اعترف صراحة بوجود غريزة جنسية فى الطفولة بشكل منظم ، والكتابات التى لا تفتأ تتزايد عن نمو الطفل يحذف منها عادة الفصل المخصص « للنمو الجنسى »[٢] .

فقدان الذاكرة الطفلى : وإنى أرى أن سبب هذا الإهمال الغريب يرجع من ناحية إلى اعتبارات اللياقة التقليدية التى يلتزم بها المؤلفون نتيجة لما نشأوا عليه ، ومن ناحية أخرى إلى ظاهرة نفسية لم تخضع للتفسير حتى الآن . وأقصد بذلك فقدان الذاكرة العجيب الذى يحجب عن معظم الناس (لا كلهم !) سنوات

طفولتهم الأولى حتى السنة السادسة أو الثامنة . ولم يخطر لنا حتى الآن أن نعجب لحدوث فقدان الذاكرة هذا ، وإن كان لنا أسباب وجيهة تدعو لهذا العجب . فنحن نعلم من غيرنا أننا استجبنا — إبان هذه السنوات التى لا نستبقى منها فى ذاكرتنا فيما بعد إلا شذرات قليلة من الذكريات المبهمة — استجابة قوية لبعض الانطباعات ، وأننا كنا قادرين على التعبير عن الألم والفرح على نحو إنسانى ، وأننا أبدينا ما يدل على وجود الحب والغيرة وغيرها من المشاعر المتأججة التى كنا نهتز لها إذ ذاك اهتزازاً عنيفاً ، بل أننا أدلينا بملاحظات اعتبرها البالغون بينة قوية على البصيرة وبوادر القدرة على الحكم . وحين نبلغ سن الرشد لا يكون لنا عن ذلك كله معرفة خاصة بنا . وما السبب فى تخلف ذاكرتنا هذا التخلف الكبير قياساً بالأنواع الأخرى من نشاطنا العقلى ؟ إن لدينا — على الضد — سبباً قوياً للاعتقاد بأنه ما من فترة تكون فيها القدرة على تقبل الانطباعات واسترجاعها أعظم مما تكون عليه فى سنى الطفولة بالذات[٣] .

ومن جهة أخرى فلا بد أن نفترض ، أو قد نقنع بفحص غيرنا من الناس فحصاً نفسياً ، أن الانطباعات ذاتها التى نسيناها قد تركت فى حياتنا النفسية أعمق الآثار وكان لها أثر حاسم فى نمونا اللاحق بأسره . فليس الأمر إذن إلغاء فعليا لانطباعات الطفولة بل هو بالأحرى فقدان ذاكرة أشبه بما يشاهد لدى العصابيين فيما يتعلق بالأحداث المتأخرة ، جوهره مجرد الاستبعاد عن الشعور (الكبت) . ولكن ما القوى التى تحدث هذا الكبت لانطباعات الطفولة ؟ إن من يحل هذا اللغز يكون قد فسر أيضاً لغز فقدان الذاكرة الهستيرى .

ومهما يكن من أمر فيجب ألا يغيب عنا أن وجود فقدان الذاكرة الطفلى يمدنا بنقطة جديدة للمقارنة بين الحالات النفسية لدى الطفل والعصابى النفسى . وقد سبق لنا أن واجهنا من قبل نقطة أخرى ضمن المبدأ الذى انتهينا إليه وهو أن جنسية العصابيين النفسيين قد توقفت عند مرحلة طفلية أو ارتدت إليها . أليس يمكن الربط — فى النهاية — بين فقدان الذاكرة الطفلى ذاته والحوافز الجنسية فى الطفولة ؟

وفضلا عن ذلك فإن الرابطة التى تربط فقدان الذاكرة الطفلى والهستيرى ليست مجرد لعب بالألفاظ . ففقدان الذاكرة الهستيرى يتم بفعل الكبت ولا يفسر إلا بأن

الفرد حاصل سلفاً على ذخيرة من الآثار الذكروية فى منأى عن سيطرته الشعورية فأصبحت تشد إليها الآن ، عن طريق رابطة التداعى ، ما تجهد قوى الكبت فى استبعاده عن الشعور[٤] . ويمكن القول إنه لولا فقدان الذاكرة الطفلى لما كان فقدان الذاكرة الهستيرى .

وإنى أرتئى إذن أن فقدان الذاكرة الطفلى ، إذ يجعل من طفولة كل فرد شيئاً شبيهاً بحقب ما قبل التاريخ ، ويحجب عنه بواكير حياته الجنسية ، هو المسئول عن إنقاصنا قيمة فترة الطفولة فى نمو الحياة الجنسية عامة . ولا يمكن لمشاهد واحد أن يسد الثغرات التى ظهرت فى معرفتنا على هذا النحو ، بيد أنى قد أبرزت ، منذ ١٨٩٦[٥] ، مغزى سنى الطفولة بالنسبة لبعض الظواهر الهامة المتصلة بالحياة الجنسية ، ولم أقلع منذ ذلك الحين عن توكيد أهمية العامل الطفلى فى الجنسية .

[١] فترة الكمون الجنسى فى الطفولة ووقفاتها

إن ورود النوازع الجنسية التى توصف بأنها غير منتظمة ونادرة الحدوث فى الطفولة وروداً ملفتاً فى تكراره ، وكذلك الكشف لدى العصابيين عن ذكريات الطفولة التى ظلت لاشعورية حتى الآن ، يسمح لنا بتصوير الأحداث الجنسية لمرحلة الطفولة على نحو أشبه بما يلى[٦] :

يبدو مؤكداً أن بذور النوازع الجنسية تأتى مع الطفل الوليد وأنها تواصل نموها وقتاً ما ولكنها تفاجأ إذ ذاك بعملية إلغاء تدريجى قد تقطعها بدورها طفرات دورية فى النمو الجنسى أو توقفها بعض المميزات الفردية . ولسنا نعرف شيئاً يقينياً عن انتظام هذا المسار المذبذب للنمو ودوريته . ولكن يبدو أن حياة الأطفال الجنسية تبزغ عادة فى صورة تقبل المشاهدة حوالى السنة الثالثة أو الرابعة من العمر[٧] .

أنواع الكف الجنسى : وأثناء هذه الفترة من الكمون الكلى أو الجزئى تنبنى القوى النفسية التى تكون فيما بعد عقبات فى طريق الغريزة الجنسية ، تحد من تدفقها كما تفعل السدود (الاشمئزاز والخجل ومطالب المثل العليا الجمالية والأخلاقية) . ويخيل للمرء أن بناء هذه السدود لدى الأطفال المتحضرين ناتج عن التربية .

ولا ريب أن للتربية نصيباً كبيراً فيه . والواقع أن هذا النمو محدد عضوياً ومثبت بالوراثة وقد يتم بين الفينة والفينة بدون مؤازرة من التربية على الإطلاق . والتربية لا تتخطى مجالها المخصص لها إن حصرت نفسها فى تتبع خطوط ما رسم عضوياً فأبرزته بروزاً أجلى وأعمق .

التكوين العكسى والتسامى : وم تصنع هذه الأبنية التى يكون لها فيما بعد أهمية قصوى بالنسبة للثقافة والسواء الشخصيين ؟ لربما ظهرت على حساب النوازع الجنسية الطفلية ذاتها . وهكذا لا تتوقف هذه النوازع عن النشاط خلال هذه الفترة من الكمون ، وإن تحولت طاقتها – كلية أو معظمها – عن الممارسة الجنسية واتجهت إلى أهداف أخرى . ويبدو أن مؤرخى الحضارة متفقون فى افتراض أن الأعمال الحضارية كلها تتطلب مركبات قوية تُستمد من مثل هذا الانصراف بالغريزة الجنسية عن الأهداف الجنسية وتوجيهها إلى أهداف جديدة – وهى عملية جديرة باسم التسامى . ونضيف بناء على ذلك أن العملية ذاتها تؤدى دوراً فى نمو الفرد وأننا نرجع بدايتها إلى مرحلة الكمون فى الطفولة[٨] .

ومن الممكن كذلك تكوين رأى فى الطريقة التى تتم بها عملية التسامى هذه ، . فن جهة لا يمكن استخدام النوازع الجنسية إبان هذه السنوات من الطفولة ، ما دامت وظائف الإنسال قد أرجئت – وهى حقيقة تكون الطابع الرئيسى لمرحلة الكمون . ومن جهة أخرى ، تبدو هذه النوازع منحرفة فى ذاتها أى صادرة عن مناطق شهوية وغرائز لا يمكن إلا أن تستثير – بالنسبة لاتجاه نمو الفرد – مشاعر التنغيص . ومن ثمة فهى تستثير – بغية القضاء على هذا التنغيص قضاء فعلياً – قوى نفسية مضادة (نوازع عكسية) تبنى السدود النفسية السابقة الذكر – الاشمئزاز والخجل والأخلاق[٩] .

وقفات مرحلة الكمون : ولابد ألا نخدع أنفسنا عن الطبيعة الافتراضية وقلة وضوح معرفتنا بعمليات مرحلة الكمون أو الإرجاء الطفلية . ولكننا نرجع إلى الواقع حين نشير إلى أن مثل هذا التطبيق للجنسية الطفلية يمثل مثلا تربوياً أعلى ، عادة ما يحيد عنه النمو الفردى فى نقطة ما وغالباً ما يحيد عنه إلى مدى بعيد . ويبرز بين الفينة والفينة مظهر جزئى من مظاهر الجنسية، لم يشمله التسامى ، أو قد يظل نشاط

جنسى ما مستمراً ما استمرت مرحلة الكمون إلى حين تظهر الغريزة الجنسية فى البلوغ بشدة أعظم . فإن أولى المربون الجنسية الطفلية اهتمامهم ، سلكوا وكأنهم يشاطروننا الرأى فيما يتصل بتشييد القوى الدفاعية الأخلاقية على حساب الحياة الجنسية ، وكأنهم أيضاً يعلمون أن النشاط الجنسى يجعل الطفل غير قابل للتربية : فهم يوصمون بـ « الرذيلة » كل مظاهر الأطفال الجنسية ، دون أن يتمكنوا من مقاومتها مقاومة مجدية . بيد أن لنا من الأسباب ما يجعلنا نوجه اهتمامنا إلى هذه الظواهر التى تخشاها التربية كل الخشية لأننا نترقب منها إيضاحاً للصورة الأصيلة التى تكون عليها الغريزة الجنسية .

[٢] مظاهر الجنسية الطفلية

المص : سأتخذ مص الأصبع (أو المص الشهوى) ، لأسباب سوف تظهر فيما بعد ، مثالا على المظاهر الجنسية فى الطفولة ، وقد قام طبيب الأطفال المنغارى « ليندنر » (Lindner) بدراسة ممتازة فى الموضوع .

يظهر مص الأصبع فى الطفولة المبكرة وقد يستمر حتى البلوغ بل قد يبقى طوال الحياة . وهو يتألف من تكرار المص بالفم (أو الشفاه) تكراراً إيقاعياً ، لا محل لاعتبار أن الغاية منه هو تناول الطعام . فقد يتخذ جزء من الشفة ذاتها أو اللسان أو أى موضع من البشرة فى متناول اليد — وحتى أصبع القدم الأكبر — موضوعاً يقع عليه المص . وقد تظهر بهذا الصدد غريزة قبض تتجلى فى جذب شحمتى الأذنين جذباً إيقاعياً متأنياً أو الإمساك — للغرض نفسه — بجزء من شخص آخر (الأذن عادة) . ويتضمن المص الشهوى استغراق الانتباه استغراقاً كاملا ويفضى إما إلى الرقاد أو إلى رجع حركى من قبيل التفريغ الجنسى [١٠] . وليس يندر أن يكون ممتزجاً بتدليك جزء حساس من الجسم مثل الصدر أو الأعضاء التناسلية الخارجية . وعن هذا الطريق يتدرج كثير من الأطفال من المص إلى الاستمناء .

وقد اعترف « ليندنر » (Lindner) نفسه [١١] بطبيعة هذا النشاط الجنسية وأبرزها من غير تعليق . وكثيراً ما يوضع مص الأصبع فى الحضانة ضمن الأنواع الأخرى

من « رذائل » الأطفال الجنسية . وقد أنكر عدد من أطباء الأطفال وأخصائى الأعصاب هذا الرأى أشد الإنكار ، وإن كان ذلك بلا ريب يرجع جزئياً إلى الخلط بين « الجنسى » و « التناسلى » . ويثير اعتراضهم سؤالا صعباً لا سبيل إلى التملص منه : ما المميز العام الذى يمكننا من تبين المظاهر الجنسية لدى الأطفال ؟ إن تسلسل الظواهر تسلسلا بصرنا به الفحص التحليلى النفسى يؤيدنا ، على ما أرى ، فى اعتبار مص الأصبع مظهراً جنسياً وفى اختيارنا إياه للقيام بدراستنا السمات الجوهرية للنشاط الجنسى الطفلى[١٢] .

عشق الذات : ونحن ملزمون بتقويم هذا المثال تقويماً شاملا . ولا بد أن نؤكد أن أبرز سمات هذا النشاط الجنسى هو أن الغريزة الجنسية فيه غير موجهة إلى أشخاص آخرين وإنما تشبع نفسها عن طريق جسم الشخص نفسه ، فهى **عاشقة لذاتها** كما نصفها مستخدمين لفظة وفق إلى وضعها «هافلوك إيليس» (Havelock Ellis)[١٣] .

ومن الجلى كذلك أن مسلك الطفل فى مص الأصبع يحدده السعى وراء لذة خبرها من قبل ويتذكرها الآن . وهو فى أبسط الحالات يمضى فى الحصول على هذا الإشباع بمص جزء من البشرة أو الغشاء المخاطى مصاً إيقاعياً . ومن اليسير أن نحزر أى المناسبات خبر فيها الطفل أولى خبرات اللذة التى يحن الآن إلى تجديدها . فلا بد أن يكون أول ما يقوم به الطفل من نشاط وأكثره حيوية ، ألا وهو مص ثدى الأم (أو بديلاتها) ، هو الذى جعله يألف هذه اللذة . ونحن نرى أن شفتى الطفل تسلكان وكأنهما **منطقة شهوية** وأن الإثارة الناشئة عن تدفق اللبن الدافئ هى علة الإحساس باللذة . وإشباع المنطقة الشهوية مرتبط أولا بإشباع الحاجة إلى التغذية . فالنشاط الجنسى مرتبط بادئ ذى بدء بوظائف تعمل من أجل حفظ الذات ولا يستقل عنها إلا فيما بعد[١٤] . ومن رأى رضيعاً يتراخى بعد أن شبع من الثدى وينام متوهج الوجنتين مبتسماً ابتسامة الغبطة ، فلا بد أن يتفكر أن تلك الصورة تظل نموذجاً للتعبير عن الإشباع الجنسى فى الحياة فيما بعد . والآن تنفصل الحاجة إلى تكرار الإشباع الجنسى عن الحاجة إلى التغذية انفصالا يحتمه ظهور الأسنان وتناول الطعام مضغاً لا رضاعة فحسب . والطفل لا يستخدم فى رضاعته جسماً غريباً بل يفضل جزءاً من بشرته لأنه أكثر ملاءمة ولأنه يجعله مستقلا عن العالم

الخارجي الذى لا يستطيع بعد التحكم فيه ولأنه يزود نفسه — على هذا النحو — بمنطقة شهوية ثانية من نوع أدنى ، إن جاز التعبير . ودونية هذا الموضع الثانى من الأسباب التى تجعله يسعى فيما بعد إلى نظير هذا الجزء أى الشفاه لدى شخص آخر (وكأنه يقول لنفسه : « أسفى أنى لا أستطيع تقبيل نفسى ») .

والأطفال جميعاً لا يمارسون المص . ولنا أن نفترض أن الأطفال الذين يسلكون هذا المسلك تكون منطقة الشفاه عندهم ذات دلالة شهوية قوية بالجبلة. فإن بقيت هذه الدلالة أصبح الأطفال أنفسهم ، حين يدركون سن البلوغ ، ولوعين بالتقبيل وميالين للتقبيل فى صوره المنحرفة . فإن كانوا ذكوراً أحسوا بدافع قوى إلى الشراب والتدخين . أما إذا حل الكبت ، تولد لديهم شعور بالاشمئزاز من الأكل وقىء هستيرى . ويمتد الكبت إلى غريزة التغذية بفضل الاشتراك فى منطقة الشفاه . وكثير [١٥] من مريضاتى المصابات باضطرابات الأكل والكرة الهستيرية* (globus hystericus) وتقلص الحلق والقىء ، مارسن المص بشدة فى سنوات طفولتهن .

وإن دراستنا مص الأصبع أو المص الشهوى قد أمدتنا بالمميزات الثلاث الجوهرية التى يتميز بها مظهر جنسى طفلى . فهو **يعتمد** فى نشأته **على** إحدى وظائف الجسم الحيوية[١٦] ، وهو لا يعرف بعد موضوعاً جنسياً أى أنه **يعشق ذاته** ، وهدفه الجنسى تهيمن عليه **منطقة شهوية** . ونحن نتوقع أن تنطبق هذه المميزات كذلك على معظم أنواع النشاط الأخرى للغرائز الجنسية الطفلية .

[٣] الهدف الجنسى للجنسية الطفلية

مميزات المناطق الشهوية : يعلمنا مثال مص الأصبع أشياء أخرى عن مقومات المنطقة الشهوية . فهى موضع من البشرة أو الغشاء المخاطى يولد شعوراً باللذة ذا كيف معين متى استثارته منبهات من نوع معين . ولا ريب أن المنبهات التى تولد اللذة تخضع لشروط خاصة لا علم لنا بها . ولابد للطابع الإيقاعى أن يقوم بدور فيها ،

* يحس المريض الهستيرى إحساساً مؤلماً بوجود ما يشبه الكرة فى الرقبة أو الصدر أو الأمعاء ، وقد يكون هذا الإحساس عرضاً منعزلا أو قد يأتى ضمن أعراض أخرى مؤذناً باقتراب النوبة العصبية . والمقابل الموضوعى له هو التقلص فى المرىء . (المترجم) .

والمماثلة بالدغدغة تفرض نفسها ههنا بالضرورة . أما أنه ينبغي وصف طابع شعور اللذة الذى يستثيره المنبه بأنه « نوعى » وأن هذه النوعية يتوقف عليها العامل الجنسى ، فأمر يبدو أقل يقيناً . وعلم النفس ما زال يتخبط فى الظلام بالنسبة لمسائل اللذة والألم حتى إنه ليتعين الأخذ بأشد الفروض حذرًا . وسوف نقع فيما بعد على أسباب تبدو مؤيدة لاتصاف شعور اللذة بكيفية نوعية .

ويمكن نسبة الخاصية الشهوية إلى مواضع متفرقة من الجسم بشكل واضح . فثمة مناطق مقدر لها أن تكون مناطق شهوية كما يتضح من مثال المص . بيد أن المثال نفسه يعلمنا أيضاً أن أى جزء آخر من أجزاءالبشرة أوالغشاء المخاطى قد يتخذ صفة المنطقة الشهوية ، فلابد أن يكون معدًّا لذلك إعدادًا ما. فكيفية المنبهتسهم فى توليد إحساس اللذة أكثر مما تسهم طبيعة الجزء المختص من الجسم . والطفل الذى يمارس المص الشهوى يستكشف جسمه وينتقى منه موضعاً يمصه ، فيؤثره فيما بعد بحكم التعود . فإن وقع صدفة على إحدى المناطق المعدة له (حلمات الثدى والأعضاء التناسلية) ظلت أكيدًا موضع إيثاره . وكذلك نجد فى أعراض الهستيريا ميلا مماثلا تماما إلى النقل . ففى هذا العصاب يعم الكبت معظم المناطق التناسلية الفعلية ، وتنقل هذه الأخيرة قابليتها للاستثارة إلى مناطق شهوية أخرى — عادة ما تكون مهملة فى حياة الراشدين — فتسلك مسلك الأعضاء التناسلية تماماً . بيد أن القابلية للاستثارة التى تتميز بها الأعضاء التناسلية قد يكتسبها أى جزء آخر من أجزاء الجسم ، فيصبح منطقة شهوية ، كما هى الحال فى المص . والمناطق الشهوية والهستيرية تبدى نفس الخصائص[١٧] .

الهدف الجنسى الطفلى : ينحصر الهدف الجنسى للغريزة الطفلية فى الحصول على الإشباع باستثارة المنطقة الشهوية — التى اختيرت بطريقة أو بأخرى — استثارة ملائمة . ولابد لهذا الإشباع أن يكون موضع خبرة سابقة كيما يخلف وراءه الحاجة إلى تكراره . ولنا أن نتوقع أن تكون الطبيعة قد أعدت عدتها لكى لا تترك للصدفة خبرة الإشباع هذه[١٨] . وقد تعلمنا فيما سبق أى الحيل تحقق هذه الغاية لمنطقة الشفاه : إنها الرابطة المتأنية التى تربط هذا الموضع من الجسم بتناول الطعام . وسوف نقابل حيلا مماثلة أخرى من حيث هى مصادر للجنسية . وتكشف الحاجة

إلى تكرار الإشباع عن نفسها على نحوين : من خلال شعور معين بالتوتر يتسم بالأحرى بطابع الألم ، ومن خلال إحساس بالأكال أو التهيج ، **مشروط مركزيا** ومسقط على المنطقة الشهوية السطحية . ومن ثمة يمكن صياغة الهدف الجنسى بطريقة أخرى ، فهو ينحصر فى استبدال إحساس التهيج المسقط على المنطقة الشهوية بمنبه خارجى يزيل ذلك الإحساس بما يولد من مشاعر الإشباع . ويتألف هذا المنبه الخارجى عادة من نوع من الممارسة مماثل للمص[١٩] .

أما أن الحاجة يمكن استثارتها من السطح بتغيير المنطقة الشهوية تغييراً حقيقيًّا ، فأمر يتسق ومعرفتنا الفسيولوجية أكمل اتساق . والأمر لا يبدو لنا غريباً بعض الغرابة إلا لأننا مضطرون — لإزالة أحد المنبهات — أن نقرب من نفس الموضع منبهاً آخر .

[٤] — المظاهر الجنسية الاستمنائية[٢٠]

مما يثلج الصدر أن نجد أن ما علينا أن نتعلمه عن نشاط الأطفال الجنسى نزر يسير ، بعد أن أدركنا طبيعة الغريزة المتولدة عن منطقة واحدة من المناطق الشهوية . وأوضح الفروق يتعلق بطبيعة الحيلة الضرورية لإشباع الغريزة ، فهى المص فى حالة منطقة الشفاه، وهو ما يتعين إبداله بأفعال عضلية أخرى وفقاً لموضع المناطق الأخرى وطبيعتها .

نشاط المنطقة الشرجية : تصلح المنطقة الشرجية ، بفضل موقعها ، أن تكون وسيطاً يربط الجنسية بالوظائف الجسمية الأخرى ، شأنها فى ذلك شأن منطقة الشفاه . ولا بد من افتراض أن المغزى الشهوى لهذا الموضع من الجسم ضخم منذ البداية . ونحن نتعلم من التحليل النفسى — فى شىء من الدهشة — ما هى التحولات التى تمر بها عادة الإثارات الجنسية الصادرة عن هذه المنطقة وما نسبة احتفاظها بقدر عظيم من القابلية للتنبيه التناسلى على مدى الحياة[٢١] . وتعمل الاضطرابات المعوية الشائعة فى الطفولة على ألا تكون المنطقة خلوًّا من الاستثارات الشديدة . والنزلات المعوية فى بواكير الحياة تجعل الأطفال « عصبيين » كما يقال ، وتؤثر تأثيراً حاسماً فى الأعراض التى يتخذها العصاب فى حالات المرض العصابى اللاحق ، وتضع تحت تصرفه

مجال الاضطرابات المعوية بأسره . فلو التفتنا إلى ما لمخرج القناة المعوية من دلالة شهوية تبقى على أية حال فى صورة معدلة ، لما جنحنا إلى الاستخفاف بأثر البواسير الذى اعتاد الطب القديم أن يعلق عليه أهمية كبرى فى تفسير الأحوال العصابية .

والأطفال الذين يستخدمون قابليتهم للتهيج الشهوى فى المنطقة الشرجية ينمّون عن أنفسهم باحتفاظهم ببرازهم حتى يؤدى تراكمه إلى إحداث تقلصات عضلية عنيفة ، فيثير مروره بالشرج الغشاء المخاطى إثارة قوية. وهو بذلك لا يتسبب فى مؤلم الأحاسيس فحسب بل فى اللذيذ منها غاية اللذة أيضاً . ونرى أوضح علامات الشذوذ أو العصبية اللاحقة فى إباء الطفل معانداً أن يفرغ معيه حين يوضع على « القصرية » – أى حين تريد منه ذلك مربيته – فيحجم عن ممارسة هذه الوظيفة حتى يختار بنفسه القيام بها . وهو لا يأبه بالطبع لاتساخ فراشه بل لا يكون متلهفاً إلا إلى عدم فقدان اللذة الإضافية المرتبطة بالإخراج . والمربون محقون ثانية فى تسميتهم الأطفال الذين « يحجمون » عن أداء هذه العملية بالرذلاء .

ويسلك محتوى المعى[٢٢] ، بوصفه جسماً منبهاً للجزء الحساس جنسيًّا من الغشاء المخاطى ، وكأنه البشير بعضو آخر يجب أن يظهر بعد مرحلة الطفولة . ولمحتوى المعى معان هامة أخرى بالنسبة للرضيع . فمن الجلى أنه يعامل معاملة جزء من جسم الطفل نفسه وأنه يمثل أول « هدية » : فبانفصاله عنه يعبر الكويئن عن انصياعه لبيئته وبإمساكه يعبر عن عصيانه . ومن « هدية » يكتسب المحتوى فيما بعد معنى « الطفل » ، وفقاً لإحدى نظريات الأطفال الجنسية حيث يُقتنى الطفل بالأكل ويولد من خلال المعى (انظر فيما بعد ص ٩٣) .

وإن أحد جذور الإمساك الشائع بين مرضى الأعصاب لهو استبقاء كتلة البراز استبقاء يتعمده الطفل فى البداية كما يستخدمها باعتبارها منبهاً استمنائيًّا لمنطقة الشرج أو فى علاقته بمن يرعاه من الأشخاص . وكذلك ينعكس مغزى منطقة الشرج بأسره فى أننا لا نجد إلا قلة من العصابيين لا يقومون بممارسات وشعائر وما شابهها تتصل بالتبرز ويحرصون على استبقائها سرًّا[٢٣] .

وليس يندر ألبتة أن يوجد – لدى الأطفال الأكبر سنًّا – تنبيه استمنائى لمنطقة الشرج يتم بمعاونة الأصبع ويثيره أكال صادر عن المركز أو باق فى السطح .

نشاط المناطق التناسلية : من المناطق الشهوية فى جسم الطفل منطقة لا تقوم قطعاً بالدور الأول ولا تحمل أقدم النوازع الجنسية ولكنها مجعولة لعظائم الأمور فى المستقبل . فهى مرتبطة بالتبول (الحشفة والبظر) لدى كل من الأطفال الذكور والإناث ، ويحويها فى الحالة الأولى كيس من الغشاء المخاطى بحيث لا تنقطع استثارتها عن طريق الإفرازات التى قد تتسبب فى بدء الحياة الجنسية مبكراً . وأنواع النشاط الذى تقوم به هذه المنطقة الشهوية — وهى جزء من الأعضاء الجنسية الفعلية — تحدد بدايات الحياة الجنسية « السوية » فيما بعد .

ووضع هذه المنطقة التشريحى وانغماسها فى الإفرازات وما تتعرض له من غسل ودعك أثناء زينة الطفل وإثارات عارضة مؤكدة (مثل حركات الديدان المعوية فى حالة البنات) تجعل من المحتم أن يلحظ الأطفال حتى فى سن الرضاعة ما يولده هذا الموضوع من جسدهم من شعور اللذة وأن يوقظ فيهم حاجة إلى تكراره . فإن استعرضنا مجموع الحيل المذكورة وتذكرنا أن إجراءات النظافة تؤثر تأثيراً لا يكاد يختلف عن تأثير القذارة نفسها ، بات من المحتم تصور أن الاستمناء الطفلى المبكر الذى لا مفر لفرد منه يحدد الأولية المقتبلة لهذه المنطقة الشهوية بالنسبة للنشاط الجنسى[٢٤] . وينحصر الفعل الذى يستبعد الإثارة ويحقق الإشباع فى حركة دعك باليد أو ضغط باليد على هيئة فعل انعكاسى سابق التكوين أو بضم الفخذين . والطريقة الأخيرة أكثر ذيوعاً بين البنات . وإيثار اليد عند الصبية دليل على أهمية ما تسهم به غريزة السيطرة فى النشاط الجنسى الذكرى[٢٥] .

ولمجرد الوضوح[٢٦] أشير إلى أن ثمة ثلاث مراحل يجب تمييزها فى الاستمناء الطفلى . أولاها يرجع إلى عهد الرضاعة وثانيتها هى الفترة القصيرة التى يزدهر فيها النشاط الجنسى حوالى العام الرابع من الحياة ، أما المرحلة الثالثة فتقابل استمناء البلوغ الذى غالبا ما يؤخذ وحده فى الاعتبار .

المرحلة الثانية للاستمناء الطفلى : ويختفى استمناء الطفولة الأولى — على ما يلوح — بعد وقت وجيز ولكنه قد يستمر بلا انقطاع حتى البلوغ استمراراً يكون أول حيدة كبرى عن النمو المحدد للمتحضرين من بنى البشر . وتتيقظ الغريزة الجنسية الخاصة بهذه المنطقة التناسلية ثانية بعد دور الرضاعة فى نقطة ما من سنى الطفولة ،

عادة ما تكون قبل العام الرابع وتبقى زمناً ما حتى تكبت ثانية أو تستمر بغير توقف . والمواقف الممكنة جد منوعة ولا يمكن تحديدها إلا بتشريح دقيق للحالات الفردية . بيد أن تفاصيل هذا النشاط الجنسى الثانى تترك فى ذاكرة الفرد أعمق الآثار (اللاشعورية) وتحدد نمو خلقه وما إذا كان سيظل صحيحاً ، كما تحدد أعراض عصابه إن مرض بعد البلوغ . ونجد فى الحالة الأخيرة أن هذه الفترة الجنسية قد نسيت وأن الذكريات الشعورية التى تشهد عليها قد نقلت من موضعها — وقد سبق أن ذكرت أنى أميل أيضاً إلى الربط بين فقدان الذاكرة الطفلى السوى وهذا النشاط الجنسى الطفلى . ويمكننا الفحص التحليلى النفسى من رد ما نسى إلى الشعور وبذلك يقضى على دافع قهرى يتولد عن المواد النفسية اللاشعورية .

عودة الاستمناء الطفلى المبكر : تعود الإثارة الجنسية المميزة للطفولة المبكرة إبان سنوات الطفولة المشار إليها ، إما باعتبارها تنبيهاً فى صورة دغدغة مشروطة مركزياً ، تتطلب إشباعاً عن طريق الاستمناء وإما باعتبارها عملية من قبيل الاستحلام تصل إلى الإشباع دون أن يأتى الفرد بفعل ما ، على نمط الاستحلام فى سن النضوج . وترد الحالة الأخيرة أكثر ما ترد لدى البنات فى النصف الثانى من الطفولة وأسبابها ليست مفهومة تمام الفهم وإن كان يبدو أنها مشروطة غالباً — لا دائماً — بوجود مرحلة متقدمة من الاستمناء الإيجابى . وأعراض هذه المظاهر الجنسية قليلة تتبدى خاصة فى جهاز التبول الذى ينوب عن الجهاز الجنسى الناقص النمو وكأنه قيّم عليه ورمزله . ومعظم ما يسمى فى هذه الفترة باضطرابات المثانة هى اضطرابات جنسية ، والتبول اللاإرادى الليلى يقابل الاستحلام إن لم يمثل نوبة من نوبات الصرع .

ولعودة النشاط الجنسى أسباب داخلية ومناسبات خارجية يمكن الاستدلال على كل منها — فى حالات المرض العصبى — من صورة الأعراض ، كما يمكن الكشف عنها كشفاً يقينياً باتباع الفحص التحليلى النفسى ، وسوف يأتى الكلام تواً عن الأسباب الداخلية . أما المناسبات الخارجية العارضة فتكتسب فى هذه الفترة دلالة عظمى تبقى على الزمن . ونجد فى المحل الأول آثار التغرير الذى يعامل فيه الطفل مبكراً معاملة الموضوع الجنسى ، ويتعلم فيه كيف يشبع المنطقة التناسلية

إشباعاً يتم فى ظروف مشحونة بالانفعال . وغالباً ما يضطر إذ ذاك إلى استعادته بالاستمناء المرة تلو المرة . ويصدر مثل هذا التأثير إما عن الراشدين أو الأطفال الآخرين . ولست أقر أنى بالغت فى مقالى عن « أسباب الهستيريا » (١٨٩٦) بالنسبة لتكرار هذا التأثير أو أهميته ، رغم أنى لم أكن أعلم إذ ذاك أن الأشخاص الذين ظلوا أسوياء قد يكونون قد تعرضوا فى طفولتهم لنفس الخبرة ورغم أنى قد أفرطت — من ثمة — فى تقدير أهمية التغرير أن قارناه بعوامل الجبلة الجنسية والنمو[٢٨] . ومن الواضح أن التغرير غير ضرورى لإيقاظ حياة الطفل الجنسية وأن هذه اليقظة قد تحدث تلقائياً بفعل علل داخلية .

الاستعداد المنحرف متعدد الصور : مما يدعو إلى التأمل أن الطفل قد ينحرف انحرافات متعددة الصور بتأثير التغرير وأنه قد ينقاد إلى كافة الشذوذات الممكنة . وهذا يدل على وجود ميل إليها فى استعداده الفطرى ، والقيام بها يواجه مقاومة ضئيلة لأن السدود النفسية التى تقف دون الإسراف الجنسى — الخجل والاشمئزاز والأخلاق — لم تشيد بعد أو هى فى طور التشييد ، وفقاً لعمر الطفل . ومن هذه الوجهة لا يختلف مسلك الطفل عن مسلك المرأة المتوسطة غير المثقفة حيث الاستعداد المنحرف المتعدد الصور ما يزال باقياً . فهى قد تظل سوية جنسياً فى الظروف العادية ولكنها قد تستعذب كل الانحرافات إن انقادت لمغرر ماهر ، فتستبقيها ضمن نشاطها الجنسى الخاص . وتستغل البغايا نفس الاستعداد المتعدد الصور أى الطفلى فى نشاطهن المهنى . ونظراً لضخامة عدد البغايا والنسوة اللائى لابد أن ننسب إليهن ميلا إلى البغاء دون أن يحترفنه بالفعل ، أصبح من المحال قطعاً ألا نعترف بأن هذا الاستعداد لكافة الانحرافات خاصية إنسانية عامة أساسية .

الغرائز الجزئية : أضف إلى ذلك أن تأثير الغواية لا يساعد على الكشف عن الأحوال المبكرة للغريزة الجنسية وإنما يبلبل نظرتنا إليها لأنه يمد الأطفال قبل حينهم بموضوع جنسى لا تبدى الغريزة الجنسية الطفلية حاجة إليه بادئ ذى بدء . ولابد لنا مع ذلك أن نسلم بأن الحياة الجنسية الطفلية ، وإن سيطرت عليها المناطق الشهوية سيطرة غلابة ، تكشف عن عناصر تتضمن — منذ البداية — وجود الأشخاص الآخرين بوصفهم موضوعات جنسية . تلك هى غرائز حب النظر والاستعراض

والقسوة التى تظهر مستقلة عن المناطق الشهوية استقلالا ما ولا ترتبط بالحياة التناسلية[٢٩] ارتباطاً وثيقاً إلا فيما بعد ، رغم أن من الممكن مشاهدتها فى الطفولة فى صورة نوازع مستقلة متميزة أولا عن النشاط الجنسى الشهوى . والطفل الصغير لا يعرف الحياء أصلا ويبدى فى السنوات المبكرة إشباعاً لا لبس فيه حين يعرض جسمه مع التركيز على الأعضاء التناسلية خاصة . ونقيض هذا الميل الذى يعتبر انحرافياً — التطلع إلى رؤية أعضاء الآخرين التناسلية — لا يظهر غالباً إلا فى فترة متأخرة نسبياً من فترات الطفولة ، حين تكون العقبة التى وضعها شعور الحياء قد بلغت درجة معينة من النمو[٣٠] . وبتأثير الغواية قد يكتسب انحراف حب النظر أهمية عظمى فى حياة الطفل الجنسية . ولا بد لى — بناء على أبحاثى فى سنوات الطفولة لدى الأسوياء والمرضى العصابيين — أن أخلص بأن حب النظر قد يكون لدى الأطفال مظهراً تلقائياً . فإن تحول انتباه صغار الأطفال مرة إلى أعضائهم التناسلية — وعادة ما يكون ذلك بطريق الاستمناء — خطوا خطوة أخرى بغير عون خارجى ، وأظهروا اهتماماً شديداً بأعضاء أترابهم التناسلية . ولما كانت فرصة إشباع مثل هذا التطلع لا تتوفر غالباً إلا عند إشباع حاجتى الإخراج ، أصبح أمثال هؤلاء الأطفال محبى نظر أى ولوعين بمشاهدة عمليتى التبول والتبرز . وبعد أن يبدأ كبت هذه الميول تتبقى الرغبة فى رؤية أعضاء الغير التناسلية (من نفس الجنس أو من الجنس الآخر) وتصير حافزاً قهرياً مؤلماً ، يمد بعض حالات العصاب فيما بعد بأعظم قوة دافعة إلى تكوين الأعراض .

وتنمو عناصر القسوة فى الغريزة الجنسية لدى الأطفال نمواً أكثر استقلالا عن النشاط الجنسى المرتبط بالمناطق الشهوية . والقسوة عامة قريبة من خلق الطفل ما دامت العقبة التى تقف بين غريزة السيطرة والألم الذى يعانيه الغير — أى القدرة على الإشفاق — تنمو فى وقت متأخر نسبياً . والتحليل السيكولوجى الأساسى لهذه الغريزة لم يتم بعد — كما نعلم — على نحو مرض ، ولنا أن نفترض أن الدافع إلى القسوة ينحدر عن غريزة السيطرة وأنه يظهر فى فترة من الحياة الجنسية لم تقم فيها الأعضاء التناسلية بعد بالدور الذى تقوم به فيما بعد . فهو إذ ذاك يسيطر على مرحلة من الحياة الجنسية سوف نصفها بعد حين بالتنظيم القبل تناسلى[٣١] . والأطفال

الذين يتميزون بقسوتهم على الحيوانات والأتراب خاصة عادة ما يثيرون بحق شبهة فى وجود نشاط جنسى شديد سابق لأوانه صادر عن المناطق الشهوية ؛ ويبدو — رغم تساوى الغرائز الجنسية جميعاً فى النضج المبكر — أن النشاط الجنسى الشهوى متقدم عليها . وغياب حاجز الشفقة يجلب معه خطر استحالة الفصل — فى الحياة المتأخرة — بين غرائز القسوة والشهوة وقد ترابطت فى الطفولة على هذا النحو .

والمعروف لدى التربويين جميعاً ، منذ « اعترافات » جان جاك روسو ، أن استثارة بشرة الإليتين استثارة مؤلمة هى إحدى الجذور الشهوية لغريزة القسوة السلبية (المازوخية)* . وقد انتهوا من ذلك إلى المطالبة — بحق — بأنه لا ينبغى إنزال العقاب البدنى الذى ينصب عادة على هذا الجزء من الجسم ، فى حالة الأطفال الذين يكون اللبيدو لديهم معرضاً للتحول إلى القنوات الجانبية بتأثير المطالب اللاحقة للتربية الحضارية[٣٢] .

[٥] البحث الجنسى فى الطفولة

غريزة المعرفة : فى حوالى نفس الوقت الذى تصل فيه حياة الطفل الجنسية إلى ذروتها الأولى ، ما بين الثالثة والخامسة ، تظهر لديه أيضاً بواكير نشاط يمكن أن ننسبه إلى غريزة المعرفة أو البحث . ولا يمكن عد غريزة المعرفة ضمن العناصر الغريزية الأولية ولا إلحاقها بالجنسية وحدها . وإن نشاطها ليمثل من وجهة نحواً متسامياً من أنحاء تحقيق السيطرة وهى من جهة أخرى تستخدم طاقة حب النظر . بيد أن

* يشير فرويد إلى ذكرى من ذكريات الطفولة يرجع إليها « روسو » ميوله المازوخية التى ظهرت لديه فيما بعد . فقد عاقبته معلمة اللغة اللاتينية ، وهو فى الثامنة من عمره ، بجلده على إليتيه . وإليك تعليق « روسو » على هذا الحدث :

« والغريب أن هذا العقاب زادنى ولعاً بتلك التى أنزلته بى . ولولا صدق هذا الولع وما بى من دعة فطرية لسعيت إلى استعادة نفس المعاملة باستحقاقى إياها . فلقد وجدت فى الألم بل فى الخزى ذاته مزيجاً شهوانياً ترك فى نفسى من الرغبة فى خبرته على يد نفس الشخص أعظم مما ترك من خوف . ونظراً لاختلاط ذلك كله بغريزة جنسية مبكرة اليقظة ، فما كان يبدو لى نفس العقاب لذيذاً إن وقعه على أخوها » .

J - J . Rousseau : Confessions. Livre I.

(المترجم)

علاقاتها بالحياة الجنسية تهمنا أهمية خاصة لأننا تعلمنا من التحليل النفسى أن غريزة المعرفة لدى الطفل تنجذب إلى المشكلات الجنسية انجذاباً غير متوقع فى تبكيره وشدته بل قد يحتمل أن تكون هذه المشكلات هى السبب فى إيقاظها .

لغز أبى الهول : إن الاهتمامات العملية لا النظرية هى التى تدفع الأطفال إلى ممارسة نشاط البحث . ومما يجعل الطفل متفكراً نافذ البصيرة ، اكتشافه أو ارتيابه فى مجىء طفل جديد يهدد الأسس التى أقام عليها وجوده ، وخشيته — نتيجة لذلك — أن تُمنع عنه الرعاية والحب . وكذلك فإن أول مشكلة يواجهها — فى مقابل هذا التاريخ النشوئى — لا تتصل بالسؤال عن الاختلاف بين الجنسين بل بلغز من أين يأتى الأطفال ؟[٣٤] ذلك هو أيضا عين اللغز الذى عرضه وحش طيبة فى صورة مشوهة من السهل تصويبها* . وأما وجود الجنسين فإن الطفل ليتقبله بالأحرى بادئ ذى بدء بغير مقاومة أو تريب . ومما لا يفتقر إلى برهان عند الطفل الذكر أنه يجب نسبة أعضاء تناسلية كأعضائه إلى كل من يعرف من الأشخاص وأن من المحال الجمع بين غياب هذه الأعضاء وتصوره غيره من هؤلاء الناس .

عقدة الخصاء والغيرة من القضيب : وهذا الاعتقاد يتمسك به الصبية تمسكاً شديداً ويدفعون عنه بعناد حيال المتناقضات التى سرعان ما تأتى بها المشاهدة ولا يتخلون عنه إلا بعد صراعات داخلية عنيفة (عقدة الخصاء) . وتقوم بدائل هذا القضيب المفتقد لدى النسوة بدور كبير فى تشكيل الانحرافات العديدة[٣٥] .

وافتراض وجود نفس الأعضاء التناسلية (الذكروية) لدى البشر جميعاً أول نظرية من نظريات الأطفال الملفتة الهامة فى الجنس . ولا نفع للطفل من أن علم الحياة يؤيد حكمه السبقى وأنه مضطر إلى الاعتراف بأن البظر بديل حقيقى للقضيب . والبنت الصغيرة لا تقع فى أفكار مماثلة حين ترى أن أعضاء الصبية التناسلية مختلفة التكوين ، وإنما تكون على استعداد للاعتراف بها مباشرة . وتستبد بها الغيرة من القضيب فتؤدى إلى رغبة هامة فى نتائجها ، هى أن تصير صبياً بدورها .

---

* إشارة إلى أسطورة أوديب الذى حل اللغز الذى كان يلقيه وحش عند مدخل مدينة طيبة وإليك اللغز : ما الشىء الذى يسير على أربع فى الصباح وعلى اثنتين عند الظهر وعلى ثلاثة فى المغيب ؟ والحل : هو الإنسان فى طفولته ونضجه وشيخوخته . (المترجم) .

نظريات الميلاد : يستطيع كثير من الناس أن يتذكروا بوضوح — فى فترة ما قبل المراهقة — اهتمامهم الشديد بمسألة من أين يأتى الأطفال ، وقد كانت إذ ذاك الحلول التشريحية جد منوعة : فهم يأتون من الصدور أو يستقطعون من الجسد أو أن السرة تتفتح لمرورهم[٣٦] . والمرء — خارج التحليل — لا يتذكر إلا فيما ندر أبحاثاً مماثلة قام بها فى سنوات الطفولة المبكرة . فالكبت قد وقع عليها منذ زمن طويل ، وإن كانت نتائجها واحدة فى مضمونها : فالناس يحصلون على الأطفال بأكلهم شيئاً معيناً (كما فى القصص الخرافية) ، والأطفال يولدون من الشرج على نحو ما يخرج البراز . وتذكرنا هذه النظريات الطفلية بالأحوال السائدة فى مملكة الحيوان ولا سيما المخرج فى أنماط من الحيوان دون الثدييات .

التصور السادى للاتصال الجنسى : فإن عاين الأطفال فى هذه السن المبكرة اتصالا جنسيًّا بين البالغين وهى فرصة تتوفر لهم لاعتقاد الكبار أن الطفل الصغير لا يستطيع فهم الأمور الجنسية فإنهم يعتبرون الفعل الجنسى حتماً ضرباً من الإيذاء أو الإذلال ، أى أنهم يتصورونه بمعنى سادى . ويبين لنا التحليل النفسى كذلك أن مثل هذا الانطباع فى الطفولة المبكرة يسهم كثيراً فى الاستعداد لتحويل الهدف الجنسى فيما بعد تحويلا ساديًّا . ويشغل الأطفال أيضاً شغلا كبيراً بمشكلة ماهية الاتصال الجنسى أو الزواج كما يقولون ، وعادة ما يبحثون عن حل للغز فى صفة عامة تتصل بوظيفة التبول أو التبرز .

فشل نموذجى للبحث الجنسى الطفلى : ويمكن أن نقول عامة إن النظريات الجنسية الطفلية انعكاسات لجبلة الأطفال الجنسية وإنها تشهد — رغم أخطائها الغريبة — على تفهم العمليات الجنسية تفهما أعظم مما ننسبه لواضعيها . فالأطفال يدركون أيضا التغيرات التى تطرأ على أمهاتهن بسبب الحمل ويعرفون كيف يؤولونها تأويلا صحيحاً . وكثيرًا ما تحكى أسطورة اللقلق* على مستمعين يتقبلونها فى ارتياب عميق وإن كان صامتاً فى الغالب . بيد أن ثمة عنصرين يظلان مجهولين من الأبحاث الجنسية الطفلية : دور المنىّ فى الإخصاب ووجود الفتحة الجنسية الأنثوية —

* أسطورة شائعة فى الغرب ، تصور للأطفال لغز الميلاد تصويراً رمزيا . فاللقلق يقبل من قطر بعيد حاملا طفلا معلقاً من لفافاته فى منقار هذا الطائر الضخم . — (المترجم)

وهما نفس النقطتين اللتين يكون فيهما التنظيم الطفلى ناقصاً . لذلك يظل جهد الطفل الباحث غير مثمر عادة وينتهى بالنبذ ، مما يتسبب — فى حالات كثيرة — فى الإضرار بغريزة المعرفة إضراراً باقياً . والبحث الجنسى فى هذه السنوات المبكرة من الطفولة يتم دائماً فى معزل عن الناس ، ويدل على أول خطوة للوقوف من العالم موقفاً مستقلا ويتضمن انفصال الطفل عن أشخاص بيئته انفصالا قوياً بعد أن كانوا يتمتعون من قبل بكامل ثقته .

[٦] مراحل نمو التنظيم الجنسى [٣٧]

أبرزنا حتى الآن من خصائص الحياة الجنسية الطفلية أنها فى جوهرها تعشق ذاتها (أى أنها تجد موضوعها فى الجسم ذاته) وأن غرائزها الجزئية الفردية غير مترابطة فى جملتها ومستقل بعضها عن بعض فى حصولها على اللذة . ونهاية النمو تؤلف ما يعرف بالحياة الجنسية السوية لدى الراشدين حيث يخضع الحصول على اللذة لوظيفة النسل وتكون الغرائز الجزئية تنظيماً متيناً —تحت لواء منطقة شهوية واحدة — موجهاً إلى إدراك هدف جنسى متصل بموضوع جنسى خارجى .

التنظيمات القبل تناسلية : إن دراسة ما يعترى عملية النمو هذه من تعطل واضطراب تمكننا — بمساعدة التحليل النفسى — من التعرف على بدايات مثل هذا التنظيم للغرائز الجزئية ومراحله التمهيدية التى تؤلف بالمثل نظاماً من هذا القبيل . وعادة ما يمر المرء بهذه المراحل من التنظيم الجنسى مروراً سهلا دون أن يحس بوجودها إلا لماماً . فهى لا تنشط وتتبدى للملاحظة العابرة إلا فى الحالات المرضية .

وسوف نسمى تنظيمات الحياة الجنسية التى لا تلعب فيها المناطق التناسلية دوراً بارزاً **بالقبل تناسلية** . وقد عرفنا منها حتى الآن تنظيمين يبدوان وكأنهما عود إلى الأحوال الحيوانية المبكرة .

وأول هذه التنظيمات الجنسية القبل تناسلية هو التنظيم الفمى أو — إن أردنا — الافتراسى . والنشاط الجنسى لا يكون ههنا قد انفصل بعد عن تناول الطعام ، ولا الأضداد قد تفاضلت فيه . وموضوع أحد النشاطين هو موضوع الآخر والهدف

الجنسي ينحصر فى ابتلاع الموضوع – وهو نموذج لعملية التوحد التى سوف تقوم فيما بعد بدور نفسى بالغ الأهمية . وينبهنا علم الأمراض أن من الممكن تبين بقية من هذه المرحلة التنظيمية المفترضة فى مص الأصبع ، حيث يستعاض عن الموضوع الخارجى بموضوع قائم فى جسم الشخص ذاته ، إثر انفصال النشاط الجنسى عن نشاط التغذية(٣٨) .

والمرحلة القبل تناسلية الثانية هى مرحلة التنظيم السادى الشرجى . وههنا يكون قد ظهر التعارض الذى يستمر خلال الحياة الجنسية كلها ، بين تيارين لا يمكن بعد تسميتها بالذكرى والأنثوى بل بالموجب والسالب . والنشاط الإيجابى تستخدمه غريزة السيطرة عن طريق الجهاز العضلى البدنى ، أما العضو الذى يمثل قبل غيره الهدف الجنسى السالب فهو الغشاء المخاطى الشهوى للشرج . ولكل من هذين التيارين موضوعان لا يتطابقان . وبجانب هذين التيارين تعمل غرائز جنسية أخرى على نحو عشق ذاتى . ففى هذه المرحلة يمكن إذن مشاهدة الاستقطاب الجنسى والموضوع الخارجى ، وإن كان التنظيم والخضوع لوظيفة النسل ما يزالان غير موجودين(٣٩) .

ازدواج الميول : وقد تظل هذه الصورة من التنظيم الجنسى باقية طوال الحياة وتجذب إليهما على الدوام جزءاً كبيراً من النشاط الجنسى . وإن غلبة السادية ودور المخرج الذى تقوم به المنطقة الشرجية يصبغانها بصبغة بدائية خاصة . ثم إنها تتميز بأن الأزواج المتضادة من الغرائز قد نمت على أنحاء متقاربة ، وهو موقف يطلق عليه « بلويلر » اسماً وفق فى وضعه هو ازدواج الميول .

ويقوم فرض التنظيمات القبل تناسلية فى الحياة الجنسية على تحليل الأعصبة ، فبدون معرفة بها يكاد يكون من الممتنع تقديرها . ولنا أن نتوقع أن تمدنا الجهود التحليلية المتصلة بمعلومات أشمل عن بناء الوظيفة الجنسية السوية ونموها . ولإكمال صورة الحياة الجنسية الطفلية ، لابد من افتراض أن اختيار الموضوع اختياراً تتميز به مرحلة البلوغ من النمو ، غالباً أو عادة ما يكون قد تم فى سنى الطفولة ، بحيث تتجه التيارات الجنسية جميعها إلى شخص واحد تسعى إلى بلوغ أهدافها بالنسبة إليه . تلك هى إذن أقصى نقطة ممكنة فى الطفولة تقترب فيها الحياة الجنسية من

صورتها النهائية بعد البلوغ . والاختلاف الوحيد عن هذه الأخيرة ينحصر في أن تآلف الغرائز الجزئية وخضوعها لأولوية الأعضاء التناسلية فى الطفولة لا يتم أبداً أو لا يتم إلا على نحو ناقص غاية النقص . ومن ثمة فإن قيام هذه الأولية فى خدمة الإنسال هى آخر مرحلة يمر بها التنظيم الجنسى (٤٠) .

اختيار الموضوع فى زمنين : يمكن اعتبار اختيار الموضوع فى زمنين أو حدوثه على دفعتين حدثاً أمثولياً . وتبدأ الدفعة الأولى مابين السنتين(٤١) والخمس سنوات ثم تتوقف أو تتقهقر إبان فترة الكمون ، وتتميز بأن أهدافها الجنسية طفلية بطبيعتها . وتظهر الثانية فى البلوغ وتحدد الصورة النهائية للحياة الجنسية .

واختيار الموضوع فى زمنين اختياراً يرجع فى جوهره إلى تأثير فترة الكمون ، ذو أهمية قصوى بالنسبة لاضطراب هذا الوضع النهائى . وتتحكم نتائج الاختيار الطفلى فى المراحل التالية . فهى إما أن تبقى كما هى أو تنتعش ثانية فى فترة المراهقة ذاتها . ولكن قد يتضح عدم جدواها نتيجة للكبت الذى يطرأ على النمو ما بين الفترتين . فأهدافها الجنسية قد اعتراها الوهن ، فأصبحت تمثل ما يمكن وصفه بالتيار الوجدانى من الحياة الجنسية . والفحص التحليلى النفسى يستطيع وحده أن يبين أن الميول الجنسية القديمة الخاصة بالغرائز الجزئية الطفلية ، وقد أمست الآن عديمة النفع ، تكمن وراء هذا الحنان والإكبار والتبجيل . ولابد للاختيار الموضوعى فى فترة البلوغ أن ينبذ الموضوعات الطفلية ويبدأ بداية جديدة فى صورة تيار شهوى . وغالباً ما ينتج عن عدم التقاء هذين التيارين أن يمتنع تحقيق أحد المثل العليا فى الحياة الجنسية ألا وهو جمع الرغبات كلها فى موضوع واحد .

[٧] مصادر الجنسية الطفلية

لقد وجدنا حتى الآن ، فى محاولة تتبع أصول الغريزة الجنسية ، أن الإثارة الجنسية تظهر (ا) باعتبارها صورة مستعادة لإشباع ارتبط بعمليات عضوية أخرى ، (ب) عن طريق إثارة المناطق الشهوية إثارة سطحية ملائمة ، و (حـ) بوصفها تعبيراً عن « غرائز » لا نفهمها بعد كل الفهم مثل غريزة النظر وغريزة

القسوة . والفحص التحليلى النفسى الذى يتأدى من فترة لاحقة إلى الطفولة ، ومشاهدة الأطفال مشاهدة مباشرة ، يجمعان على توجيه نظرنا إلى مصادر دائمة أخرى للإثارة الجنسية . ويعيب المشاهدة أنها تتناول موضوعات من السهل أن يساء فهمها ، ووجه الصعوبة فى التحليل النفسى أنه لايستطيع الوصول إلى موضوعاته ونتائجه إلا باتباع منعطفات طويلة . بيد أن المنهجين يحققان — بتعاونهما — درجة مرضية من اليقين فى مجال المعرفة .

وقد وجدنا — إبان فحص المناطق الشهوية — أن هذه المواضع من البشرة لا تبدى إلا ارتفاعاً خاصًّا فى القابلية للاستثارة التى يشترك فيها سطح البشرة برمته إلى حد ما . فلا عجب إذن إن وجدنا أنه يجب أن ننسب إلى أنواع معينة من استثارات البشرة عامة آثارًا شهوية محددة غاية التحديد . ومن هذه الاستثارات المنبهات الحرارية على وجه التخصيص ، وربما ساعدتنا أهميتها فى تفهم التأثير العلاجى للحمامات الدافئة .

أ . **الاستثارات الآلية** : ولا بد لنا أيضا أن نذكر ههنا حدوث الإثارة الجنسية بهز الجسم هزًّا آليًّا إيقاعيًّا . ويمكن أن نميز ثلاث طرق تحدث بها هذه الإثارة : الجهاز الحسى للأعصاب الدهليزية* والبشرة والأجزاء العميقة (العضلات والأبنية المفصلية) . وإن وجود أحاسيس اللذة المتولدة عن هز الجسم هزًّا آليًّا — وجدير بالتوكيد أن من الممكن استخدام « الاستثارة الجنسية » و « الإشباع » بغير تمييز إلى حد بعيد ، وهو ما ينبغى لنا أن نبحث له عن تفسير بعد حين — يؤيده ولع الأطفال بألعاب الحركة السلبية مثل الأرجحة والطير فى الهواء ، وإلحاحهم فى تكرارها بلا انقطاع [٤٢] . والمعروف أن الأرجحة تستخدم عادة فى إنامة الطفل المضطرب . وهزة العربة والسفر بالقطار فيما بعد يحدثان فى الأطفال الأكبر سنًّا أثراً أخاذاً إلى حد أن الأطفال يريدون جميعاً فى فترة على الأقل من فترات حياتهم أن يكونوا سائقى قاطرة أو حوذيين بنحو أو بآخر . وتثير لديهم العمليات المتصلة بالسكة الحديد اهتماماً مبهماً مفرطاً فى شدته ويجعلون منها نواة لرمز جنسى مختار فى فترة

* فى الأذن المتوسطة — (المترجم)

نشاط المخيلة (قبيل المراهقة) . ومن البين أن دافعًا قهريًّا إلى مثل هذا الربط بين السفر بالقطار والجنسية صادر عن طابع اللذة فى أحاسيس الحركة . وإذ ذاك يحل الكبت فيحول كثيرًا من الإيثارات الطفلية إلى ضدها بحيث يستجيب الأشخاص أنفسهم — وهم مراهقون أو راشدون — للهز أو الأرجحة بالغثيان ويرهقهم السفر بالقطار إرهاقاً مخيفًا أو قد يتعرضون إبان الرحلة لنوبات من القلق ويحصنون أنفسهم من تكرار الخبرة المؤلمة **بالقلق من السفر بالقطار** * .

ونورد ههنا واقعة لم تفهم بعد، ألا وهى أن الجمع بين الرعب والهز الآلى يولد عصابًا صدميًّا عنيفًا هستيرى الصورة . ويمكن على الأقل أن نفترض أن هذه المؤثرات — فى درجات شدتها الصغرى — تصبح مصادر للتهييج الجنسى ، فإن هى عملت بقدر مفرط تسببت فى اختلال آلية الجنسية أو كيمائيتها[٤٣] اختلالا عميقًا.

النشاط العضلى : من المعروف أن الطفل يحس حاجة إلى نشاط عضلى وفير وأنه يستمد من إشباعها لذة لا تعدلها لذة . أما أن فى هذه اللذة شيئًا جنسيًّا أو أنها تتضمن ذاتها إشباعاً جنسيًّا أو أنها قد تصبح مناسبة للتهييج الجنسى ، فكل ذلك خاضع للفحص النقدى خضوع الرأى المتضمن فى العرض السابق وهو أن اللذة المستمدة من أحاسيس الحركة السلبية ذات طبيعة جنسية أو مولدة للتهييج الجنسى . ولكن الواقع أن عددًا من الأشخاص يقررون أنهم خبروا أولى علامات التهييج فى أعضائهم التناسلية إبان تخاشنهم أو تصارعهم مع رفاقهم فى اللعب ، وهو موقف يتوفر فيه التصاق كبير ببشرة الغريم فضلا عن الجهد العضلى العام . والميل إلى الالتحام العضلى بشخص معين ، شأنه شأن الميل إلى الالتحام اللفظى إبان السنوات التالية (ف «المرء يشاكس من يحب »)[٤٤] يعد من العلامات الأكيدة على أن هذا

---

* الإشارة هنا إلى تصور التحليل النفسى القلق نذيراً بخطر وشيك الوقوع . وفى هذا يقول فرويد : «يصبح الجهاز النفسى فى حالة من القلق حين يحس بعجزه عن مواجهة مهمة (خطر) يدنو منه من خارج بما يلائمه من أفعال ، ويصبح فريسة لعصاب القلق حين يدرك أنه عاجز عن السيطرة على الاستثارة (الجنسية) التى تنبع عن مصدر داخلى » .

S. Freud : The justification for detaching from neurasthenia a particular syndrome : The anxiety-neurosis (1894). *Collected Papers*, I, p. 101-2.

Hogarth Press, London 1950.

(المترجم)

الشخص وقع عليه الاختيار الموضوعى . ويمكن تبين أن أحد جذور الغريزة السادية تقوم فى تشجيع التهيج الجنسى من طريق النشاط العضلى . والرابطة الطفلية التى تربط لدى كثير من الأفراد بين المخاشنة والتهيج الجنسى من العوامل التى تحدد فيما بعد الاتجاه المفضل عند غريزتهم الجنسية[٤٥] .

العمليات الانفعالية : أما مصادر التهيج الجنسى الأخرى لدى الأطفال ، فأقل عرضة للشك . فمن اليسير أن نثبت عن طريق الملاحظة المعاصرة أو البحث اللاحق ، أن العمليات الانفعالية الشديدة بل المرعب منها تشارك جميعًا فى الجنسية ، مما يساعد على فهم ما تحدثه أمثال هذه الانفعالات من أثر مرضى . فالقلق لدى أطفال المدارس حيال دخول الامتحان أو التوتر المتصل بمهمة صعبة الأداء ، أمر لا يقتصر مغزاه على العلاقة بالمدرسة بل يشمل انطلاقـًا فى المظاهر الجنسية كذلك . فكثيرًا ما يحدث فى مثل هذه الظروف شعور بالتنبيه يدفع بالطفل إلى لمس أعضائه التناسلية أو عملية شبيهة بالاستحلام بكل ما لها من نتائج محيرة . وإن مسلك الأطفال فى المدرسة ، وما يواجهه المعلم فيه من ألغاز عدة ، جدير بأن يربط بالجنسية النامية على وجه العموم . والإثارة الجنسية التى تحدثها انفعالات كثيرة خالية من اللذة فى ذاتها ، مثل القلق والفرق والفزع ، تبقى لدى عدد كبير من الناس طوال حياتهم الراشدة ، مما يفسر أن أشخاصًا كثيرين يسعون إلى مناسبة تتوفر فيها مثل هذه الأحاسيس ، بشرط أن تلطف ملابسات معينة (حدوثها فى عالم الخيال كالقراءة أو المسرح) من جدية إحساس الألم .

فإن فرض أن تأثيرًا شهويًّا مماثلا يصدر عن أحاسيس شديدة الإيلام ، لا سيما إن خفف الألم أو أقصاه شرط إضافى . كان لنا فى هذا الموقف أحد الجذور الأساسية للغريزة السادية المازوخية التى لا نفتأ نحيط بتعقيداتها المتعددة إحاطة تدريجية[٤٦] .

العمل العقلى : ولا ريب أخيرًا أن تركيز الانتباه فى مهمة عقلية والتوتر الفكرى عامة يولد إثارة جنسية مصاحبة له لدى الكثير من الصغار والكبار . ذلك غالبًا هو الأساس الوحيد المقبول لعزو الاضطرابات العصبية عزوًا مشكوكًا فيه إلى « الإفراط فى العمل » الفكرى[٤٧] .

فإن جلنا الآن ببصرنا فى البراهين والقرائن التى سيقت — ناقصة مبتورة — على مصادر التهيج الجنسى الطفلى ، أمكن استشفاف أو تحديد النتائج العامة التالية : يبدو أن أتم الاحتياطات قد اتخذت لتحريك عملية الإثارة الجنسية — وإن كانت طبيعتها قد أصبحت الآن مستغلقة علينا حقًا كل الاستغلاق . واستثارات الأسطح الحساسة — البشرة وأعضاء الحس — هو أول ما يحرك هذه العملية على نحو مباشر متفاوت ، كما يحركها تأثير المنبهات فى بعض المواضع التى تعرف بالمناطق الشهوية تحريكاً مباشراً للغاية . ولاريب أن العنصر الحاسم فى مصادر الاستثارة الجنسية هو كيف المنبهات ، رغم أن عامل الشدة (فى الألم) لا يخلو من أهمية . ولكن ثمة أيضاً تنظيمات فى الكائن العضوى تؤدى إلى ظهور الإثارة الجنسية ، فى عدد كبير من العمليات الداخلية، فى صورة أثر ملازم ، حالما تجاوزت شدة هذه العمليات حدوداً كمية معينة . وما سميناه بالغرائز الجنسية الجزئية إما أن يكون مشتقًا مباشرة من هذه المصادر الداخلية للتهيج الجنسى أو مركباً مما تسهم به مثل هذه المصادر والمناطق الشهوية معاً . ولربما لم يكن حدث مهم فى الكائن العضوى إلا وكان له نصيب فى إثارة الغريزة الجنسية .

ولا يبدو لى أن من الممكن حاليًا زيادة هذه القضايا العامة وضوحاً ويقيناً ، وإنى ألوم فى ذلك عاملين : الأول جدة كل الطرق التى تناولنا بها الموضوع ، والثانى أن طبيعة الاستثارة الجنسية غير معروفة لنا على الإطلاق . ومع ذلك فلست أستطيع التخلى عن ملاحظتين تبشران بفتح آفاق عريضة :

الجبلات الجنسية المنوعة : (ا) فكما رأينا مرة من قبل أن من الممكن اشتقاق كثرة من الجبلات الجنسية الفطرية من اختلاف فى نمو المناطق الشهوية ، فكذلك نستطيع الآن القيام بمحاولة مماثلة بأن ندخل فى اعتبارنا المصادر غير المباشرة للتهيج الجنسى . ولنا أن نفترض أن هذه المصادر تغذى الأفراد جميعاً ولكن هذه التغذية لا تكون بنفس القوة لدى جميع الأشخاص وأن نمو المصادر الفردية للتهيج الجنسى نموًا متفاوتاً يمدنا بعون إضافى فى تمييز الجبلات الجنسية المختلفة[٤٨] .

طرق التأثير المتبادل : (ب) إن تخلينا عن المجاز الذى أخذنا به طويلا فى كلامنا عن « مصادر » الإثارة الجنسية ، أمكننا الوصول إلى افتراض أن كل الطرق

الموصلة التى تتأدى من الوظائف الأخرى إلى الجنسية لا بد أن تعبر فى اتجاه عكسى أيضاً . فإن اشتركت وظيفتان مثلا فى السيطرة على منطقة الشفاه ، وكان ذلك أساساً لظهور الإشباع الجنسى إبان التغذية ، ساعدنا نفس العامل على فهم اضطرابات التغذية أيضاً ، إن اختلت الوظائف الشهوية للمنطقة المشتركة . ثم إننا نعرف أن تركيز الانتباه قد يولد الإثارة الجنسية بحيث يبدو لنا من المقبول افتراض أن حالة الإثارة الجنسية قد تؤثر فى إمكان توجيه الانتباه ، مستخدمة نفس الطريق ولكن فى اتجاه مضاد . وإن جزءاً كبيراً من أعراض الأعصبة التى أرجعتها إلى اضطرابات فى العمليات الجنسية تتبدى فى اضطرابات جسمية أخرى غير جنسية . وهذا التأثير الذى ظل غير مفهوم حتى الآن يصبح أقل إلغازاً إن كان هو الجزء المقابل للمؤثرات التى تتسبب فى حدوث الإثارة الجنسية .

بيد أن نفس الطرق التى تنتقل بها الاضطرابات الجنسية إلى الوظائف الجسمية الأخرى تؤدى حتماً وظيفة هامة أخرى فى حالة الصحة . فلا بد أنها تقوم بجذب القوى الغرزية الجنسية إلى أهداف أخرى غير الأهداف الجنسية أى إلى التسامى بالجنسية . ولا بد أن نختتم الموضوع بالاعتراف بأننا لا نعرف بعدُ يقيناً عن هذه الطرق إلا النزر اليسير وإن كان وجودها مؤكداً ومن الممكن عبورها فى كلا الاتجاهين .

المقالة الثالثة

استحالات البلوغ

بحلول البلوغ تظهر تغيرات يتعين عليها أن تمضى بالحياة الجنسية الطفلية إلى صورتها السوية النهائية . وقد كانت الغريزة الجنسية حتى الآن — فى غالبيتها — عشقية ذاتية : وهى تقع الآن على موضوع جنسى . وكان نشاطها — إلى هذه الآونة — صادراً عن غرائز ومناطق شهوية متفرقة تسعى — مستقلا بعضها عن بعض — إلى لذة ما ، باعتبارها الهدف الجنسى الوحيد . ويظهر الآن هدف جنسى جديد ، تتضافر الغرائز الجزئية جميعا على إدراكه ، بينما تخضع المناطق الشهوية لأولوية المنطقة التناسلية[1] . ولما كان الهدف الجنسى الجديد يحدد لكل من الجنسين وظائف مختلفة غاية الاختلاف ، اتسعت الشقة الآن بين نموهما الجنسى اتساعاً عظيماً . ونمو الذكور أكثر استقامة وأقرب إلى فهمنا بينما يتبدى لدى النساء ضرب من الانكماش فى النمو . ولا تكون الحياة الجنسية السوية إلا بتقارب التيارين — الوجدانى والحسى — الموجهين إلى الموضوع الجنسى والهدف الجنسى تقارباً دقيقاً ، ويتضمن التيار الأول ما تبقى من ازدهار الجنسية الطفلى[2] . والأمر أشبه بنفق يحفر من جانبين .

وينحصر الهدف الجنسى الجديد لدى الرجال فى تصريف المنتجات الجنسية ، وهو ليس غريباً قط عن هدف إدراك اللذة السابق ، فأعلى درجات اللذة ترتبط بالأحرى بالفعل النهائى للعملية الجنسية . وتصبح الغريزة الجنسية الآن فى خدمة وظيفة النسل ، فتكون إيثارية إن جاز التعبير . فإن نجح هذا التحول ، فلا بد أن نحسب للاستعدادات الأصيلة ومميزات الغرائز حسابها ضمن العملية .

وكما هى الحال فى أية مناسبة أخرى يتعين فيها قيام روابط ومركبات جديدة — داخل الكائن العضوى — تؤدى إلى حيل معقدة ، فإن توقف هذه النظم الجديدة

يهيئ للاضطرابات العصبية فرصة الظهور هنا أيضاً . والاضطرابات المرضية التى تطرأ على الحياة الجنسية تعتبر كلها بحق أضرباً من الكف فى النمو .

[١] أولوية المناطق التناسلية واللذة التمهيدية

إن بداية عملية النمو المذكورة وهدفها النهائى يبدوان بوضوح للعيان . أما الدرجات المتوسطة منها فما زالت غامضة علينا من نواح عدة ، ولا بد أن ندع كثيراً منها لغزاً لا حل له .

وقد اخترت من عمليات البلوغ أبرزها باعتبارها ما يؤلف جوهره ، ألا وهو النمو الظاهر للأعضاء التناسلية نمواً يتوقف نسبياً إبان فترة الكمون من الطفولة . وفى الآن نفسه يمضى نمو الأعضاء التناسلية الداخلية قُدُماً بحيث تبيت قادرة على تفريغ المنتجات الجنسية أو — إذا اقتضى الحال — على تشكيل كائن حى جديد . وهكذا فإن جهازاً معقداً غاية التعقيد يصبح على أهبة الاستعداد ويترقب تشغيله .

والمنبهات هى التى تحرك هذا الجهاز . وتدلنا المشاهدة على أن المنبهات تقع عليه من طرق ثلاثة : من العالم الخارجى بطريق استثارة المناطق الشهوية المألوفة ، ومن الباطن العضوى بطرق ما زال يتعين ارتيادها ، ومن الحياة النفسية وهى ذاتها مستودع للانطباعات الخارجية ومحطة استقبال للاستثارات الداخلية . ويتولد عن هذه الطرق الثلاث كلها نفس الحال الذى يوصف « بالتهيج الجنسى » وينم عن ذاته بنوعين من العلامات النفسية والجسمية . وتتألف العلامات النفسية من شعور خاص بالتوتر ذى طابع ملزم غاية الإلزام ، ومن بين العلامات الجسمية نجد فى المحل الأول عدداً من التغيرات فى الأعضاء التناسلية تدل دلالة لاريب فيها على التهيؤ أو الاستعداد للفعل الجنسى (انتصاب العضو الذكر وتندى الفرج) .

التوتر الجنسى : وانطباع الإثارة الجنسية بطابع التوتر يثير إشكالا حله صعب بقدر ما هو هام لفهم العمليات الجنسية . ولا بد لى أن أتمسك بأن شعور التوتر ينطوى حتماً على طابع الألم ، رغم كل اختلافات الرأى السائدة فى علم النفس بصدد هذا الموضوع . والأمر القاطع فى رأيى هو أن مثل هذا الشعور يأتى ومعه دافع إلى

تغيير الموقف النفسى وأنه يعمل بإلحاح لا يمت بصلة إلى طبيعة اللذة المحسة . ولكن إن عد توتر التهيج الجنسى شعورًا بالألم واجهنا واقعة هى أنه موضع شعور باللذة لا ريب فيه . وحيثما يتولد التوتر عن العمليات الجنسية فهو يكون مصحوبًا باللذة ، بل من الجلى أن التغيرات التمهيدية التى تحل بالأعضاء التناسلية هى من قبيل شعور الإشباع . فكيف نوفق إذن بين هذا التوتر المؤلم وشعور اللذة هذا ؟

إن كل ما يتعلق بمشكلة اللذة والألم يمس أوهن المواضع من علم النفس المعاصر . ونحن نسعى لأن نتعلم أقصى ما نستطيع من شروط الحالة المعروضة متجنبين تناول المشكلة فى شمولها[٣] .

فلنلق بادئ ذى بدء نظرة على النحو الذى تنتظم به المناطق الشهوية فى التنظيم الجديد ، فعليها يقع عبء القيام بدور هام فى الإعداد للاستثارة الجنسية . وربما كانت العين أبعد المناطق عن الموضوع الجنسى ولكنها — فى موقف تعشق الموضوع — أكثر ما تكون استثارة بكيفية خاصة من الاستثارة نصف علتها بالجمال حين تتمثل فى موضوع جنسى . وللسبب ذاته توصف مزايا الموضوع الجنسى بأنها « فتن » (Reize) [٤] . وهذه الاستثارة مرتبطة باللذة من ناحية بينما تفضى من ناحية أخرى — حيث ما تزال مفتقدة — إلى زيادة التهيج الجنسى أو تأججه . فإن امتدت الاستثارة الجنسية إلى منطقة شهوية أخرى ، مثل اليد فى لمسها ، ظل الأثر واحداً: من ناحية شعور باللذة سرعان مايشتد نتيجة للذة الناشئة عن التغيرات التمهيدية ، ومن ناحية أخرى زيادة فى التوتر الجنسى الذى يستحيل سريعًا — إن لم يتح لمزيد من اللذة الانتقال إليه — إلى ألم واضح غاية الوضوح . ولربما كان الأمر أبين فى حالة أخرى إذا أصبحت مثلا منطقة شهوية لدى شخص غير مهتاج جنسيًا (كبشرة صدر المرأة) موضع تنبيه لمسى . فهذا اللمس يولد شعورًا باللذة ولكنه فى الآن نفسه يفوق ما عداه من حيث إيقاظ الاستثارة الجنسية التى تتطلب مزيدًا من اللذة . والمشكلة هى كيف أن اللذة المحسة تولد حاجة إلى لذة أعظم .

حيلة اللذة التمهيدية : بيد أن الدور المخصص فى ذلك للمناطق الشهوية واضح جلى . وما يصدق على إحداها يصدق عليها جميعاً . فهى تستخدم جميعاً فى توفير قدر من اللذة بأن تستثار على النحو الملائم استثارة تؤدى إلى زيادة التوتر .

وهذا التوتر مسئول بدوره عن توليد الطاقة الحركية الضرورية للمضى بالفعل الجنسى إلى منتهاه . والمرحلة قبل الأخيرة فيه هى تنبيه منطقة شهوية تنبيهاً مناسباً ألا وهى المنطقة التناسلية ذاتها فى حشفة القضيب . ويكون ذلك عن طريق موضوع مناسب هو الغشاء المخاطى من الفرج . وتتولد الطاقة الحركية عن اللذة التى يوفرها هذا التهيج تولداً يتم فى صورة فعل منعكس يفضى إلى تفريغ المواد الجنسية . وهذه اللذة الأخيرة هى أعلى اللذات من حيث الشدة كما أنها تختلف فى حيلتها عن حيل اللذة المبكرة . فهى تنتج برمتها عن التفريغ وكلها لذة إشباع ينطفئ معها توتر اللبيدو إلى وقت ما .

ويبدو لنا أن من الصواب تثبيت هذا الاختلاف بين نوع من اللذة مرجعه إلى استثارة المناطق الشهوية ونوع آخر مرده إلى تفريغ المواد الجنسية ، بتسميتهما تسمية مختلفة. ويمكن وصف الأولى وصفاً ملائماً بأنها لذة تمهيدية مقابل اللذة النهائية أو لذة إشباع الفعل الجنسى. ومن ثمة فإن اللذة التمهيدية هى ذاتها المتولدة عن الغريزة الجنسية الطفلية وإن كان تولدها فى نطاق أضيق. أما اللذة النهائية فجديدة ، فهى من ثمة رهن على الأرجح بأحوال تظهر أولا فى البلوغ . فصيغة الوظائف الجديدة للمناطق الشهوية تكون إذن كالآتى : فهى تستخدم لكى تجعل من الممكن تحقيق لذة إشباع أعظم عن طريق اللذة التمهيدية المستمدة منها كما فى الحياة الطفلية .

وقد استطعت أخيراً توضيح مثال آخر مستمد من مجال مختلف كل الاختلاف من مجالات الحياة النفسية ، وفيه بالمثل يتمكن شعور خفيف باللذة من بلوغ لذة نهائية أعظم ، بحيث يعمل عمل العلاوة المشجعة ، وهناك توفرت الفرصة أيضاً للخوض فى طبيعة اللذة[٥].

مخاطر اللذة التمهيدية : ومما يؤيد ارتباط اللذة التمهيدية بالحياة الجنسية الطفلية ، الدور المرضى الذى قد تقوم به . فمن الجلى أن بلوغ الهدف الجنسى السوى تتهدده الحيلة التى تتدخل بها اللذة التمهيدية متى كانت اللذة التمهيدية للعمليات الجنسية — عند نقطة ما — مفرطة فى الكبر وعنصر التوتر مفرطاً فى الصغر. وإذ ذاك يختفى الحافز إلى مواصلة العملية الجنسية وينقطع الطريق بأسره ويحل هذا الفعل التمهيدى المذكور محل الهدف الجنسى السوى . وقد دلت التجربة على أن الشرط الأول لهذا الحدث الضار هو أن المنطقة الشهوية المختصة أو الغريزة الجزئية المقابلة لها قد

أسهمت إبان الطفولة بقدر غير عادى من اللذة . فإن تدخلت عوامل أخرى تعمل على التثبيت ، بات من السهل أن ينشأ فى متأخر الحياة دافع قهرى يعارض إدماج هذه اللذة التمهيدية فى سياق جديد . تلك هى فى الواقع حيلة الكثير من الانحرافات التى تنحصر فى التوقف عند الأفعال التمهيدية للعملية الجنسية .

ويمكن تجنب الفشل الذى تمنى به الحيلة الجنسية فى وظيفتها من جراء اللذة التمهيدية أفضل تجنب إن رسمت لأولية الأعضاء التناسلية معالمها فى الطفولة أيضًا . والواقع أن الأمور تبدو وكأنها مرتبة لهذا فى النصف الثانى من الطفولة (من السنة الثامنة حتى المراهقة) . ففى خلال هذه السنين تسلك المناطق التناسلية على نحو ما تسلك فى فترة النضج ، فتصبح محلا لأحاسيس التهيج والتغيرات التمهيدية كلما حدث إحساس باللذة ناشئ عن إشباع مناطق شهوية أخرى ، رغم بقاء هذا التأثير بغير غاية — أى أنه لا يسهم بشىء فى اتصال العملية الجنسية . فثمة إذن فى سنى الطفولة قدر معين من التوتر الجنسى — بجانب لذة الإشباع — وإن كان أقل ثباتاً وكمًّا . وفى طوعنا الآن أن نفهم لم كنا محقين فى قولنا — إبان مناقشتنا مصادر الجنسية — إن عملية معينة تجلب الإشباع أو التهيج الجنسى على حد سواء . ونلاحظ — فى سياق بحثنا — أننا قد ضخمنا أولا الفروق بين الحياة الجنسية الطفلية والناضجة وها نحن الآن نلحق التصويب . فالمظاهر الجنسية الطفلية لا تحدد الانحرافات عن الحياة الجنسية السوية فحسب بل صورتها السوية كذلك .

[٢] مشكلة الاستثارة الجنسية

ما زلنا نجهل تماماً من أين يأتى التوتر الجنسى الذى يتولد فى الآن نفسه مع اللذة عند إشباع المناطق الشهوية وما هى طبيعته . وأقرب الافتراضات — وهو أن هذا التوتر ينشأ على نحو ما عن اللذة ذاتها — ليس بعيد الاحتمال فى ذاته للغاية فحسب بل إنه ليتهاوى أيضًا فى حالة أعظم اللذات المتولدة عن تفريغ المواد الجنسية حيث لا ينشأ أى توتر وإنما ينزاح كل توتر. ومن ثمة فلا يمكن الربط بين اللذة والتوتر الجنسى إلا بشكل غير مباشر(٦) .

دور المواد الجنسية : وفضلا عن أن تفريغ المواد الجنسية ينهى عادة التهيج

الجنسى فثمة نقط أخرى يلتقى فيها التوتر الجنسى والمواد الجنسية . ففى حالة من يحيا حياة العفة ، يفرغ الجهاز الجنسى المواد الجنسية ليلا على فترات متفاوتة لاتخلو من نظام تفريغاً مصحوباً بشعور اللذة إبان حلم يهلوس فيه الفعل الجنسى . ومن العسير بالنسبة لهذه العملية — الإستحلام — ألا نخلص بأن التوتر الجنسى الذى ينجح فى استخدام طريق الهلواس المختصر بديلا عن الفعل ذاته ، هو وظيفة لتراكم المنى فى الحويصلات المخصصة للمبتجات الجنسية . وتعضد نفس الرأى خبراتنا المتعلقة بقابلية الحيلة الجنسية للاستهلاك . فإن نفد المدخر من المنى امتنع أداء الفعل الجنسى بل توقفت قابلية المناطق الشهوية للتنبيه أيضًا ، فلا تولد استثارتها بما يلائمها أية لذة . وهكذا نتعلم عرضًا أن قابلية المناطق الشهوية للتهيج تتطلب قدراً معينًا من التوتر الجنسى .

وهكذا ننساق إلى فرض منتشر — إن لم أخطئ — بعض الانتشار وهو أن تراكم المواد الجنسية يخلق التوتر الجنسى ويستبقيه ، ولربما كان ضغط هذه المواد على جدران الحويصلات التى تحويها يعمل عمل المنبه فى المركز النخاعى ، وهى حالة تدركها المراكز الأعلى فتولد إذ ذاك بالنسبة للشعور ذلك الإحساس الأليف بالتوتر . فإن أدت استثارة المناطق الشهوية إلى زيادة التوتر الجنسى ، فهو ما لا يمكن حدوثه إلا بافتراض أن المناطق المذكورة على صلة تشريحية سابقة بهذه المراكز وأنها تزيد التهيج فيها . فإن كان التوتر الجنسى كافياً دفعت إلى الفعل الجنسى الحركى ، وإن لم يكن كافياً حثت على إنتاج المواد الجنسية[٧] .

ويرجع ضعف هذه النظرية التى نجدها مأخوذاً بها مثلا فى تصور « كرافت — إيبنج » (Kraft-Ebing) العمليات الجنسية ، إلى أنها قد وضعت لتفسير النشاط الجنسى لدى البالغين من الذكور ، فهى لا تحسب إلا قليلا حساب ثلاثة أنواع من الأحوال عليها أن تفسرها بالمثل . تلك هى أحوال الأطفال والنساء والذكور المخصيين . فلا محل فى أى من هذه الحالات الثلاث لتراكم المواد الجنسية بالمعنى الذى تتراكم به لدى الذكور ، مما يجعل من العسير تطبيق النظرية تطبيقاً سلساً . ولكن فلنعترف لتونا أن من الممكن أن نجد وسيلة تجعلها تنطبق على هذه الحالات أيضاً . وعلى أية حال فلنحذر من تحميل عامل تراكم المواد الجنسية أكثر مما يحتمل .

أهمية الأعضاء الجنسية الداخلية : يبدو أن المشاهدات التى أجريت على الذكور المخصيين تدل على أن من الممكن أن يحدث التهيج الجنسى إلى حد كبير مستقلا عن إنتاج المواد الجنسية وأن عملية الخصاء تخفق لديهم بين الفينة والفينة فى تقييد الليبدو رغم أن مثل هذا التقييد هو الدافع إلى العملية ونتيجتها المعتادة . وبالإضافة إلى ذلك فالمعروف منذ أمد بعيد أن الأمراض التى تقضى على إنتاج الخلايا الجنسية الذكرية ، تترك المريض — وقد غدا عقيماً — سليماً من حيث الليبدو والقدرة الجنسية[٨] . فلا مدعاة للعجب ، كما يتصور « ريجر » (Rieger) [١٩٠٠] ، ألا يؤثر فقدان الغدد الجنسية الذكرية لدى الفرد البالغ فى سلوكه النفسى أى تأثير آخر[٩] . والحق أن الخصاء يقترب فى آثاره مما يستهدفه من طمس الخصائص الجنسية إذا تم فى سن مبكرة قبل البلوغ ، ولكن قد تكون المسألة هنا أيضًا — بالإضافة إلى فقدان الغدد الجنسية فقداناً فعليًّا — مسألة تعطل فى نمو العوامل الأخرى تعطلا متصلا بذلك الفقدان .

النظرية الكيمائية : ألقت أخيراً أبحاث إزالة الغدد الجنسية (الخصيتين والمبيضين) لدى الحيوان وتطعيم الحيوانات الفقرية بمثل هذه الأعضاء الجديدة من الجنس الآخر[١٠] ، ضوءاً جزئيًّا على أصل الاستثارة الجنسية وأمعنت فى الآن ذاته فى التقليل من أهمية احتمال تراكم المنتجات الجنسية الخلوية. فقد أصبح من الممكن تجريبيًّا (ا. شتاينباخ) (E. Steinbach) تغيير الذكر إلى أنثى والأنثى إلى ذكر ، وبذلك يتغير المسلك الجنسى النفسى لدى الحيوان وفقًا للسمات الجنسية الجسمية وفى الوقت نفسه الذى تتغير فيه . بيد أن هذا التأثير المحدد للجنس لا يرتد إلى جزء الغدد الجنسية الذى يولد خلايا الجنس النوعية (الحيوان المنوى والبويضة) بل إلى النسيج البيخلوى ، ولهذا السبب جعل منه المؤلفون « غدة البلوغ » . ومن الجائز حقًّا أن تظهر الأبحاث اللاحقة أن غدة البلوغ خنثوية الاستعداد ، وبذلك ترسى نظرية الجنسية الثنائية لدى الحيوانات العليا على أساس تشريحى . وقد بات من المرجح أن غدة البلوغ ليست العضو الوحيد المختص بالاستثارة الجنسية والسمات الجنسية . وعلى أى حال فإن هذا الكشف البيولوجى الجديد يتمشى وما نعرف عن الدور الذى تؤديه الغدة الدرقية فى الجنسية . فلنا أن نعتقد إذن أن المواد الكيمائية

الخاصة تتولد فى الجزء البيخلوى من الغدد الجنسية فيحملها تيار الدم فتتسبب فى شحن أجزاء معينة من الجهاز العصبى المركزى بالتوتر الجنسى . ونحن نعرف أنه إذا دخلت الجسم من خارج مواد سامة أخرى فقد تجعل من حالة التسمم منبهاً لعضو معين . أما كيف ينشأ التهيج الجنسى عن تنبيه المناطق الشهوية حين يكون الجهاز المركزى مشحوناً من قبل وما التفاعلات التى تحدث إبان هذه العمليات الجنسية بين آثار المنبهات التسممية الخاصة والفسيولوجية ، فمسألة لا سبيل إلى تناولها فى الوقت الحاضر ولو تناولا افتراضياً. وحسبنا التمسك بالجوهر من هذا التصور فى العمليات الجنسية ، ألا وهو فرض تولد مواد معينة عن الأيض الجنسى [١١] . فهذا الافتراض التعسفى فى ظاهره يؤيده رأى يحظى باعتبار ضئيل وإن كان قميناً بأقصى اعتبار . فالأعصبة التى ترجع إلى اضطرابات الحياة الجنسية وحدها تبدى أعظم الشبه — من الناحية الإكلينيكية — بظواهر التسمم والتبتل التى تنشأ عن تعاطى السموم المولدة للذة (القلويات) .

[٣] نظرية اللبيدو

إن ثمة اتفاقاً حسناً بين التصورات التى استعنا بها فى تناول الظواهر النفسية للحياة الجنسية وهذه الفروض فى الأساس الكيمائى للتهيج الجنسى . وقد وضعنا مفهوم اللبيدو باعتباره قوة متغيرة كمياً يمكن أن تقيس مايحدث فى مجال الاستثارة الجنسية من عمليات وتغيرات . ونحن نميز هذا اللبيدو — من حيث أصله الخاص — عن الطاقة التى لا بد من افتراضها وراء العمليات النفسية عامة ، ومن ثمة فنحن ننسب إليه أيضاً طابعاً كيفياً. وفى التمييز بين طاقة لبيدية وأخرى نفسية نعبر عن مسلمة تقول إن العمليات الجنسية فى الكائن العضوى تختلف عن العمليات الغذائية بكيمياء خاصة . وقد بين لنا تحليل الانحرافات والأعصبة النفسية أن هذا التهيج الجنسى لا يصدر عما يسمى بالأعضاء التناسلية وحدها بل عن أعضاء الجسم كلها . ومن ثمة نتأدى إلى تصور كم لبيدى نسمى تصوره النفسى بلبيدو الأنا ، وإن تولده وزيادته أو نقصانه وتوزعه وتنقله ليمدنا بإمكانيات تفسير ما نشاهد من ظواهر جنسية نفسية .

بيد أن لبيدو الأنا هذا لا يخضع بسهولة للدراسة التحليلية إلا متى استخدم فى شحن الموضوعات الجنسية ، فأصبح لبيدو الموضوع ، وإذ ذاك نراه مركزًا فى موضوعات [١٣] . ثابتًا عليها أو تاركًا إياها ، متنقلا من موضوع إلى آخر ، فيوجه — من هذه المراكز التى يشغلها — نشاط الفرد الجنسى الذى يفضى إلى الإشباع أى إلى انطفاء اللبيدو انطفاء جزئيًا مؤقتًا . ويمدنا التحليل النفسى لما يسمى بأعصبة التحويل (الهستيريا والعصاب القهرى) بحدس واضح فى هذا الموضع .

ويمكننا أن نتبين مما يصير إليه لبيدو الموضوع أنه ينسحب من الموضوعات فيظل معلقًا فى أحوال خاصة من التوتر ويرتد فى النهاية إلى الأنا بحيث يستحيل ثانية إلى لبيدو الأنا . وعلى الضد من لبيدو الموضوع نسمى كذلك لبيدو الأنا باللبيدو النرجسى . ويمكننا التحليل النفسى من التطلع — عبر حد لا يتاح لنا تجاوزه — إلى أضرب نشاط اللبيدو النرجسى وتكوين فكرة عن العلاقة بينهما [١٤] . ويبدو لنا اللبيدو النرجسى أو لبيدو الأنا وكأنه المستودع الكبير الذى تنبعث عنه الشحنات الموضوعية وترتد إليه ثانية ، والشحنة اللبيدية النرجسية للأنا وكأنها الحالة الأصيلة التى تتحقق فى الطفولة الأولى وتغطيها الدفعات المتأخرة من اللبيدو برغم بقائها فى جوهرها وراءها .

وإن مهمة نظرية اللبيدو فى الاضطرابات العصابية والذهانية لا بد أن تكون التعبير عن كل الظواهر المشاهدة والعمليات المستنبطة بلغة اقتصاديات اللبيدو . ومن اليسير أن نتبين أن مصائر لبيدو الأنا تقوم بالدور الأكبر فيها لا سيما إن كانت المسألة هى تفسير الاضطرابات الذهانية الأعمق غورًا . والصعوبة تقوم إذ ذاك فى أن أداة بحثنا ، أى التحليل النفسى ، يمدنا حاليًا بمعلومات أكيدة عن استحالات لبيدو الموضوع . فحسب [١٥] ولكنه عاجز عن التمييز مباشرة بين لبيدو الأنا والطاقات الأخرى التى تعتمل فى الأنا [١٦] . فليس يمكن الاستمرار حاليًا [١٧] فى نظرية اللبيدو إلا عن طريق النظر . ولكنا نضحى بكل ما كسبناه حتى الآن من المشاهدة التحليلية النفسية إن اقتفينا أثر « ك . ج . يونج » (C. G. Jung) فطمسنا معالم مفهوم اللبيدو ذاته بأن عادلنا بينه وبين مفهوم القوة الغرزية النفسية عامة .

وإن تمييز الدوافع الغرزية الجنسية عما عداها وما يستتبعه من قصور مفهوم

الليبدو على الأولى، يجد تعضيداً قوياً فى الفرض الذى سبقت مناقشته والذى ينص على وجود كيمياء خاصة بالوظيفة الجنسية .

[٤] تفاضل الرجل والمرأة

من المعروف أن التمييز القاطع بين سمات الذكورة والأنوثة لا يتم إلا فى البلوغ ، وهو تضاد يؤثر تأثيراً حاسماً – كما لا يؤثر غيره – فى تشكيل الحياة الإنسانية فيما بعد . والحق أن من اليسير التعرف على الاستعدادات الذكرية والأنثوية فى الطفولة. وإن أنواع الكف الجنسى (الحياء والاشمئزاز والشفقة إلخ) لتنمو لدى صغار البنات قبل نموها لدى الصبية كما إنها تواجه لديهن مقاومة أقل ؛ ويبدو أن الميل إلى الكبت الجنسى أعظم على وجه العموم ، فإن ظهرت الغرائز الجنسية الجزئية آثرت اتخاذ صورة سلبية . بيد أن النشاط العشقى الذاتى فى المناطق الشهوية واحد لدى الجنسين وهذه الوحدة تمنع إمكان الفصل فى الطفولة بين الجنسين على نحو ما يظهر بعد المراهقة . فإن اعتبرنا المظاهر الجنسية العشقية الذاتية والاستمنائية أمكننا أن نؤكد أن الجنسية لدى صغار البنات ذات طابع ذكرى شامل . حقاً ، لو استطعنا أن نعطى مفهومى «الذكرى والأنثوى » مضموناً أكثر تحديداً لأمكن الجزم بأن الليبدو ذو طبيعة ذكرية دائماً حتماً ، سواء كان لدى الرجال أو النساء وبغض النظر عن كون موضوعه رجل أم امرأة[١٨] .

ومنذ عرفت[١٩] وجهة نظر الجنسية الثنائية اعتبرتها العامل الحاسم . فما لم نحسب للجنسية الثنائية حسابها امتنع التأدى إلى فهم المظاهر الجنسية التى تشاهد بالفعل لدى الرجل والمرأة .

مناطق السبق لدى الرجل والمرأة : وليس لدى ما أضيفه إلى ما تقدم إلا ما يلى : إن المنطقة الشهوية السباقة لدى الإناث من الأطفال مركزة فى البظر ، فهى من ثمة مناظرة للمنطقة التناسلية الذكرية فى حشفة القضيب . وكل ما خبرته من الاستمناء لدى صغار البنات متصل بالبظر لا بأجزاء الأعضاء التناسلية الخارجية التى تصبح ذات أهمية للوظيفة الجنسية المتأخرة . بل إنى لأتشكك فيما إذا استطاعت طفلة أن تنساق – بتأثير التغرير – إلى شىء غير الاستمناء البظرى ،

وإلا فهو حدث استثنائى كلية . ويتخذ التصريف التلقائى للتهيج الجنسى ، الذى كثيراً ما يحدث لدى صغار البنات ، شكل تقلصات فى البظر ، وانتصابات ذلك العضو المتكررة تتيح للبنات الحكم على المظاهر الجنسية للجنس الآخر حكماً مصيباً من غير ما تعلم ، فهن يقتصرن على تحويل الصبية إلى ما يحسنه من أحاسيس مستمدة من العمليات الجنسية التى تحدث لديهن .

فإن أردنا فهم كيف تصبح البنت الصغيرة امرأة فلا بد من تتبع ما تصير إليه قابلية البظر للتهيج هذه . وإن كان البلوغ يطفر بالليبدو لدى الصبية طفرة كبرى إلا أنه يتميز لدى البنات بموجة جديدة من الكبت تخص البظر مباشرة . وبذلك يقع الكبت على جزء من الحياة الجنسية الذكرية . وهذا الكبت الذى يحدث فى البلوغ لدى المرأة ويتسبب فى تدعيم العقبات الجنسية يصبح إذ ذاك منبهاً لليبدو لدى الرجال ويقسره على رفع مستوى نشاطه . وتصحب رفع مستوى الليبدو مبالغة فى التقويم الجنسى لا تتبدى بكامل قوتها إلا بالنسبة لامرأة تتمنع وتنفى الجنسية عن نفسها . ويظل البظر محتفظاً بدوره فى نقل التهيج إلى الأعضاء الأنثوية المجاورة حين يباح فى النهاية الفعل الجنسى ويهتاج البظر ذاته ، على نحو ما تستخدم نشارة خشب الصنوبر لإشعال النار فى كتلة من خشب أصلب . ولا بد عادة — قبل حدوث هذا التحويل — من انقضاء فترة تكون فيها المرأة الشابة مفتقدة الحس. وقد يدوم فقدان الحس هذا إن أبت منطقة البظر التخلى عن قابليتها للتهيج ، وهو حدث يمهدله شدة نشاط هذه المنطقة فى الطفولة . ومن المعروف أن فقدان الحس لدى النساء ظاهرى وموضعى فحسب . فهن يفتقدن الحس عند فتحة الفرج ولكنهن قابلات للاستثارة فى البظر بل فى مناطق أخرى . ويجب أن نضيف إلى هذه الدوافع الشهوية لفقدان الحس الدوافع النفسية التى تخضع للكبت أيضاً . فإذا ما نجح تحويل قابلية التنبيه من البظر إلى فتحة الفرج ، تكون المرأة قد غيرت منطقتها السباقة من أجل النشاط الجنسى اللاحق ، على حين يستبقى الرجل منطقته منذ الطفولة بدون تغيير . ويؤلف هذا التغيير للمنطقة السباقة وموجة الكبت عند البلوغ — وفيها أيضاً تطرح الذكورة الطفلية جانباً — الشروط الرئيسية لتفضيل النساء العصاب ولا سيما الهستيريا . فهذه الشروط إذن وثيقة الصلة بجوهر الأنوثة[٢٠] .

[٥] العثور على موضوع

بينما ترسى عمليات المراهقة أولوية المنطقة التناسلية ويشير قضيب الرجل بإصرار – وقد أصبح قادرًا على الانتصاب – إلى الهدف الجنسى الجديد وهو الدخول فى تجويف من الجسم يستثير منطقة شهوية ، يتم العثور على الموضوع من الناحية النفسية عثورًا أعدت له العدة منذ الطفولة المبكرة . ولما كان الإشباع الجنسى فى أولى بداياته مرتبطًا بالتغذية ، كان للغريزة الجنسية موضوع خارج الجسم ذاته فى ثدى الأم . والغريزة لاتفقده إلا فيما بعد ، ربما حين يتمكن الطفل من تكوين فكرة شاملة عن الشخص صاحب العضو الذى يوفر له الإشباع . وإذ ذاك تصبح الغريزة الجنسية عشقية ذاتية بوجه عام ، ولا تستعاد العلاقة الأصيلة إلا بعد عبور فترة الكمون . فثمة أسباب وجيهة تجعل من رضع الطفل ثدى أمه نموذجًا لكل علاقة حب . والعثور على الموضوع استعادة له فى الواقع [٢١] .

الموضوع الجنسى فى زمن الرضاعة : بيد أن جزءاً هامًّا من هذه العلاقة الجنسية التى هى أولى العلاقات وأهمها جميعاً يظل باقيًا إثر انفصال النشاط الجنسى عن التغذية ، فيعمل على التمهيد لاختيار الموضوع ومن ثمة على استعادة سعادة فقدت . ويتعلم الطفل – إبان فترة الكمون بأسرها – حب الأشخاص الآخرين الذين يمدون إليه يد العون فى عجزه ويشبعون حاجاته ، على مثال علاقته بأمه رضيعًا واستمرارًا لها . وربما كان ثمة إعراض عن التوحيد بين ما يشعر به الطفل من حب وتقدير لمن يعنى به وبين الحب الجنسى ، إلا أنى أعتقد أن فحصًا نفسيًّا أكثر دقة يمكننا من توكيد هذه الوحدة توكيداً لا يتطرق إليه الشك . فعلاقة الطفل بالشخص الذى يعنى به مصدر لا ينضب – بالنسبة إليه – من الاستثارة والإشباع الجنسيين فى المناطق الشهوية ، لا سيما أن هذا الشخص – وهو الأم عادة – ينظر إلى الطفل ذاته بمشاعر نابعة عن حياته الجنسية ، فهو يدلله ويقبله ويهزه ويعامله بوضوح وكأنه بديل عن موضوع جنسى كامل [٢٢] . ولربما ذعرت الأم إن بينا لها أنها توقظ الغريزة الجنسية لدى طفلها بما تبديه من ملاطفات وأنها تمهد لاشتدادها فى المستقبل . فهى تعتبر أن ما تأتيه حبًّا « نقيًّا » غير جنسى ، ما دامت تحرص على

تجنب إثارة أعضاء الطفل التناسلية أكثر مما لا سبيل إلى تجنبه إبان العناية بالجسم . بيد أن الغريزة الجنسية لا يوقظها – كما نعرف – إثارة المنطقة التناسلية وحدها ، وما نسميه ملاطفة لا بد أن يؤثر أيضًا فى المنطقة التناسلية يومًا ما . ولو زادت الأم فهماً لعظم أهمية الغريزة فى الحياة النفسية كلها – فيما ننجز من الأعمال الخلقية – لاستغنت حتى بعد استنارتها عن كل تأنيب للنفس. فهى لا تقوم إلا بتأدية مهمتها إذ تعلم الطفل الحب ، ولا بد للطفل إن يصبح رجلا ذا شأن له حاجات جنسية قوية وأن يحقق فى حياته كل ما تدفع الغريزة الإنسان إليه. والحق أن إفراط الوالدين فى الحب مضر من حيث إن هذا الإفراط يعجل بالنضج الجنسى ولأن « تدليل » الطفل يجعله عاجزاً فيما بعد عن النزول مؤقتاً عن الحب أو القناعة بقدر منه أقل . ونتبين أجلى الدلائل على عصبية الطفل المستقبلة فى طلبه حب والديه طلبًا لا شبع فيه . ومن جهة أخرى يوقظ الوالدان العصابيان اللذان يجنحان فى الغالب للإفراط فى الحب ، استعداد الطفل للمرض العصابى بما يبدونه من ملاطفات . ونحن نتبين عرضًا من هذا المثال أن ثمة طرقًا غير طرق الوراثة ينقل بها الوالدان العصابيان إلى الأبناء ما يعانونه من اضطراب مباشر .

القلق الطفلى : يسلك الأطفال أنفسهم منذ سنواتهم المبكرة وكأن اعتمادهم على من يعنى بهم من الأشخاص من قبيل الحب الجنسى . وما القلق أصلا لدى الأطفال إلا تعبير عن فقدانهم شخصًا حبيبًا. لذلك فهم يواجهون الغرباء بالقلق، وهم يحسون بالخوف فى الظلام لأنهم لا يرون الشخص الحبيب ، ويهدأ روعهم إن استطاعوا الإمساك بيد الشخص ذاته فى الظلام . ونحن نبالغ فى تقدير أثر ما تقصه المربيات من قصص العفاريت المخيفة إذ ننسب إليها مسئولية توليد الجبن لدى الأطفال . فالأطفال الميالون إلى الخوف يتقبلون مثل هذه القصص التى لا يقف عندها الآخرون . ولا يميل إلى الخوف من الأطفال إلا من كانت غريزته الجنسية مفرطة أو مبكرة النمو أو ملحة بسبب التدليل . والطفل فى ذلك يسلك مسلك الراشدين إذ يحول الليبدو لديه إلى قلق حين لا يستطيع له إشباعاً . لذلك فإن أصبح الراشد عصابياً – لبقاء الليبدو لديه بدون إشباع – سلك إبان قلقه مسلك الطفل، فيبدأ فى الإحساس بالخوف حين يكون وحيداً أى فى منأى عن شخص يلهمه حبه

الطمأنينة ويسعى إلى تلطيف هذا الخوف بما يصطنع من وسائل طفلية إلى أبعد مدى[٢٣].

حاجز الزنا بالمحارم[٢٤] : فإن وفق حب الوالدين إلى تجنيب الطفل يقظة الغريزة الجنسية قبل حينها أى قبل توفر الشروط الجسمية التى تتوفر فى البلوغ ، يقظة من القوة بحيث ينفذ التهييج النفسى إلى الجهاز التناسلى بما لا شبهة فيه ، استطاع هذا الحب أداء مهمته وهى توجيه الطفل فى سن النضج عند اختياره الموضوع الجنسى . والمؤكد لدى الطفل أن أسهل السبل أن يختار موضوعاته الجنسية من نفس الأشخاص الذين أحبهم منذ طفولته حباً مضمحل اللبيدو — إن جاز التعبير[٢٥] . بيد أن إرجاء النضج الجنسى يكسب الطفل فسحة من زمن يتاح له فيها أن يقيم حاجزاً حيال الزنا بالمحارم ، ضمن ما يفرض على الجنسية من قيود ، فيتمكن من تمثل المبادئ الأخلاقية التى تستبعد صراحة عن مجال اختيار الموضوعات من أحبهم فى طفولته من حيث هم من ذوى الأرحام . والالتزام بهذا الحاجز مطلب حضارى قبل كل شيء ، يفرضه المجتمع الذى لا بد أن يدفع عن نفسه خطر استيعاب الأسرة ما يستخدمه من اهتمامات فى إقامة وحدات اجتماعية أعلى ، لذلك فهو يعمل بكافة الوسائل — فى حالة كل فرد ولا سيما فى حالة كل مراهق — على فك أهم الروابط التى تربطهم بأسرتهم فى الطفولة[٢٦].

بيد أن اختيار الموضوع يتم أولا فى التصور وتنحصر الحياة الجنسية لدى المراهق إبان النضج فى الخيال أى فى تصورات معينة لا تخرج إلى حيز التنفيذ[٢٧] . وفى هذه الأخيلة تتبدى ثانية لدى كل إنسان الميول الطفلية وقد زادتها الطاقة الجنسية قوة ، وتتبوأ منها حوافز الطفل الجنسية تجاه والديه المحل الأول باطراد ، وهى حوافز سبق تفاضلها عن طريق الانجذاب للجنس الآخر ، الابن لأمه والبنت لأبيها[٢٨] . وفى الآن نفسه الذى يتم فيه التغلب على هذه الأخيلة المتصلة صراحة بالزنا بالمحارم ونبذها ، تتحقق أهم المكاسب النفسية لفترة المراهقة وأشدها إيلاماً ، ألا وهو الانفصال عن سلطة الوالدين . ويتولد عن ذلك معارضة الجيل الجديد للقديم معارضة بالغة الأهمية فى التقدم الحضارى . وعند كل مرحلة فى طريق النمو يتعين على كل فرد عبورها ، يتوقف عدد من الأفراد . لذلك فثمة

أشخاص لم يتخلصوا ألبتة من سلطة الوالدين ولم يسحبوا عنهم حبهم أوسحبوه سحباً ناقصاً . ومعظمهم بنات بقين على حبهن الطفلى برمته إلى ما بعد البلوغ ، إرضاء للوالدين . ومما له أهمية قصوى أن نجد أن هؤلاء البنات أنفسهن عاجزات فى زواجهن اللاحق عن وهب أزواجهن ما هو حق لهم . فيصبحن زوجات باردات الطبع مفتقدات الحس جنسياً. ومن ذلك نتعلم أن ما يبدو أنه حب غير جنسى للوالدين والحب الجنسى تغذيهما المصادر نفسها أى أن الأول مجرد نظير لتثبيت اللبيدو تثبيتاً طفلياً .

وكلما اقتربنا من الاضطرابات الأعمق فى النمو الجنسى النفسى ، تبدت أهمية اختيار الموضوع ضمن المحارم بما لا يدع للخطأ مجالا . ويظل لدى العصابيين النفسيين جزء كبير من نشاطهم الجنسى النفسى الموجه للعثور على الموضوع أو كله فى اللاشعور نتيجة لانتباذهم الجنسية . وتحس البنات اللائى بهن حاجة مفرطة إلى الحب وفزع مماثل من المطالب الحقيقية للحياة الجنسية ، بإغراء لا يقاوم على تحقيق المثل الأعلى للحب اللاجنسى فى الحياة من ناحية وإخفاء اللبيدو لديهن وراء حب يستطعن الإفصاح عنه دون لوم الذات من ناحية أخرى ، وذلك بالتمسك مدى الحياة بالميل الطفلى إلى الوالدين أو الإخوة والأخوات الذى ينتعش فى البلوغ . ويستطيع التحليل النفسى أن يبين لمثل هؤلاء الأشخاص بغير مشقة أنهم يحبون — بالمعنى المألوف للكلمة — أقارب الدم هؤلاء ، فهو ينفذ إلى أفكارهم اللاشعورية ، مستعيناً بالأعراض والمظاهر المرضية الأخرى ، فيترجمها إلى أفكار شعورية . ومن الممكن أيضاً أن نبين بياناً يقينياً ، فى حالة شخص كان سوياً ثم مرض إثر خبرة حب فاشلة ، أن عملية مثل هذا المرض تنحصر فى ارتداد اللبيدو لديه إلى الأشخاص الذين كانوا موضع إيثاره فى الطفولة .

نتائج الاختيار الطفلى للموضوع : وإن من وفق إلى تجنب تثبيت اللبيدو لديه على المحارم لا ينجو من تأثير هذا التثبيت كلية. فثمة صدى واضح لهذه المرحلة من النمو حين يدله شاب لأول مرة — وهو أمر شائع — بحب امرأة ناضجة أو فتاة مرتبطة برجل مسن يمثل مركز السلطة ، فهؤلاء قادرون على إيقاظ صورة الأم أو الأب لديه[٢٩]. ولا شبهة فى أن اختيار الموضوع يستند عامة على هذين النموذجين ،

فالرجل يسعى خاصة إلى صورة ذكروية للأم التى هيمنت عليه منذ بدايات الطفولة . ويساير هذا أن الأم — وهى ما تزال على قيد الحياة — تستاء لهذه الصورة الجديدة لنفسها وتواجهها بالعداء . ونظراً لأهمية العلاقات الطفلية بالوالدين فى اختيار الموضوع الجنسى فيما بعد ، فمن اليسير أن نفهم أن أى اضطراب فى علاقات الطفولة هذه تكون له أخطر النتائج بالنسبة للحياة الجنسية لدى الراشدين . وكذلك لا تكون أبداً غيرة المحب بغير جذر طفلى أو مدد طفلى على الأقل . والمشاحنات بين الوالدين وزواجهما الفاشل تفضى إلى أشد استعداد للنمو الجنسى المضطرب أو إلى مرض الأطفال مرضًا عصابيًّا .

ولا ريب أن الميل الطفلى للوالدين أهم أثر ينبعث فى البلوغ ويشير إلى طريق اختيار الموضوع ، ولكنه ليس الأثر الوحيد . فثمة نقط بدء أخرى لها نفس الأصل المبكر ، تمكن الرجل من أن يختط لنفسه أكثر من خط جنسى واحد أساسها جميعاً طفولته وأن يشترط لاختيار الموضوع شروطًا جد منوعة(٣٠) .

الوقاية من الارتكاس : من المهام المتضمنة فى اختيار الموضوع ألا يفشل فى الاتجاه إلى الجنس الآخر . وهو أمر لا يتم — كما نعلم — بغير قدر من الطواف على غير هدى . فكثيراً ما تضل السبيل أولى النوازع بعد البلوغ — دون ضرر مقيم . وقد نبه « دسوار » (Dessoir) بحق إلى الاطراد الذى تتكشف عنه الصداقات العاطفية بين المراهقين والمراهقات وأفراد من نفس جنسهم. ولا ريب أن أعظم قوة تمنع ارتكاس الموضوع الجنسى ارتكاسًا مقيما، هو التجاذب الذى يحدث بين السمات الجنسية المتضادة . وليس يمكن توضيح هذه النقطة فى نطاق المناقشات الحالية(٣١) . بيد أن هذا العامل لا يكفى بذاته لاستبعاد الارتكاس ، فهناك بلاريب أنواع من العوامل المساعدة الأخرى ، أهمها التحريم الصادر عن سلطة المجتمع . وحيث لا يعتبر الارتكاس جريمة نجد فيه ما يتفق وميول عدد غير قليل من الأفراد أتم اتفاق . ثم إنه يجب أن نفترض لدى الرجل أن ذكرى الطفولة الخاصة بما أبدته الأم وغيرها من النسوة اللائى عنين به طفلا له من حب ، تسهم إسهامًا قويًّا فى توجيه اختياره وجهة المرأة(٣٢) ، بينما يثنيه عن جنسه ما خبره عن والده من رد مبكر عن النشاط الجنسى وما يربطه به من تنافس . وكلا العاملين ينطبقان على البنات

اللائى يخضع نشاطهن الجنسى خاصة لرقابة الأم . وهكذا تنشأ لديهن علاقة عدائية بجنسهن نفسه ، تؤثر فى اختيار الموضوع تأثيراً حاسماً فى اتجاه ما يعتبر سوياً . ويبدو أن قيام الذكور بتربية الصبية (العبيد فى العالم القديم) يشجع الجنسية المثلية ؛ ومما يزيدنا فهماً لكثرة الارتكاس بين أرستقراطية اليوم الاستعانة بالرجال من الخدم وعناية الأمهات بأطفالهن عناية شخصية أقل . وقد وجد لدى بعض الهستيريين أن فقدان أحد الوالدين فقداناً مبكراً (بالموت أو الطلاق أو الانفصال) وما يستتبعه من استيعاب الوالد الباقى حب الطفل برمته ، يحدد جنس الشخص الذى يقع عليه الاختيار فيما بعد بوصفه موضوعاً جنسياً ، ممهداً بذلك الطريق إلى الارتكاس الدائم .

خلاصة

لقد آن وقت محاولة التلخيص . فقد بدأنا بانحرافات الغريزة الجنسية بالنسبة لموضوعها وهدفها وواجهنا السؤال عما إذا كانت هذه الانحرافات ناشئة عن استعداد جبلى أم مكتسبة نتيجة لمؤثرات الحياة . وقد توصلنا إلى إجابة عن هذا السؤال من فهمنا المستمد من الفحص التحليلى النفسى لأحوال الغريزة الجنسية لدى العصابيين النفسيين وهم فئة عديدة من الناس لا تبعد كثيراً عن الأصحاء . فقد وجدنا أن من الممكن أن نستبين لدى هؤلاء الأشخاص ميولا لكافة الانحرافات هى قوى لاشعورية تنم عن نفسها باعتبارها عوامل مسئولة عن تكوين الأعراض، فكان من الممكن القول إن العصاب هو الصورة السلبية للانحرافات إن جاز التعبير. ونظراً لما نعرفه الآن من تشتت الميول الانحرافية تشتتاً كبيراً فقد انسقنا إلى اعتبار أن الاستعداد للانحرافات استعداد أصيل عام فى الغريزة الجنسية الإنسانية وأن السلوك الجنسى السوى ينشأ عنها نتيجة لما يطرأ على سير النضج من تغيرات عضوية وأنواع الكف النفسية . وقد أملنا أن نتمكن من إظهار هذا الاستعداد الأصيل فى الطفولة واهتممنا بالحياء والاشمئزاز والشفقة والأبنية الاجتماعية للأخلاق والسلطة، ضمن القوى التى تقيد وجهة الغريزة الجنسية . فكان لا بد إذن من أن نعتبر أى انحراف ثابت عن الحياة الجنسية السوية ضرباً من توقف النمو والطفلية . وكان لا بد لنا من إبراز أهمية تنوعات الاستعداد الأصيل وافتراض وجود علاقة تعاون لا تعارض بينها وبين مؤثرات الحياة . وقد اتضح لنا من ناحية أخرى أنه ما دام الاستعداد الأصيل معقداً بالضرورة ، فلا بد للغريزة الجنسية ذاتها أن تكون أشبه بمركب من عوامل عدة يتحلل إلى عناصره فى الانحرافات إن جاز التعبير. وبذلك تبدت الانحرافات من ناحية أنواعاً من الكف ، ومن ناحية أخرى أضرباً من التفكك فى النمو السوى . ويلتقى هذان التفسيران عند افتراض أن الغريزة الجنسية تنشأ لدى الراشدين عن تجمع عدد من نوازع الطفولة فى وحدة أى فى دافع ذى هدف واحد .

وبعد أن فسرنا غلبة الميول الانحرافية لدى العصابيين النفسيين بأنها امتلاء جانبى

للقنوات المساعدة إثر توقف التيار الرئيسى للمجرى الغرزى بسبب « الكبت »[١] انتقلنا إلى النظر فى الحياة الجنسية فى الطفولة . فوجدنا أن مما يؤسف له إنكار الغريزة الجنسية فى الطفولة ووصف المظاهر الجنسية التى لا تندر مشاهدتها فى الطفولة بأنها حالات استثنائية . وقد بدا لنا بالأحرى أن الطفل يأتى إلى العالم ومعه بذور النشاط الجنسى وأنه يحس إشباعاً جنسياً عند تناول الطعام وأنه لا يفتأ يسعى إلى معاودة الكرة فى نشاط « مص الأصبع » المألوف . بيد أن نشاط الطفل الجنسى لا يساير فى نموه الوظائف الأخرى بل يدخل ما يسمى بفترة الكمون إثر فترة ازدهار وجيزة ما بين الثانية والخامسة[٢]. ولا يتوقف تولد التهيج الجنسى ألبتة إبان هذه الفترة وإنما يستمر وينتج ذخيرة من طاقة تستخدم إلى مدى بعيد فى أغراض أخرى غير الأغراض الجنسية — أى من ناحية فى إسهام العناصر الجنسية فى تكوين المشاعر الاجتماعية ومن ناحية أخرى فى بناء السدود الجنسية اللاحقة (بواسطة الكبت والتكوين العكسى) . ومن هذه الوجهة تنبنى فى الطفولة معظم القوى الموجهة إلى حصر الغريزة الجنسية فى حدود معينة ، ويكون ذلك على حساب الدوافع الجنسية المنحرفة وبمساعدة التربية . وثمة جزء آخر من الاستثارات الجنسية الطفلية ينفلت من هذه الاستخدامات ويوفق إلى التعبير عن نفسه فى صورة نشاط جنسى . ثم وجدنا أن الاستثارة الجنسية لدى الأطفال تصدر من أنواع متعددة من المصادر . وينشأ الإشباع أولا وبالذات عن الاستثارة الجنسية الملائمة لما يسمى بالمناطق الشهوية التى يتمكن أى جزء من البشرة وأى عضو من أعضاء الحس ، بل ربما أى عضو[٣] ، من القيام بوظيفتها ، على حين توجد مناطق شهوية معينة خاصة تتكفل بإثارتها منذ البداية حيل عضوية معينة. ويبدو التهيج أيضاً نتاجاً جانبياً — إن جاز التعبير — فى عدد كبير من العمليات داخل الكائن العضوى ، حالما تبلغ درجة معينة من الشدة ولا سيما فى كل الانفعالات القوية نسبياً وإن كانت مؤلمة بالطبع . ولا تكون التهيجات الصادرة عن هذه المصادر مترابطة بعد ، ولكن كلاً منها يسعى على حدة إلى هدفه وهو مجرد الحصول على لذة ما . وهكذا لا تكون الغريزة الجنسية فى الطفولة ذات مركز واحد ، ثم إنها تكون[٤] أولا بدون موضوع أى عشقية ذاتية .

وتأخذ المنطقة الشهوية للأعضاء التناسلية فى الظهور حتى إبان سنوات الطفولة ، ويكون ذلك إما لأنها تفضى إلى الإشباع إثر استثارتها استثارة حسية ملائمة ، شأنها شأن أى منطقة شهوية أخرى ، وإما لأن تهيجاً جنسياً متصلا بالمنطقة التناسلية على وجه التخصيص يتولد — على نحو غير مفهوم تماماً — عن إشباع مصادر أخرى . وقد اضطررنا آسفين أن نسلم بأننا لم نتوصل إلى تفسير مرض للعلاقات القائمة بين الإشباع الجنسى والتهيج الجنسى ولا بين نشاط المنطقة التناسلية ونشاط المصادر الجنسية المتبقية .

وقد لاحظنا فى دراسة الاضطرابات العصابية[٥] أن من الممكن تبين بواكير تنظيم المقومات الجنسية الغرزية فى حياة الأطفال الجنسية منذ البداية . وتحتل **العشقية الفمية** مكان الصدارة فى مرحلة أولى ممعنة فى التبكير ؛ ويتميز ثانى هذه التنظيمات **القبل تناسلية** بغلبة **السادية والعشقية الشرجية** . وتسهم المناطق التناسلية ذاتها بادئ ذى بدء بنصيب فى تحديد الحياة الجنسية فى مرحلة ثالثة (لا تنمو لدى الطفل إلا بعد أولوية القضيب)[٦] .

وكان لزاماً علينا أن نسلم إذ ذاك بكشف غاية فى العجب هو أن هذا الازدهار المبكر فى الحياة الجنسية الطفلية (من سنتين إلى خمس سنوات) يؤدى إلى اختيار موضوع بكل مايتضمنه ذلك من أعمال نفسية خصبة[٧] . ولابد من اعتبار مرحلة النمو المقابلة لهذه الفترة بشيراً هاماً بالتنظيم الجنسى النهائى اللاحق ، برغم نقص تآلف المقومات الغرزية المتباينة فيها وعدم وضوح هدفها الجنسى .

ومما يبدو لنا جديراً بالملاحظة حدوث النمو الجنسى لدى البشر **على دفعتين** ومن ثمة انقطاع هذا النمو فى فترة الكمون . ذلك — فيما يبدو — هو أحد الشروط التى تهيئ بنى البشر للارتقاء فى سلم الحضارة وإن كانت تميل بهم أيضاً إلى العصاب . ولا نظير لهذا على ما نعلم لدى أقارب الإنسان من الحيوان . ولا بد من البحث عن أصل هذه الخاصية الإنسانية فيما قبل التاريخ لدى الجنس البشرى .

ولم يكن فى وسعنا أن نقول ما مقدار النشاط الجنسى الذى يحدث فى الطفولة دون أن نصفه بعدم السوية أو بأنه مضر بالنمو اللاحق . وقد تبين لنا أن الطابع الغالب على هذه المظاهر الجنسية هو الاستمناء . وكذلك أظهرت لنا التجربة أن

المؤثرات الخارجية الناتجة عن التغرير قادرة على إحداث وقفات فى فترة الكمون إلى حد إنهائها وأن الغريزة الجنسية لدى الطفل تبدو بالفعل انحرافية متعددة الصور ، فضلا عن أن أى نشاط جنسى مبكر من هذا القبيل يقلل من قابلية الطفل للتربية .

وكان علينا ، برغم ما فى معارفنا من ثغرات ، أن نحاول دراسة التغيرات التى تطرأ على الحياة الجنسية الطفلية بحلول البلوغ . وقد تناولنا منها تغييرين حاسمين هما خضوع مصادر التهييج الجنسى جميعاً لأولوية المنطقة التناسلية وعملية العثور على موضوع . وكلاهما تُرسم معالمه فى الطفولة . ويتم الأول بفضل حيلة استغلال اللذة التمهيدية وفيها تغدو الأفعال الجنسية المستقلة المرتبطة باللذة والتهييج أفعالا تمهد للهدف الجنسى الجديد وهو تفريغ المواد الجنسية . وإدراك هذا الهدف يزيل التهييج الجنسى بتحقيق لذة عظمى . وكان بذلك علينا أن نحسب لتفاضل الموجود إلى رجل وامرأة حسابه ووجدنا أن الصيرورة إلى امرأة يتطلب كبتاً جديداً يستبعد جزءاً من الذكورة الطفلية ويمهد للمرأة سبيل تغيير منطقتها التناسلية السباقة . وقد وجدنا أخيراً أن ما يحدد لاختيار الموضوع وجهته هى العلامات الطفلية التى تنتعش فى المراهقة وتشير إلى ميل الطفل لوالديه ومن يعنى به كما وجدنا أنه ينأى عن هؤلاء الأشخاص إلى أشباههم نتيجة لحاجز الزنا بالمحارم الذى شيد فى هذه الأثناء . ونضيف إلى ذلك فى النهاية أن عمليات النمو البدنى والنفسى خلال فترة انتقال البلوغ تستمر زمناً مستقلا بعضها عن بعض إلى أن يؤدى انطلاق وازع عشقى نفسى شديد إلى تعصيب الأعضاء التناسلية وتحقيق وحدة وظيفة العشق بما يقتضيه السواء .

العوامل المخلة بالنمو : وقد تصبح كل خطوة فى هذا الطريق الطويل الذى يسلكه النمو نقطة تثبيت وكل وصلة فى هذا التركيب المتشابك فرصة لتحلل الغريزة الجنسية ، على نحو ما بينا بمختلف الأمثلة(٨) . ويبقى علينا أن نعدد العوامل المنوعة الداخلية والخارجية التى تخل بالنمو ونبين أى موضع فى العملية يقع عليه الخلل . والحق أن ما سوف نعدده من عوامل غير متكافئ فى القيمة ولا بد من أن نحسب للصعاب حسابها عندما نحدد للعوامل المفردة القيمة الملائمة لها .

الجبلة والوراثة : لا بد ههنا أن نذكر فى المحل الأول التنوع الفطرى فى الجبلة

الجنسية ، وعليها يقع العبء الأكبر فى الغالب وإن كان بالطبع لا يمكن استنتاجها إلا من مظاهرها المتأخرة ولا يكون استنتاجنا إذ ذاك على درجة كبرى من اليقين دائمًا . ونحن نتصور هذا التنوع رجحانًا لأحد مصادر التهييج الجنسى العديدة ونعتقد أنه لابد لمثل هذا التنوع فى الاستعداد أن يظهر دائمًا فى النتيجة النهائية حتى حين تقف هذه النتيجة عند حدود السواء . ولا شبهة أن من الممكن أيضاً تصور تنوعات فى الاستعداد الأصيل لابد أن تؤدى حتماً — دون عون إضافى — إلى نشأة حياة جنسية غير سوية . ويمكن وصفها إذ ذاك بأنها تنوعات «انحلالية» واعتبارها تعبيراً عن انحلال متوارث . ولدى بهذا الصدد واقعة ملفتة جديرة بالذكر . فقد أثبت إثباتا يقينيًا فيما يربو على نصف الحالات الحادة التى عالجتها نفسيًا من الهستيريا والعصاب الوسواسى وما إلى ذلك ، أن الآباء كانوا مصابين بالزهرى قبل الزواج ، سواء كانوا يعانون القضافة (Tabes) أو الشلل العام (General paralysis) أو كان ثمة فى تاريخ الحالة ما يدل بطريقة أخرى على وجود الزهرى . وأنبه صراحة إلى أن الأطفال الذين يصبحون عصابيين فيما بعد لا يحملون أية علامة جسمية على الزهرى الوراثى بحيث يمكن اعتبار جبلتهم الجنسية غير السوية آخر أصداء الزهرى المتوارث . ومهما نأيت عن توكيد أن الانحدار عن والدين مريضين بالزهرى شرط علِّى مطرد أو ضرورى فى الجبلة العصبية المرضية ، فإنى أرى أن ما شاهدته من اتفاق فى الوقوع ليس عرضًا أو خلوًا من دلالة .

وإننا لأقل إحاطة بالأحوال الوراثية لدى المنحرفين الإيجابيين لأنهم يعرفون كيف يراوغون . بيد أن ثمة أسبابًا قوية لافتراض أن ما يصدق على الأعصبة يصدق بالمثل على الانحرافات . فليس يندر أن نجد نفس الانحراف والعصاب موزعين على جنسين مختلفين فى أسرة بعينها بحيث يكون الأعضاء الذكور أو أحدهم منحرفين إيجابيين ، بينما تكون الإناث — وفقاً لميل جنسهن للكبت — منحرفات سلبيات أى هستيريات(٩) ، وهى بينة حسنة على ما وجدنا من روابط جوهرية بين الاضطرابين .

تعديل آخر : ومع ذلك فمن المحال الذود عن الرأى القائل بأن المقومات المختلفة للجبلة الجنسية تحدد بما لا شبهة فيه صورة الحياة الجنسية . بل إن التحديد ليمضى بالأحرى قدمًا وتظهر احتمالات أخرى وفقاً لما تؤول إليه التيارات الجنسية الصادرة عن

مصادر متفرقة . ومن البين أن هذا التعديل الآخر هو العنصر الحاسم ، بينما قد تؤدى الجبلات التى توصف بأنها متكافئة إلى ثلاث نتائج نهائية مختلفة :

[١] فإن ظلت العلاقة التى نفترض أنها غير سوية بين الاستعدادات كلها وقويت عند النضج ، فإن النتيجة النهائية لا يمكن أن تكون إلا الانحراف . ولم يتناول أحد بعد تحليل مثل هذه الاستعدادات الجبلية بما يلائمها ولكنا نعرف حالات من السهل تفسيرها بمثل هذه الفروض. ويرى الكتاب مثلا [انظر ص٣٩] أن من الضرورى التسليم بأن ضعفاً فطرياً يميز الغريزة الجنسية فى حشد كبير من التثبيتات الانحرافية. ويبدو لى أنه لا يمكن التمسك بهذا الرأى فى صورته هذه . وإنما يكون ثمة معنى له إن كان المقصود هو ضعف جبلى فى عامل من عوامل الغريزة الجنسية ، ألا وهو المنطقة التناسلية ، وهى منطقة تقوم فيما بعد بوظيفة التأليف بين أنواع النشاط الجنسى المتفرقة لهدف الإنسال. وإذ ذاك فلا بد أن يفشل هذا التأليف المتطلب فى البلوغ وتفرض أقوى المقومات الجنسية الأخرى نشاطها فى صورة الانحراف[١٠] .

الكبت [٢] : وتختلف النتيجة إن تعرضت بعض العناصر المفرطة فى القوة أصلا لعملية الكبت إبان النمو . ولا بد من أن نؤكد أن ذلك لا يعنى أنها ألغيت . وبذلك تتولد التهيجات المذكورة كما كانت تتولد من قبل ولكن الحاجز النفسى يمسكها عن إدراك هدفها، فتحيد إلى طرق عديدة أخرى حتى تعبر عن نفسها فى هيئة أعراض. وقد تكون النتيجة حياة جنسية قريبة من السواء — وإن كانت فى الغالب مقيدة — فضلا عن مرض عصابى نفسى . وهذه الحالات أصبحت مألوفة لدينا مباشرة عن طريق الفحص التحليلى النفسى للعصابيين. فالحياة الجنسية تبدأ عند أمثال هؤلاء الأشخاص على نحو ما تبدأ حياة المنحرفين ويشغل النشاط الجنسى المنحرف — الذى يمتد أحياناً إلى فترة النضج — جزءاً كبيراً من طفولتهم. وإذ ذاك يحدث انقلاب مرجعه إلى الكبت وناتج عن أسباب داخلية (ويكون ذلك عادة قبل البلوغ ولكنه قد يحدث بين الفينة والفينة بعد ذلك بأمد طويل) ، ومن الآن فصاعداً يحل العصاب محل الانحراف ، دون أن تنطفئ النوازع القديمة. وهو ما يذكرنا بالمثل القائل : « بغى فى الصبا ، راهبة فى المشيب »[١١] ولو أن الصبا لم يمكث

ههنا إلا برهة وجيزة . وحلول العصاب محل الانحراف فى حياة شخص بعينه وكذلك توزع الانحراف والعصاب على أشخاص مختلفين من أسرة بعينها — على ما سبق ذكره — يتفق والقول بأن العصاب هو الصورة السلبية للانحراف .

التسامى [٣] : أما النتيجة الثالثة لوجود استعداد جبلى غير سوى فمردها إلى عملية « التسامى » ، وبها تتمكن التهيجات المسرفة فى القوة والمتولدة عن المصادر الجنسية المتفرقة من أن تجد لها منصرفاً واستخداماً فى المجالات الأخرى ، بحيث تنتج عن قدرات خطرة فى ذاتها زيادة لا يستهان بها فى الفاعلية النفسية . ونجد ههنا أحد مصادر النشاط الفنى ، ويكشف تحليل الخلق لدى الفرد العالى المواهب ولاسيما ذى الاستعداد الفنى ، عن مزيج متفاوت من الفاعلية والانحراف والعصاب ، حسبما يكون التسامى كاملا أو ناقصاً . وفى الإلغاء عن طريق **التكوين العكسى** ضرب من التسامى ، وقد رأينا أن التكوين العكسى يبدأ فى فترة الكمون لدى الطفل ويستمر على مدى الحياة فى الحالات المواتية . وإن ما نسميه « خُلق » إنسان ما مبنى إلى حد كبير من مواد التهيج الجنسى ومؤلف من غرائز تثبتت منذ الطفولة ومما شيد عن طريق التسامى من أبنية وما يستخدم منها لمنع النوازع الانحرافية — وقد اتضح عدم جدواها — منعاً فعالا[١٢]. ومن ثمة يمكن اعتبار الاستعداد الجنسى العام فى الطفولة مصدراً لعدد من فضائلنا من حيث إنه يدفع إليها عن طريق التكوين العكسى[١٣].

الخبرات العارضة : ليس من مؤثرات تؤثر فى سير النمو الجنسى ، تقارن فى أهميتها بانطلاقات الجنسية وموجات الكبت وضروب التسامى ؛ والعمليتان الأخيرتان نجهل شروطهما الداخلية كل الجهل . ومن يدخل الكبت والتسامى ضمن الاستعداد الجبلى فيعتبرهما مظاهر حية له ، محق فى ادعاء أن الصورة النهائية للحياة الجنسية تنتج أصلا عن الجبلة الفطرية . ولا ينكر المتبصر أن ثمة مجالا — ضمن هذا التشابك فى العوامل — للمؤثرات المنوعة الصادرة عما يُخبر فى الطفولة وما بعدها من أحداث عارضة . وليس من اليسير[١٤] تقدير قوة العوامل الجبلية والعارضة فى علاقة كل منهما بالآخر . ودائماً ما يميل المرء نظرياً إلى المبالغة فى تقويم الأولى، بينما تؤكد الممارسة العلاجية أهمية الثانية . ويجب ألا ننسى على أية حال أن العلاقة بين

الاثنين علاقة تعاون لا استبعاد متبادل . فلا قيمة للعامل الجبلى بدون خبرات ولا يكون العامل العارض فعالا بدون أساس من الجبلة . ويمكن أن نتصور بالنسبة لغالبية الحالات ما يسمى « بالسلسلة المتتامة »[١٥] وفيها تتوازن الشدة المتضائلة لأحد العوامل والشدة المتزايدة لعامل آخر . ولكن ليس ثمة ما يدعو إلى إنكار وجود حالات قصوى عند طرفى السلسلة .

ونكون أكثر اتفاقاً والبحث التحليلى النفسى إن جعلنا خبرات الطفولة المبكرة — ضمن العوامل العارضة —موضع تفضيلنا. وإذ ذاك تنقسم السلسلة العلّية الواحدة إلى شطرين ، نسميهما السلسلة الاستعدادية والسلسلة النهائية ، وفى الأولى تتفاعل الجبلة والخبرات العارضة فى الطفولة على نحو ما يتفاعل الاستعداد والخبرات الصادمة فى الثانية . وكل ما يعوق النمو الجنسى من عوامل يتبدى أثره فيما يحدثه من نكوص وعود على مرحلة مبكرة من مراحل النمو .

ونواصل الآن مهمتنا وهى تعداد العوامل التى تبين لنا تأثيرها فى النمو الجنسى سواء كانت قوى فعالة أو مظاهر لمثل هذه القوى .

النضج المبكر : ومن هذه العوامل التبكير الجنسى التلقائى ، ويمكن التدليل عليه يقيناً فى أصل الأعصبة وإن كان ليس سبباً كافياً بذاته ، شأنه فى ذلك شأن العوامل الأخرى . وهو يتجلى فيما يطرأ على فترة الكمون الطفلى من انقطاع أو اختصار أو إنهاء ، ويتسبب فى حدوث الاضطرابات بما يبعثه من مظاهر جنسية تنطبع حتماً بطابع الانحراف نتيجة لنقص الكف الجنسى من ناحية ولعدم نمو الجهاز التناسلى من جهة أخرى . وقد تظل هذه الميول الانحرافية على علاتها أو قد تصبح بعد الكبت هى القوى الغرزية فى الأعراض العصابية . وعلى أية حال فإن التبكير الجنسى يزيد من صعوبة سيطرة المنظمات النفسية العليا على الغريزة الجنسية سيطرة لاحقة متطلبة ، ويقوى الطابع القهرى الذى تتخذه التصورات النفسية فى ظروف مباينة . وغالباً ما يكون التبكير الجنسى مسايراً للنمو العقلى المبكر ، بحيث نجده على هذا النحو فى التاريخ الطفلى لأفراد على أعظم جانب من التميز والقدرة . وهو يبدو إذ ذاك أقل إحداثاً للمرض عنه إن ظهر منعزلا[١٦] .

العوامل الزمنية : وثمة عوامل أخرى جديرة بالاعتبار يمكن تجميعها — إلى جانب

التبكير – بوصفها عوامل « زمنية » . ويبدو أن الترتيب الذى تخرج به النوازع الجنسية المنوعة إلى حيز النشاط محدد بالنشوء النوعى ، والمثل يقال عن طول الزمن الذى تستطيع الظهور فيه إلى أن تتعرض لتأثير دافع غرزى حديث العهد أو كبت أنموذجى . ولكن يبدو أن التنوعات تحدث فى هذه المتتاليات الزمنية وفى مدتها وأنه لابد لها أن تؤثر فى النتيجة النهائية تأثيراً حاسماً . ولا يستوى أن يظهر تيار معين قبل أو بعد التيار المضاد له ، إذ لا يمكن إلغاء تأثير الكبت : والاختلاف الزمنى فى تجمع العناصر يحدث دائماً اختلافاً فى النتيجة. ومن جهة أخرى ، فغالباً ماتكون الدوافع الغرزية التى تظهر بشدة قصيرة الأجل قصراً عجيباً : مثال ذلك التعلق الجنسى الغيرى الذى يبديه من يصبح فيما بعد ممارساً للجنسية المثلية صراحة . وليس ما يبرر الخوف من أن الميول التى تتبدى فى الطفولة بعنف بالغ سوف تسيطر على خلق الراشد سيطرة دائمة . وإنما المترقب أنها سوف تختفى لكى تفسح مكاناً لميل مضاد لها (و « قساة الحكام لا يحكمون طويلا »)[١٧]. وليس فى استطاعتنا أن ندلى ولو بإشارة إلى أسباب هذه الاضطرابات الزمنية فى عملية النمو . وهنا نلمح حشداً ضخماً من المشكلات البيولوجية وربما التاريخية أيضاً لم نقترب منه بما يجعله فى متناولنا .

التشبث : ويزيد من أهمية المظاهر الجنسية المبكرة كلها وجود عامل نفسى مجهول الأصل لايمكن فى الواقع تقديمه الآن إلا بمثابته مفهوماً سيكولوجياً مؤقتاً. وأقصد التشبث المفرط أو القابلية للتثبيت التى لا بد من افتراضها فى هذه الانطباعات للحياة الجنسية لدى من يصبحون فيما بعد عصابيين أو منحرفين . إذ أن المظاهر الجنسية المبكرة عينها لا تحدث لدى الأشخاص الآخرين مثل هذا الانطباع العميق بحيث تعمل على تكراره تكراراً قهرياً وتتمكن من رسم الطريق الذى تسلكه الغريزة الجنسية على مدى الحياة . وربما انحصر جزء من تفسير هذا التشبث للانطباعات المبكرة فى عامل نفسى آخر لا ينبغى أن نغفله فى تعليل الأعصبة ، ألا وهو رجحان كفة الآثار الذكروية على الانطباعات الحديثة العهد فى الحياة النفسية . ومن الجلى أن هذا العامل يتوقف على التكوين العقلى وأنه ينمو بنمو الثقافة الشخصية . وعلى الضد من ذلك فقد وصف المتوحش بأنه « ابن اللحظة

الشقى »[١٨] ونتيجة للعلاقة العكسية بين الحضارة والنمو الجنسى الطليق — ومن الممكن تتبع آثارها حتى فى شكل حياتنا ذاته — كان الطريق الذى تسلكه حياة الطفل الجنسية قليل الشأن حيث المستوى الحضارى أو الاجتماعى منخفض نسبيًا ، بقدر ما يكون هامًا بالنسبة للحياة اللاحقة حيث المستوى مرتفع نسبيًا .

التثبيت . وتفيد الاستثارات الجنسية الطفلية التى تخبر عرضًا من العوامل النفسية المذكورة توًا . وهذه الاستثارات (وهى أولا تغرير يقوم به الآخرون من الأطفال والراشدين) تهيىء المادة التى تتثبت فى شكل اضطراب دائم ، بمعونة العوامل المذكورة . وهكذا يتقرر منذ البداية جزء كبير مما يشاهد فيما بعد لدى العصابيين والمنحرفين من شذوذات الحياة الجنسية ، وذلك عن طريق انطباعات فترة الطفولة التى تعتبر خالية من الجنسية . وتتوزع العلّية بين مواتاة الجبلة وتبكير النضج وخاصية التشبث المتزايد وما تتعرض له الغريزة الجنسية من استثارة اتفاقية صادرة عن مؤثر خارجى .

بيد أن النتيجة غير المرضية التى نخلص بها من هذه الأبحاث فى اضطرابات الحياة الجنسية هى أننا نعرف من العمليات البيولوجية التى تؤلف جوهر الجنسية النزر اليسير فلا نستطيع أن نبنى من معارفنا المبعثرة نظرية تكفى لفهم الأحوال السوية والمرضية .



هوامش الكتاب

هوامش المقال الأولى

(١) إن ما تتضمنه هذه المقالة الأولى من معلومات مستمد من الكتابات التى اشتهر بها «كرافت– إيبنج» (Kraft-Ebing) و«مول» (Moll) و«موبيوس» (Mœbius) و«هافلوك – إيليس» (Havelock Ellis) و «شرنك – نوتزنج» (Schrenck-Notzing) و «لوفنفيلد» (Lœwenfeld) و «أولنبرج» (Eulenberg) و «بلوخ» (Bloch) و «هيرشفلد» (Hirschfeld) وكذلك من Jahrbuch für sexuelle Zwischenstufen التى يشرف على نشرها آخر المؤلفين المذكورين . وما دام ثبت المراجع الكاملة الخاصة ببقية الموضوع موجوداً فى أعمال هؤلاء الكتاب ، فقد أعفيت نفسى من ضرورة ذكر المراجع التفصيلية . [إضافة ١٩١٠] أما المعطيات المستمدة من الفحص التحليلى النفسى للمرتكسين فأساسها مادة زودنى بها «إ . سادجر» (I. Sadger) ومكتشفاتى الشخصية .

(٢) [هامش أضيف ١٩١٠] : إن الكلمة الملائمة الوحيدة فى الألمانية Lust ملتبسة المعنى لسوء الحظ ، فهى تستخدم للدلالة على خبرة كل من الحاجة (Bedürfniss) والإشباع (Befriedigung) .

(٣) [تلك بلا ريب إشارة إلى النظرية التى عرضها أرسطوفانيس فى «مأدبة» أفلاطون . وقد عاد فرويد إليها فيما بعد فى مختتم الفصل الرابع من «ما وراء مبدأ اللذة» (١٩٢٠ ز)] .

(٤) انظر «هيرشفلد» (١٩٠٤) فيما يتعلق بهذه الصعوبات والمحاولات التى بذلت للوصول إلى العدد النسبى للمرتكسين .

(٥) إن مقاومة شخص ما –على هذا النحو– لدافع يدفع به قهراً إلى الانحراف لربما حددت إمكان تأثره بالإيحاء [إضافة ١٩١٠] أو بالتحليل النفسى .

(٦) يؤكد كثير من الكتاب بحق أن معطيات السيرة الذاتية التى يوردها المرتكسون عن الظهور الزمنى لميلهم إلى الارتكاس غير جديرة بالثقة لأنهم قد يكونون

قد استبعدوا من ذاكرتهم — عن طريق الكبت — البينة على مشاعرهم الجنسية الغيرية . [إضافة ١٩١٠] وقد أيد التحليل النفسى هذا الظن فى حالات الارتكاس التى توصل إليها ، فقد غير فيها القدرة على التذكر تغييراً حاسماً بملئه ثغرات فقدان الذاكرة الطفلى . — [فى الطبعة الأولى (١٩٠٥) حلت العبارة التالية محل الجملة الأخيرة : « ولا يمكن التأدى إلى قرار خاص بهذه النقطة إلا بالفحص التحليلى النفسى للمرتكسين »] .

(٧) يؤيد « موبيوس » (١٩٠٠) الرأى الذى يوجب الحرص فى تشخيص الانحلال وينسب لهذا التشخيص قيمة عملية ضئيلة غاية الضآلة : « إن جلنا ببصرنا فى المجال الفسيح الذى يشغله الانحلال — وقد ألقت عليه هذه الصفحات بصيصاً من الضوء — اتضح لنا تواً أن تشخيص الانحلال ، إن قمنا به على الإطلاق ، ذو قيمة عملية ضئيلة » .

(٨) لا بد من التسليم بأن الناطقين باسم « اللواط » محقون فى دعواهم أن بعضاً من أبرز رجال التاريخ قاطبة كانوا مرتكسين بل ومرتكسين على وجه الإطلاق .

(٩) لقد حلت وجهة النظر الأنثروبولوجية محل وجهة النظر المرضية فى دراسة الارتكاس . ويعود الفضل فى إحداث هذا التغيير إلى « بلوخ » (Bloch) (١٩٠٢ — ١٩٠٣) الذى أبرز كذلك ورود الارتكاس فى حضارات العالم القديم .

(١٠) قارن آخر أوصاف الخنثوية الجسمية : « تاروفى » (Taruffi) (١٩٠٣) ومقالات « نيوجيبارو » (Neugebauer) العديدة فى مختلف مجلدات Jahrbuch für sexuelle Zwischenstufen.

(١١) تتضمن هذه المقالة ثبتا بمراجع الموضوع .

(١٢) يتضح (من ثبت المراجع الوارد بالمجلد السادس من Jahrbuch für sexuelle Zwischenstufen) أن « إ . جلاى » (E. Glay) كان أول كاتب يوحى بأن الجنسية الثنائية تفسر الارتكاس . فقد نشر منذ أمد طويل ، أى فى يناير ١٨٤٤ ، مقالا فى «المجلة الفلسفية» (La Revue Philosophique) باسم

« انحرافات الغريزة الجنسية » (Les abérrations de l'instinct sexuel) .
وجدير بالذكر أيضاً أن غالبية المؤلفين الذين يستنبطون الارتكاس من الجنسية الثنائية لا يبرزون هذا العامل فى حالة المرتكسين فحسب بل فى حالة من كان نموه سوياً أيضاً . والنتيجة المنطقية هى أنهم يعتبرون الارتكاس نتيجة لاختلال النمو . وقد سبق لـ « شفالييه » (Chevalier) (١٨٩٣) أن كتب بهذا المعنى . وينوه « كرافت – إيبنج » (Kraft-Ebing) بأن عدداً كبيراً من المشاهدات « يثبت بقاء هذا المركز الثانى (مركز الجنس التابع) بقاء بالقوة على الأقل » . ويؤكد من يدعى بالدكتور « أردوين» (Arduin) (١٩٠٠) « وجود عناصر مذكرة ومؤنثة فى كل كائن (قارن « هيرشفلد » Hirschfeld) (١٨٩٩) ، بيد أن إحدى هاتين المجموعتين لا تفتأ تنمو نمواً طاغى القوة وفقاً للجنس الذى ينتمى إليه الشخص وبالنسبة للأفراد ذوى الجنسية الغيرية . . . » . ويعتقد « هرمان » (Herman) (١٩٠٣) أن « العناصر والخصائص الذكرية حاضرة لدى كل امرأة والعناصر والخصائص الأنثوية لدى كل رجل » إلخ . [إضافة ١٩١٠] : وقد ادعى « فليس » (Fliess) (١٩٠٦) فيما بعد أن فكرة الجنسية الثنائية بمعنى (ثنائية الجنس) فكرته هو نفسه . [إضافة ١٩٢٤] : وتعتبر الدوائر غير الطبية فرض الجنسية الثنائية الإنسانية من وضع الفيلسوف « أ . فاينينجر » (O. Weininger) الذى وافته المنية فى سن مبكرة والذى جعل من هذه الفكرة أساساً لكتاب يعزوه الاتزان إلى حد ما (١٩٠٣) . وما أوردت من شذرات فيما أنف يكفى لإظهار ضآلة مسوغات هذا الادعاء .

[إن تحقق فرويد من أهمية الجنسية الثنائية (قارن الهامش رقم ١٩ من المقالة الثالثة) مدين فيه بالكثير لـ « فليس » ، وميله إلى نسيان هذه الحقيقة مدة بمثال قام بتحليله فى كتابه « علم النفس المرضى فى الحياة اليومية » ، ١٩٠١ ، الفصل ٧ . ومع ذلك فهو لم يقبل رأى « فليس » فى أن الجنسية الثنائية تفسر الكبت . انظر مناقشة فرويد لهذه النقطة فى مقالة « طفل

يُضرب » (١٩١٩) ، منتصف القسم ٦ . ويعرض « كريس » (Kris) للموضوع بأسره تفصيلا فى القسم الرابع من مقدمته على رسائل فرويد لـ « فليس » (فرويد ١٩٥٠) .]

(١٣) [أضيفت هذه العبارة الأخيرة ١٩١٥ — وهذا الهامش أضيف ١٩١٠] : الحق أن التحليل النفسى لم يأت بعد بتفسير كامل لأصل الارتكاس ، إلا أنه اكتشف العملية النفسية المسئولة عن نموه وأضاف إضافات جوهرية إلى صياغة المشاكل التى يثيرها . وفى كل الحالات التى فحصناها برهنا على أن مرتكسى المستقبل يمرون فى سنوات طفولتهم الأولى بمرحلة عنيفة رغم قصرها من التثبيت على امرأة (هى أمهم عادة) ، وأنهم يتوحدون فيما بعد بامرأة ويتخذون من أنفسهم موضوعاً جنسيًّا لهم . أى أن أساس سلوكهم نرجسى ، فهم يبحثون عن يافع شبيه بهم فيحبونه كما أحبتهم أمهم . أضف إلى ذلك أننا كثيراً ما نجد أن المرتكسين المزعومين ليسوا ألبتة جامدى الإحساس بمحاسن النساء بل إنهم لا يفتأون ينقلون إلى موضوع ذكرىّ ما تحدثه النساء فى أنفسهم من إثارة . ومن ثمة فهم يعيدون العملية النفسية المسئولة عن ظهور الارتكاس المرة تلو المرة على مدى الحياة. وقد تبين أن سعيهم القهرى إلى الرجال صادر عن هربهم الدائم من النساء .

[وعند هذه النقطة يستمر الهامش، فى طبعة ١٩١٠ وحدها ، كما يلى: « بيد أنه يجب أن نذكر أن التحليل النفسى لم يتناول حتى الآن إلا نمطاً واحداً من المرتكسين — أعنى من عوقت حياتهم الجنسية عامة وظهرت بقاياها فى صورة الارتكاس . ومشكلة الارتكاس معقدة غاية التعقيد وتتضمن أنماطاً من النشاط الجنسى والنمو منوعة غاية التنوع . وينبغى التمييز بين مختلف حالات الارتكاس ، وفقاً لوقوع الارتكاس فى الطابع الجنسى للموضوع أو للذات »] .

[إضافة ١٩١٥] : ويعارض التحليل النفسى معارضة قاطعة أية محاولة لفصل المرتكسين عن سائر بنى البشر وجعلهم جماعة ذات طابع خاص . وحين درس التهيجات الجنسية التى تختلف عما يتبدى منها صراحة ،

وجد أن الناس جميعاً قادرون على القيام باختيار جنسى مثلى وأنهم بالفعل قد قاموا بمثل هذا الاختيار لا شعورياً . والواقع أن التعلق اللبيدى بأشخاص من نفس الجنس يقوم – بالنسبة للحياة النفسية السوية – بدور لا يقل أهمية عن التعلق المماثل بالجنس الآخر ، والدور الذى يؤديه – بوصفه قوة دافعة للمرض – أعظم كذلك . وعلى الضد ، يعتبر التحليل النفسى أن اختيار الموضوع مستقلا عن جنسه – وهى حرية تشمل الموضوعات الذكرية والأنثوية على حد سواء – على نحو ما نجد فى الطفولة والمراحل البدائية للمجتمع وفترات التاريخ المبكرة ، هو الأساس الأصيل الذى تفرعت عنه كل من الأنماط السوية والمرتكسة ، نتيجة لحدوث تقييد فى اتجاه أو آخر . ومن ثمة فإن ما يستشعره الرجال حيال النساء من اهتمام مقصور عليهن ، يثير مشكلة تتطلب توضيحاً من وجهة نظر التحليل النفسى ، فهو ليس واقعة بينة بذاتها أساسها – فى النهاية – جاذبية ذات طبيعة كيمائية . وموقف الشخص الجنسى النهائى لا يتحدد إلا بعد البلوغ وهو نتيجة لعدد من العوامل التى لا نعرفها بعد كلها ، فبعضها ذو طبيعة جبلية والبعض الآخر عرضى . وقد يحدث أن يُثقل عدد صغير من هذه العوامل بحمل كبير يؤثر فى النتيجة بما يساير وجهة هذه العوامل . بيد أن تعدد العوامل المؤثرة ينعكس عادة فى تنوع الاتجاهات الجنسية الظاهرية التى يتجهها بنو البشر . ونحن نجد دائماً أن الغلبة فى الأنماط المرتكسة تكون للجبلات الأولية والعمليات النفسية البدائية . وإن أهم خصائصها الجوهرية – على ما يلوح – اختيار الموضوع اختياراً نرجسياً واستبقاء المعنى الشبقى للمنطقة الشرجية . غير أنا لا نكسب شيئاً إن فصلنا – على أساس هذا النوع من الخصائص الجبلية – أنماط الارتكاس القصوى عن غيرها ، إذ يمكن أن نبين أن ما نجده تفسيراً كافياً فى الظاهر لهذه الأنماط ، يوجد بالمثل – على نحو أقل قوة – فى جبلة الأنماط الانتقالية وجبلة من يكون موقفه الظاهر سوياً . وطبيعة الاختلافات بين النتائج النهائية قد تكون كيفية ، على حين يبين التحليل أن الاختلافات بين العناصر المقومة لها

لا يعدو أن يكون كميًّا . وقد وجدنا أن الحرمان (فى صورة الإحجام المبكر عن النشاط الجنسى ، خوفاً منه) يستوقف النظر دون العوامل العارضة التى تؤثر فى اختيار الموضوع ، ولاحظنا أن وجود كلا الوالدين يقوم بدور هام . وليس من النادر أن يكون غياب والد قوى فى الطفولة محبذاً على حدوث الارتكاس . وأخيراً نؤكد أنه يجب أن نميز مفهوم الارتكاس بالنسبة للموضوع الجنسى تمييزاً قاطعاً عن مجرد ورود مزيج من السمات الجنسية لدى فرد ما . وثمة أيضاً درجة من الاستقلال ، لا يمكن إغفالها ، فى العلاقة بين هذه العاملين .

[إضافة ١٩٢٠] : أبرز «فيرنزى» Ferenezi (١٩١٤) عدداً من النقط المشوقة خاصة بموضوع الارتكاس . فهو يحتج بحق على أن حشداً من الحالات التى تشترك فى عرض الارتكاس وتختلف فيما بينها غاية الاختلاف كما تتفاوت أهميتها من النواحى العضوية والنفسية جميعاً ، قد جمعت تحت اسم « الجنسية المثلية » (أو « عشق الجنس نفسه » ، بحسب تسميته إياها تسمية أفضل) . وهو يؤكد وجوب وضع تمييز قاطع بين نمطين على الأقل : « عشاق نفس الجنس من حيث الذات » وهم شبه النساء حسًّا ومسلكاً و « عشاق نفس الجنس من حيث الموضوع » وهم أفراد مكتملو الذكورة استبدلوا موضوعاً ذكريًّا بموضوع أنثوىّ . ويسلم بأن أول هذين النمطين هم « متوسطو الجنس » الحقيقيون ، بالمعنى الذى يحدده « هيرشفلد » لهذه اللفظة : ويصف النمط الثانى — على نحو أقل توفيقاً — بأنهم عصابيون وسواسيون . وفى رأيه أن وجود صراع ضد الارتكاس أو احتمال التأثير النفسى فيه مقصوران على حالة عشاق نفس الجنس من حيث الموضوع . ومع تسليمنا بوجود هذين النمطين ، نضيف أن ثمة عدداً غفيراً من الناس لديهم قدر معلوم من عشق نفس الجنس من حيث الذات ممتزج بنسبة من عشق نفس الجنس من حيث الموضوع .

وقد ألقت أعمال علماء الحياة ولا سيما « شتاينباخ » (Steinbach) فى السنوات القليلة الماضية ، ضوءاً قويًّا على المقومات العضوية لعشق نفس

الجنس والطبائع الجنسية عامة . فالخصاء التجريبى ، يليه التطعيم بالغدد الجنسية للجنس الآخر ، أتاح — فى حالة أنواع الثدييات المختلفة — تحويل الذكر إلى أنثى والعكس بالعكس . وقد أثر التحويل تأثيراً متفاوتاً فى كل من الصفات الجسمية والاتجاه النفسى الجنسى (أى فى كل من شبقية الذات وشبقية الموضوع) . وقد اتضح أن ناقل القوة التى حددت الجنس على هذا النحو هو ما يعرف بالنسيج البيخلوى (« غدة البلوغ ») وليس ذلك الجزء من الغدة الجنسية الذى يؤلف الخلايا الجنسية . وفى إحدى الحالات حدث هذا التغيير الجنسى بالفعل لدى رجل أفقده السل خصيتيه . فكان فى حياته الجنسية يسلك مسلكاً أنثوياً وكأنه لواطى سلبى وبدت عليه صفات جنسية أنثوية من النوع الثانوى واضحة غاية الوضوح (فيما يتعلق مثلا بنمو الشعر واللحية وتراكم الشحم فى الأثداء والأرداف) . وبعد أن طعم بخصية لم تهبط لدى مريض آخر بدأ يسلك مسلكاً ذكرياً ويوجه اللبيدو لديه وجهة النساء على نحو سوى . وفى الآن ذاته اختفت عنه صفاته الأنثوية الجسمية (ليبشتز (Lipschütz) ١٩١٩) .

ولا يحق الادعاء بأن هذه التجارب المشوقة تقيم نظرية الارتكاس على أساس جديد ، ومن العجلة أن نتوقع منها أن تمدنا بوسيلة شاملة « لشفاء » الجنسية المثلية . وقد أكد « فليس » بحق أن هذه النتائج التجريبية لا تبطل نظرية الاستعداد الجنسى الثنائى العام لدى الحيوانات العليا . ويبدو على الضد أن من المرجح أن يؤدى المزيد من البحث المماثل إلى تأييد افتراض الجنسية الثنائية تأييداً مباشراً .

(١٤) [هامش أضيف ١٩١٠] : إن أهم فارق ملفت بين الحياة العشقية فى العالم القديم وحياتنا العشقية نحن ينحصر فى أن القدامى أكدوا الغريزة نفسها بينما نحن نؤكد موضوعها . فقد مجد الأقدمون الغريزة وكانوا لذلك على استعداد لتكريم حتى الموضوعات ذات المرتبة الدنيا ، على حين أننا نحتقر النشاط الغرزى ذاته ونلتمس له الأعذار فى مزايا الموضوع وحدها .

(١٥) لا يسعنى بهذا الصدد إلا أن أذكّر بما يبديه الشخص المنوّم تجاه منومه

من خضوع ساذج ، يدعونى إلى الرجم بأن جوهر التنويم ينحصر فى تثبيت ليبدو الشخص تثبيتاً لاشعوريًّا على شخص المنوم ، عن طريق المركبات المازوخية للغريزة الجنسية . [إضافة ١٩١٠] : وقد ربط « فيرنزى » (١٩٠٩) بين صفة القابلية للإيحاء هذه و « مركب الوالدين » . [وصف « فرويد » فيما بعد علاقة الفرد بالمنوم فى الفصل الثامن من « **علم النفس الجماعى وتحليل الأنا** » (١٩٢١)] .

(١٦) [فى الطبعات السابقة على ١٩٢٠ ، اختتمت هذه الفقرة بعبارة أخرى هى : « إن انبثاق هذه الامتدادات التشريحية المنوعة غاية التنوع ينطوى بوضوح على وجود حاجة للتنويع ، وهو ما وصفه « هوخ » (Hoche) بـ « التشوف إلى التنبيه » . وقد أضيفت العبارتان الأوليان من الهامش التالى فى ١٩١٥ ، وكان يبدأ قبل ذلك بالعبارة : « إن مزيداً من التأمل يجعلنى أخلص بأن « أ . بلوخ » قد بالغ فى تقدير الأهمية النظرية لعامل «التشوف إلى التنبيه» . وقد أعيد صياغة كل من الهامش والفقرة فى النص بصورتهما الحاضرة فى ١٩٢٠] : ولابد من الإشارة إلى أن المبالغة فى التقويم الجنسى لا تحدث فى حالة كل عملية اختيار للموضوع . وسوف نعرف فيما بعد تفسيراً مباشراً آخر للدور الجنسى الذى تؤديه أجزاء الجسم الأخرى . ولقد وضع « هوخ » و « بلوخ » عامل « التشوف إلى التنبيه » تفسيراً لامتداد الاهتمام الجنسى إلى أجزاء الجسم الأخرى غير الأعضاء التناسلية ، ولكنه لا يبدو لى جديراً بمثل هذا الاهتمام الهام . فالقنوات المختلفة التى يعبرها الليبدو مترابطة منذ البداية كالأنابيب المستطرقة ولابد من أن نحسب حساب ظاهرة التدفق الجانبى .

(١٧) [هامش أضيف ١٩٢٠] : فى حالات معينة لا تبدى النساء أية مبالغة جنسية فى تقويمهن الرجال ولكن يندر ألا يبالغن فى تقويمهن أطفالهن .

(١٨) مثل هذا الضعف يمثل الشرط الجبلى الأول . وقد وجد التحليل النفسى أن الظاهرة قد تكون مشروطة عرضيًّا ، نتيجة لإحجام مبكر عن النشاط الجنسى مرده إلى الخوف . وهذا الخوف قد يحيد بالفرد عن الهدف الجنسى السوى ويشجعه على البحث عن بديل له .

(١٩) Schaff'mir ein Halstuch von ihren Brust
Ein Stumpfband meiner Liebeslust !
Gœthe, Faust. I, 7.

(٢٠) [هامش أضيف ١٩٢٠]: وجه التحليل النفسى – فى تعمقه البحث – نقداً مصيباً إلى قضية « بينيه » (Binet) . فالمشاهدات المتصلة بهذه النقطة سجلت جميعها حدوث لقاء أول بالفتش ، استثير فيه الاهتمام الجنسى ، دون أن يوجد فى الظروف المصاحبة له ما يفسر هذه الاستثارة . أضف إلى ذلك أن كل هذه الانطباعات الجنسية « المبكرة » ترجع إلى فترة ما بعد الخامسة أو السادسة بينما يشككنا التحليل النفسى فى إمكان حدوث تثبيتات مرضية جديدة فى مثل هذا التاريخ المتأخر . والتفسير الحق أن ثمة مرحلة مطمورة منسية من مراحل النمو الجنسى تقع خلف الذكرى الأولى لظهور الفتش . ويمثل الفتش هذه المرحلة ، فهو من ثمة بقية من بقاياها ورواسب من رواسبها ، شأنه فى هذا شأن « الذكرى الساترة » . أما اتجاه هذه المرحلة الطفلية المبكرة إلى الفتشية واختيار الفتش ذاته ، فأمران تحددهما الجبلة .

(٢١) [هامش أضيف ١٩١٠]: الحذاء أو النعل هما الرمز المقابل للأعضاء التناسلية الأنثوية .

(٢٢) [هامش أضيف ١٩١٠] : لقد سد التحليل النفسى أحد الثغرات الباقية فى فهمنا الفتشية . فلقد دلل ، فيما يتعلق باختيار الفتش ، على أهمية لذة تتعلق بالبراز وتنحصر فى الشم ، اختفت بتأثير الكبت . فالقدم والشعر موضوعان ذوا رائحة قوية ، رفعا إلى مصاف الفتشات بعد أن فقد إحساس الشم طابعه اللذيذ ، فترك جانبا . لذلك تصبح الأقدام القذرة بغيضة الرائحة وحدها موضوعات جنسية ، فى الانحراف المقابل لفتشية القدم . وتنطوى نظريات الأطفال الجنسية على عامل آخر يساعد على تفسير تفضيل القدم تفضيلا فتشياً (انظر فيما بعد) . فالقدم بديل عن القضيب لدى المرأة التى تفتقده افتقاداً عظيما . [إضافة ١٩١٥] : وفى عدد من حالات

فتشية القدم أمكن تبيان أن غريزة حب النظر توقفت فى الطريق — نتيجة للتحريم والكبت — وهى تسعى إلى إدراك موضوعها سرًّا، ألا وهو الأعضاء التناسلية أصلا. ولهذا السبب أصبحت مرتبطة بالفتش فى صورة القدم أو الحذاء لأن الأعضاء التناسلية الأنثوية تتخذ فى المخيلة صورة الأعضاء التناسلية الذكرية (وفقاً لتوقعات الطفولة). — [ذكر فرويد، فى رسالتين إلى « فليس » بتاريخ ١١ يناير و ١٤ نوفمبر ١٨٩٧ (١٩٥٠ رسالتان رقم ٥٥ و ٧٥)، أهمية كبت اللذة المتصلة بحاسة الشم. وعاد إلى الموضوع فى مختتم تحليله «رجل الجرذان» (فرويد ١٩٠٩) وأفاض فى مناقشته فى هامشين طويلين من هوامش الفصل الرابع من كتاب « الحضارة ومنغصاتها » (١٩٣٠). ويفحص فرويد موضوع الفتشية من جديد فى مقال له بهذا العنوان (١٩٢٧)، وأخيراً فى شذرات نشرت بعد موته عن « انفصام الأنا » (١٩٤٠)، وفى نهاية الفصل الثامن من كتابه « الموجز فى التحليل النفسى » (١٩٤٠)].

(٢٣) أضيفت كلمات هذين القوسين سنة ١٩١٥.

(٢٤) [هذه — على ما يبدو — هى أول مرة يستخدم فيها فرويد كلمة « يتسامى » فى كتاباته المنشورة رغم أنها قد وردت منذ ٢ مايو ١٨٩٢ فى رسالة إلى « فليس » (فرويد ١٩٥٠ الرسالة رقم ٦١). وكذلك ظهرت فى حالة « دورا » (١٩٠٥) التى نشرت بعد نشر الكتاب الحالى مع أنها قد كتبت فى ١٩٠١. ويرجع فرويد إلى مناقشة هذا المفهوم فى المقالة الثانية من الكتاب الحالى، ص ٦٤ — هامش أضيف ١٩١٥:] لا شك عندى أن مفهوم « الجمال » يضرب بجذوره فى التهيج الجنسى وأنه يعنى أصلا « ما ينبه جنسيًّا » [ثمة إشارة فى الأصل إلى أن الكلمة الألمانية (Reiz) تستخدم عادة مقابلا فنيًّا لكلمة « منبه » وفى اللغة الدارجة مرادفاً لكلمتى «فتنة» (Charm) أو « جاذبية» (Attraction) بالإنجليزية]. وهذا مرتبط بأننا لا نعتبر قط الأعضاء التناسلية ذاتها « جميلة » حقًّا وإن كانت تولد أقوى إثارة جنسية.

(٢٥) [فى الطبعات السابقة على ١٩٢٤، نقرأ « حالة واحدة حاللتها »].

(٢٦) [هامش أضيف ١٩٢٠] يكشف التحليل فى هذه الانحرافات — وفى معظم ما عداها — عن تنوع غير متوقع فى الدوافع والدلالات . فالدافع القهرى إلى الاستعراض مثلا وثيق الصلة كذلك بعقدة الخصاء ، ففيه توكيد مستمر لسلامة الأعضاء التناسلية (الذكرية) لدى الفرد واستعادة للإشباع الطفلى الصادر عن عدم وجود القضيب ضمن أعضاء المرأة التناسلية .

(٢٧) [فى طبعتى ١٩٠٥ و ١٩١٠ ظهرت العبارتان التاليتان عند هذه النقطة من النص : « يمكن أن نستنتج أحد جذور المازوخية استنتاجاً مماثلا فى يقينه . فهى تنشأ عن المبالغة فى التقويم الجنسى من حيث إن هذه المبالغة نتيجة نفسية ضرورية لاختيار أحد الموضوعات الجنسية » . ومن ١٩١٥ فصاعداً حذفت هاتان العبارتان وأدرجت محلهما الفقرتان التاليتان] .

(٢٨) [هامش أضيف ١٩٢٤] : إن التأملات اللاحقة القائمة على بعض الفروض فى بناء الجهاز النفسى وأنواع الغرائز العاملة فيه ، عدلت حكمى على المازوخية إلى حد بعيد — فقد انسقت إلى التسليم بوجود مازوخية أولية — شهوية — تصدر عنها فيما بعد صورتان ، هما المازوخية الأنثوية والمازوخية الأخلاقية . والسادية المعطلة فى الحياة — بارتدادها على الشخص ذاته — تكوّن المازوخية الثانوية التى تنضاف إلى المازوخية الأولية . (قارن فرويد ١٩٢٤) .

(٢٩) [وردت هذه الفقرة القصيرة فى الطبعة الأولى (١٩٠٥) ولم تضف الفقرتان الأخيرتان ولا الفقرة التالية لهما إلا فى ١٩١٥] .

(٣٠) [هامش أضيف ١٩١٥] : قارن فى تأييد هذا الرأى ملاحظاتى المذكورة فيما بعد عن مراحل النمو القبلتناسلية .

(٣١) [هامش أضيف ١٩٢٤] قادنى آخر الأبحاث المذكورة [هامش ٢٨] إلى أن أحدد لزوج الأضداد المؤلف من السادية والمازوخية ، مركزاً خاصاً أساسه أصل الغرائز ، وأن أضعهما خارج فئة « الانحرافات » الأخرى .

(٣٢) بدلا من أن أعدد البينات على هذه القضية ، أكتفى باقتباس فقرة من

« هافلوك — أبليس » (١٩١٣) : « إن استقصاء حالات السادية والمازوخية ، حتى التي يعرضها « كرافت — إيبنج » (كما نوه بذلك « كولان سكوت » و « فيرى » بالفعل من قبل) تكشف دائماً عن وجود آثار من كل من المجموعتين من الظواهر لدى الفرد نفسه » .

(٣٣) [هامش أضيف ١٩١٥]: قارن فيما يلى مناقشتى موضوع « ثنائية الميول » .

(٣٤) [لم يرد النصف الأخير من العبارة فى طبعتى ١٩٠٥ و ١٩١٠ . وفى ١٩١٥ أضيفت العبارة التالية : « وهو تضاد يرتد فى التحليل النفسى إلى تضاد الإيجاب والسلب » . وقد استبدلت بهذه العبارة الكلمات الواردة فى النص] .

(٣٥) [جوته ، فاوست ، التمهيد .

فى رسالة إلى « فليس » بتاريخ ٣ يناير ١٨٩٧ (فرويد ١٩٥٠ ، الرسالة رقم ٥٤) يقترح فرويد استخدام هذا الشاهد ذاته شعاراً لفصل فى « الجنسية » من كتاب يريد تأليفه . وقد كتبت هذه الرسالة فى فترة بدأ فيها يولى الانحرافات اهتمامه . ونجد أول إشارة إلى الانحرافات فى رسائله إلى « فليس » بتاريخ أول يناير ١٨٩٦ (المسودة K)] .

(٣٦) [هامش أضيف ١٩١٣] : ومن جهة أخرى ، فلا بد من اعتبار هذه القوى التى تحتجز النمو الجنسى — الاشمئزاز والحياء والأخلاق — رواسب تاريخية لما تعرضت له الغريزة الجنسية من أنواع الكف الخارجية إبان النشأة النفسية للإنسانية . ويمكن ملاحظة كيف تظهر فى اللحظة الملائمة من نمو الأفراد ظهوراً كأنه تلقائى بإشارة من التنشئة والتأثير الخارجى .

(٣٧) [هامش أضيف ١٩٢٠] : ألاحظ مستبقاً ما سيرد فى نشأة الانحرافات ، أن ثمة أساساً لافتراض أن البدايات المبتسرة للنمو الجنسى السوى تظهر ، كما هى الحال فى الفتشية ، قبل أن تتخذ الانحرافات صورة ثابتة . وقد تمكن الفحص التحليلى فى حالات متفرقة من إظهار أن الانحراف وقفة فى النمو المتجه إلى عقدة أوديب وأن مقومات الغريزة الجنسية الأقوى

فى الاستعداد الفطرى للفرد تبرز ثانية إثر كبت تلك العقدة .

(٣٨) [قبل ١٩١٥ كانت كلمات «البارانويا على الأرجح» تحل محل الكلمات الثمانى الأخيرة من هذه العبارة] .

(٣٩) [فى ١٩٠٥ « عشر سنوات » ، وكان الرقم يزيد مع كل طبعة حتى ١٩٢٠] .

(٤٠) [هامش أضيف ١٩٢٠] : لست أختزل هذه الصيغة بل أتوسع فيها حين أعدلها كالآتى : تعتمد الأعراض العصابية من ناحية على مطالب الغرائز اللبيدية ، ومن ناحية أخرى على احتجاج الأنا ورده عليها .

(٤١) يقول « بروير » [فى الفقرة الثانية من أول حالة ، بروير وفرويد ١٨٩٥] عن مريضته التى اتبع معها لأول مرة طريقة التنفيس : « كان العامل الجنسى فى حالة عجيبة من عدم النمو » .

(٤٢) [يفصل فرويد دراسة هذا الموضوع فى مقالته عن الأنماط المختلفة فى العصاب (١٩١٢) .]

(٤٣) [عبر فرويد عن هذه الفكرة بهذه الألفاظ ذاتها فى رسالته إلى « فليس » بتاريخ ٢٤ يناير ١٨٩٧ (فرويد ١٩٥٠ ، الرسالة رقم ٥٧) ، ولكنه سبق أن ضمنها رسالتين بتاريخ ٦ ديسمبر ١٨٩٦ و ١١ يناير ١٨٩٧ (الرسالتان رقم ٥٢ و٥٥) ، وأوردها أيضاً فى حالة « دورا » (١٩٠٥) .]
إن أخيلة المنحرفين الشعورية الواضحة التى تتحول فى الظروف المواتية إلى سلوك ظاهرى والمخاوف الهذائية التى يسقطها مرضى البارانويا على الغير إسقاطاً عدائياً وأخيلة الهستيريين اللاشعورية التى يكشفها التحليل النفسى وراء الأعراض لديهم ، تتطابق كلها من حيث المضمون تطابقاً يبلغ حد التفاصيل .

(٤٤) كثيراً ما ترتبط الأعصبة بالارتكاس الظاهر ، وإذ ذاك يكون تيار الجنسية الغيرية قد تعرض لكبت شامل . — ومن الإنصاف أن أذكر أن « فلهلم فليس » فى برلين هو أول من نبهنى إلى شمول الميل إلى الارتكاس لدى العصابيين شمولا ضروريا ، إثر تعرضى لمناقشة وجوده فى حالات فردية . —

[إضافة ١٩٢٠] : ولا بد أن تؤثر هذه الحقيقة التى لم تقدر بعد حق قدرها تأثيراً حاسماً فى كل نظريات الجنسية المثلية .

(٤٥) [تظهر كلمة « الغريزة الجزئية » هنا لأول مرة فى أعمال فرويد المنشورة ، وإن كان المفهوم ذاته قد أدخل فيما سبق ص٥٢] .

(٤٦) [فى الطبعات السابقة على ١٩٢٠ ، يعدد فرويد ثلاثة من مثل هذه « الوقائع الخاصة » . أولاها — وقد حذفت فيما بعد — كانت كالآتى : « ليس ثمة ما يقابل الميل إلى الفتشية ضمن تيارات التفكير اللاشعورية فى الأعصبة — وهى ملابسة توضح إحدى الخصائص النفسية لهذا الانحراف الذى نفهمه خير الفهم »] .

(٤٧) [يبدو أن هذه هى المرة الأولى التى ترد فيها كلمة « منطقة شهوية » منشورة . وقد سبق لفرويد استخدامها فى رسالة إلى « فليس » بتاريخ ٦ ديسمبر ١٨٩٦ (فرويد ١٩٥٠ ، الرسالة رقم ٥٢) وهى ترد كذلك فى فقرة من القسم الأول من حالة « دورا » (١٩٠٥) التى كتبت — كما هو معروف — فى ١٩٠١ . ومن الواضح أنها صيغت على نمط كلمة « منطقة هستيرية » التى كانت إذ ذاك ذائعة الاستعمال] .

(٤٨) [أضيفت هذه الجملة ، من هذا الموضع حتى آخر الفقرة ، فى ١٩١٥ . وقد ظهرت فى الطبعتين الأوليين (١٩١٠ و ١٩١٥) العبارات التالية بدلا عنها : « ويمكن أن نميز فيها [الغرائز الجزئية] (فضلا عن « غريزة » غير جنسية فى ذاتها مصدرها الدوافع الحركية) جانباً يسهم به عضو قادر على تقبل المنبهات (أى البشرة والغشاء المخاطى أو أحد أعضاء الحس) . ونحن نصف عضواً من هذا القبيل بأنه « منطقة شهوية » ، بأنه عضو يخلع — إذ يستثار — على الغريزة طابعاً جنسيًّا » . — والصيغة المنقحة ترجع إلى فترة كتابة فرويد مقاله فى « الغرائز ومصائرها » (١٩١٥) ، وفيه فحص شامل للموضوع] .

(٤٩) [هامش أضيف ١٩٢٤] : إن نظرية الغرائز لهى أهم جزء من أجزاء نظرية التحليل النفسى رغم أنه أقلها كمالا . وقد أضفت لنظرية الغرائز

إضافات جديدة فى عملين من أعمالى المتأخرة هما « **ما وراء مبدأ اللذة** » (١٩٢٠) و « **الأنا والهو** » (١٩٢٣) .

(٥٠) [هامش أضيف ١٩١٥] : ليس من اليسير ههنا تبرير هذه الفروض المستمدة من دراسة طائفة خاصة من الأمراض العصبية . بيد أن من المحال — من جهة أخرى — ذكر أى شىء ذى قيمة إن أغفلنا هذه الفروض إغفالاً تاماً .

(٥١) [العبارة بين القوسين أضيفت فى ١٩٢٠] .

(٥٢) لا بد من أن نذكر ههنا موقف « مول » (Moll) الذى يقسم الغريزة الجنسية إلى غريزة ملامسة (Kontrektationestrieb) وغريزة تفريغ (Detumeszenztrieb) وتدل الملامسة على الحاجة إلى لمس البشرة . [يصف « مول » (١٨٩٨) غريزة التفريغ بأنها حافز إلى تصريف توتر الأعضاء التناسلية تصريفاً تشنجياً ، وغريزة الملامسة بأنها الدافع إلى الاتصال بالآخر . وهو يعتقد أن الحافز الأخير يتأخر عن الأول فى الظهور إبان نمو الفرد . (انظر الهامش ١٨ من المقالة الثانية) . — والعبارة التالية أضيفت إلى نهاية هذا الهامش فى ١٩٠٥ و ١٩١٠ ولكنها حذفت فيما بعد : كان « ستروهماير » مصيباً كل الإصابة فى استنتاجه — بصدد حالة موضع فحصه — أن التأنيب الوسواسى للنفس صادر عن دوافع سادية مكبوتة »] .

هوامش المقالة الثانية

(١) [هامش أضيف ١٩١٥] : لا يمكن معرفة الدور الذى تؤديه الوراثة معرفة صحيحة ما لم نحدد الدور الذى تقوم به الطفولة .

(٢) لقد بدا لى فيما بعد أن الدعوى المذكورة من الجرأة بحيث أخذت على عاتقى مهمة اختبار صدقها باستعراض ما كتب فى الموضوع ثانية . ونتيجة هذا الاختبار أنى تركتها بغير تعديل . فما زال الفحص العلمى لكل من الظواهر الجسمية والنفسية الخاصة بالجنسية فى الطفولة فى أولى بداياته . ويقول أحد الكتاب وهو « س. بل» (S. Bell) (١٩٠٢ ، ص ٣٢٧) : « لا أعرف عالماً عنى بتحليل الانفعال كما يرى لدى المراهق* » . ولم تلق الظواهر الجنسية الجسمية فى فترة ما قبل البلوغ انتباهاً إلا لصلتها بظواهر الانحلال وبوصفها إمارات على الانحلال . — ولسنا نجد فصلا عن الحياة العشقية لدى الأطفال ضمن كل الأوصاف التى قرأتها فى سيكولوجية هذا العمر . وهو ما يصدق على أعمال « بريير » (Preyer) (١٨٨٢) المعروفة و « بولدوين » (Baldwin) (١٨٩٨) و « بيريز » (Pérez) (١٨٨٦) و « شتومبيل » (Stuempell) (١٨٩٩) و « جروس » (Groos) (١٩٠٤) و « هيلر » (Heller) (١٩٠٤) و « سالى (Sully) (١٨٩٥) وغيرهم . ويمكن الخروج بأحسن الأفكار عن الوضع الحالى فى هذا الميدان من مجلة (Die Kinderfehler) (منذ ١٨٩٦ وما يليها) . ومهما كان الأمر فإننا ننتهى إلى الاعتقاد بأن وجود الحب فى الطفولة غير مفتقر إلى اكتشاف ف « بيريز » يؤيد وجوده ، ويذكر « جروس » ما يعتبره أمراً يسلم به الجميع وهو أن « بعض الأطفال قادرون على الشعور بالحوافز الجنسية فى سن مبكرة جداً ويحسون بدافع إلى الاتصال بالجنس الآخر » . ويسجل

* بالإنجليزية فى النص . (المترجم)

« بل » ، لدى طفل فى وسط سنته الثالثة ، أشد حالات الحب الجنسى (Sex-love)* تبكيراً . — قارن فى هذه النقطة « هافلوك — إيليس » (Havelock Ellis) (١٩١٣ ، الملحق ب) .

[إضافة ١٩١٠] لا حاجة للتمسك بهذا الحكم على الكتابات الخاصة بالجنسية الطفلية منذ أن ظهر كتاب « ستانلى هول » (Stanley Hall) [١٩٠٤] الجامع . ولا يتطلب كتاب « مول» (Moll) الأخير (١٩٠٩) مثل هذا التعديل . ومن جهة أخرى انظر « بلوير » (Bleuler) (١٩٠٨) .

[إضافة ١٩١٥] : ومن ذلك الحين ، وفى كتاب « هوج — هاموت » (Hug-Hellmuth) (١٩١٣) هذا العامل المهم حقه بالكامل.

(٣) حاولت أن أحل إحدى المشكلات المتصلة بأوائل ذكريات الطفولة فى مقال عن « الذكريات الساترة » (١٨٩٩) . [إضافة ١٩٢٤ :] انظر أيضاً الفصل الرابع من كتاب « علم النفس المرضى فى الحياة اليومية » (١٩٠١) .

(٤) [هامش أضيف ١٩١٥] : لا يمكن فهم حيلة الكبت ما لم نحسب حساب كل من هاتين العمليتين المتلازمتين . ويمكن مقارنتها بالنحو الذى يُرفع به السائح إلى قمة هرم الجيزة الأكبر : فهو يُدفع من ناحية ويُجذب من ناحية أخرى . [قارن مقال فرويد فى « الكبت » ١٩١٥] .

(٥) [أى الفقرة الأخيرة من القسم الأول من مقالة « أسباب الهستيريا (١٨٩٦)] .

(٦) يمكن استخدام مصدر المعلومات الأخير ما دمنا محقين فيما نتوقعه من أن سنوات الطفولة لدى عصابى المستقبل لا تختلف فى جوهرها عن حياة من يصبحون فيما بعد أسوياء [إضافة ١٩١٥] : إلا من حيث الشدة والوضوح .

(٧) أن ثمة نظيراً تشريحيًّا ممكناً للمسلك الذى أرى أن الوظيفة الجنسية تسلكه إبان نموها ألا وهو اكتشاف « بايير » (Bayer) (١٩٠٢) أن الأعضاء

* بالانجليزية فى النص . (المترجم)

الجنسية الداخلية (الرحم) تكون عادة أكبر لدى الأطفال حديثى الميلاد منها لدى الأطفال الأكبر سنًّا .ولسنا نعرف يقينا أى رأى يجب اتخاذه حيال هذا الانكماش فى النمو الذى يحدث عقب الميلاد . وقد بين «هالبان» (Halban) أنه ينطبق أيضاً على أجزاء أخرى من الجهاز التناسلى. فى رأيه (١٩٠٤) أن عملية انكماش النمو تنتهى بعد أسابيع قليلة من الحياة خارج الرحم . (إضافة ١٩٢٠) : وقد أفضت البحوث التشريحية بالمؤلفين الذين يعتبرون الجزء البيخلوى من الغدة الجنسية هو العضو الذى يحدد الجنس ، إلى الكلام عن الجنسية الطفلية وفترة من الكمون الجنسى . وإلى أورد فقرة من كتاب « لبشوتس » (Lipschuetz) الذى ذكرته فى صفحة ١٢٣ : « ونكون أكثر إنصافاً للحقائق إن قلنا إن نضج السمات الجنسية الذى يتم فى البلوغ لا يرجع إلا إلى تزايد يطرأ إذ ذاك على عمليات بدأت قبل ذلك بزمن طويل — وفى رأينا إبان الحياة داخل الرحم » (ص ١٦٩) . « من المرجح أن ما وصفناه حتى الآن وصفاً ساذجاً بأنه البلوغ ، ما هو إلا مرحلة ثانية كبرى للبلوغ الذى يبدأ حول منتصف العقد الثانى من الحياة . . . ويمكن وصف الطفولة التى تمتد من الميلاد حتى أوائل هذه المرحلة الثانية الكبرى بأنها « مرحلة بلوغ متوسطة » (ص ١٧٠) . وقد نبه « فيرنزى » (Ferenczi) (١٩٢٠) — فى نقده كتاب « لبشوتز » — إلى هذا التطابق بين المكتشفات التشريحية والمشاهدة السيكولوجية . ولا يخل بهذا التطابق إلا التصريح بأن « القمة الأولى » لنمو العضو الجنسى تحدث فى فترة الحياة المبكرة داخل الرحم ، على حين أننا ننسب الازدهار المبكر فى الحياة الجنسية إلى السنة الثالثة والرابعة من الحياة . وليس المطلوب بالطبع أن يكون النمو التشريحى والنمو النفسى متطابقين زمنيًّا تمام التطابق . وقد أجريت البحوث المذكورة على الغدد الجنسية لدى الإنسان . ولما كانت فترة الكمون بالمعنى النفسى لا تحدث لدى الحيوان ، فمن المشوق أن نعرف إذا كانت المكتشفات التشريحية التى افترض هؤلاء الكتاب على أساسها وجود قمتين فى النمو النفسى ، يمكن التدليل على وجودها لدى الحيوانات العليا أيضاً .

(٨) أنى مدين لـ «ف. فليس» — للمرة الثانية — بلفظة « فترة الكمون الجنسى » .

(٩) (هامش أضيف ١٩١٥) : يتم التسامى بالقوى الغرزية — فى الحالة التى نناقشها ههنا — عن طريق التكوين العكسى . بيد أن من الممكن أن نميز عامة بين التسامى والتكوين العكسى باعتبارهما عمليتين مختلفتين فى مدلولهما. وقد يحدث التسامى أيضاً عن طريق عمليات أخرى أكثر بساطة . [ثمة مناقشات نظرية أخرى للتسامى فى القسم الثالث من مقال فرويد عن النرجسية (١٩١٤) وفى عدة مواضع من « الأنا والهو » (١٩٢٣ — الفصول ٣ ، ٤ ، ٥)] .

(١٠) نتبين ههنا أن الإشباع الجنسى أفضل منوم ، وهو أمر يصدق على هذه الفترة المبكرة صدقه على الحياة برمتها . ومعظم حالات الأرق العصبى ترجع إلى عدم الإشباع الجنسى . والمعروف عن المربيات العاطلات عن الضمير أنهن ينمن الأطفال إبان صراخهم بتدليك أعضائهم الجنسية .

(١١) [هذه الفقرة أضيفت فى ١٩١٥ . والفقرة التالية تحل محلها فى طبعتى ١٩٠٥ و ١٩١٠ وحدهما : « لم يرتب أى من الملاحظين فى طبيعة هذا النشاط الجنسية . إلا أن أفضل ما وضع الراشدون من نظريات قوامها هذا المثل من سلوك الأطفال الجنسى ، تتركنا فى مأزق . تأمل تقسيم « مول » (Moll) (١٨٩٨) الغريزة الجنسية إلى غريزة ملامسة وغريزة تفريغ* . ومثلنا الحالى لا يمت بصلة لأول هذين العاملين ، ولا يمكن تبين العامل الثانى فيه إلا بصعوبة نظراً لأنه يتأخر فى الظهور عن غريزة التفريغ ويكون موجهاً إلى أناس آخرين » . — وفى ١٩١٠ ، ألحق الهامش التالى بالعبارة الأولى من هذه الفقرة الملغاة : « باستثناء « مول » (١٩٠٩)] .

(١٢) [هامش أضيف ١٩٢٠] : نشر من يدعى بالدكتور « جالانت » (Galant) فى ١٩١٩ ، بعنوان « مص الأصبع » (Das Lutscherli) اعترافاً لفتاة راشدة لم تقلع عن مزاولة هذا النشاط الجنسى الطفلى ، فهى تصور الإشباع المستمد من المص الشهوى بأنه نظير مطابق للإشباع الجنسى

---

* انظر الهامش رقم ٥٢ من هوامش المقالة الأولى . (المترجم)

لا سيما إن كان هذا الإشباع مستمداً من تقبيل الحبيب : « ليست كل القبلات مكافئة للمص . كلا ثم كلا ! ومن المحال وصف النشوة التي يشيعها المص في الجسد كله ، فالمرء ينأى بلا وني عن هذا العالم ، ويشبع شبعاً كاملاً ويحس بسعادة خالية من الرغبة . وهو شعور رائع ، فالمرء لا يتوق إلا إلى السكينة ، السكينة التي لا تنتهي . وهو شيء لا يمكن التعبير عن جماله : فلا ألم ولا حزن بل نقلة إلى عالم آخر » .

(١٣) [هامش أضيف ١٩٢٠]: الحق أن « هافلوك — إيليس » يستخدم لفظة « عشقي ذاتي » استخداماً مختلفاً بعض الاختلاف ، بمعنى أن التهيج لا يأتي من الخارج بل يصدر عن الداخل . والجوهري في التحليل النفسي ليس النشأة بل العلاقة بالموضوع . — [في جميع الطبعات السابقة على ١٩٢٠ ، كان هذا الهامش كما يلي : « إلا أن « هافلوك — إيليس » قد أفسد معنى اللفظ الذي ابتكره حين أدمج الهستيريا برمتها وجميع مظاهر الاستمناء ضمن ظواهر العشقية الذاتية »] .

(١٤) [أضيفت هذه العبارة في ١٩١٥ . قارن القسم الثاني من مقال فرويد في النرجسية (١٩١٤)] .

(١٥) [في الطبعة الأولى وحدها نجد « كل »] .

(١٦) [أضيف هذا الجزء من العبارة في ١٩١٥ ، وفي الطبعات المتقدمة استبدلت بكلمتي « المميزات ثلاث » في العبارة الأخيرة ، كلمة « المميزين »] .

(١٧) [هامش أضيف ١٩١٥] : قادني مزيد من الروية والإفادة من المشاهدات الأخرى إلى نسبة خاصية الشهوية إلى جميع مواضع الجسم والأعضاء الداخلية .قارن أيضاً بهذا الصدد ما ذكر فيما بعد عن النرجسية [ص٩٤]. [في طبعة ١٩١٠ ، لم يظهر هنا إلا الهامش التالي : « ناقش « الفريد أدلر » (١٩٠٧) المشاكل البيولوجية المتصلة بفرض المناطق الشهوية »].

(١٨) يكاد يكون من المحال — في المناقشات البيولوجية — تجنب الأسلوب الغائي في التفكير رغم وعينا بأننا غير معصومين عن الزلل في أي مثال نورده [قارن الهامش رقم ٢٣ من هوامش المقالة الأولى] .

(١٩) [هذا التفسير للطريقة التى تتوطد بها رغبة جنسية على أساس من « خبرة الإشباع » ما هو إلا تطبيق خاص لنظرية فرويد العامة فى تحقيق الرغبات ، كما يعرضها فى الجزء (جـ) من الفصل السابع من « تفسير الأحلام » (١٩٠٠). وقد أجمل فرويد هذه النظرية فى دراسته المنشورة بعد موته بعنوان «مشروع سيكولوجية علمية » (فرويد ١٩٥٠ أ ، الملحق ، القسم الأول ، الجزء ١٦) . والواقع أن المثال المختار لتصوير الموقف فى كلتا الحالتين هو الطفل إبان رضاعته . والموضوع كله على صلة بآراء فرويد فى « اختبار الواقع » ، كما يناقشه مثلا فى مقال عن « الإنكار » (١٩٢٥)] .

(٢٠) قارن الكتابات العديدة فى موضوع الاستمناء ، رغم تعثر معظمها بالنسبة للمسائل الرئيسية . ومثال ذلك « رودلر » (Rohdler) (١٨٩٩). [إضافة ١٩١٥] : انظر أيضاً تقرير مناقشة هذا الموضوع فى جمعية فيينا للتحليل النفسى (مناقشات ، ١٩١٢) — [وخاصة ما أسهم به فرويد فيها (١٩١٢)] .

(٢١) [هامش أضيف ١٩١٠] : قارن مقالى فى « الخلق والعشقية الشرجية » (١٩٠٨) . [إضافة ١٩٢٠ :] و « تحول الغرائز مع الإشارة إلى العشقية الشرجية خاصة » (١٩١٧) .

(٢٢) [أضيفت هذه الفقرة فى ١٩١٥ . وقد توسع فرويد فى عرض محتوياتها فى أحد المقالين (١٩١٧) الواردين فى الهامش السابق] .

(٢٣) [هامش أضيف ١٩٢٠] : فى مقال عمق فهمنا لمعنى العشقية الشرجية ، بينت « لو اندرياس — سالوميه » (١٩١٦) كيف يؤثر تاريخ أول تحريم يواجهه الطفل — تحريم التلذذ بالنشاط الشرجى ونتاجه — تأثيراً حاسماً فى نموه قاطبة . والطفل يدرك حتماً لأول مرة فى هذه المناسبة وجود بيئة معادية لنوازعه الغرزية فيتعلم الفصل بين وجوده الشخصى وهذا الوجود الغريب ، وإذ ذاك يقوم بأول « كبت » لإمكانياته فى اللذة . ومنذ هذه اللحظة يظل « الشرجى » رمزاً لكل ما يجب نبذه واستبعاده من الحياة . والتمييز القاطع المتطلب فيما بعد ، بين العمليات الشرجية والتناسلية ينقضه

وجود مشابهات وعلاقات تشريحية ووظيفية وثيقة بينهما . والجهاز التناسلى ما برح فى جوار الإست وهو لا يعدو أن يكون بالفعل « فى حالة النساء معاراً منه » (على حد قول « لو اندرياس – سالوميه ») .

(٢٤) [فى طبعتى ١٩٠٥ و ١٩١٠ كان الجزء الأخير من العبارة كما يلى : « من الصعب التغاضى عن الغائية إذا كانت الطبيعة تستخدم الاستمناء الطفلى المبكر الذى لا مهرب لفرد منه فى تدعيم السيطرة المستقبلة على ما تقوم به هذه المنطقة الشهوية من نشاط » . وقد كانت الطبيعة الغائية فى هذه الحجة التى تعضد شمول الاستمناء الطفلى موضع نقد صارم وجهه إليها « رودلف راتلار » أثناء مناقشة الموضوع فى جمعية فيينا للتحليل النفسى سنة ١٩١٢ (مناقشات، ١٩١٢ ، ص ٩٢) . وقد سلم فرويد – فيما أسهم به من نقاش – بأن الصياغة المستخدمة غير موفقة ، فشرع يعدلها فى الطبعات اللاحقة . ومن ثمة فقد استبدلت بالصورة الراهنة من العبارة فى ١٩١٥] .

(٢٥) [هامش أضيف ١٩١٥] : إن أساليب الاستمناء غير المألوفة المستخدمة فى السنوات المتأخرة تشير – فيما يلوح لى – إلى تأثير تحريم فرض على الاستمناء ثم تغلب الفرد عليه .

(٢٦) [أضيفت هذه الفقرة فى ١٩١٥ . وفى طبعة هذه السنة أضيف أيضاً عنوان الفقرة التالية وعبارة « قبل السنة الرابعة عادة » ، بين قوسين . وكذلك حلت كلمات « الفترة القصيرة » فى العبارة الأولى محل « وفى مستهل مرحلة الكمون » التى ظهرت فى ١٩٠٥ و ١٩١٠ . وأخيراً فنى هاتين الطبعتين استهلت الفقرة التالية بالكلمات : « ويعود التهيج الجنسى الخاص بالطفولة الأولى إبان سنوات الطفولة (وليس من الممكن بعد التعميم فيما يتعلق بالتسلسل الزمنى) . . . » ومن البين أن الدافع إلى كل هذه التعديلات فى ١٩١٥ هو التمييز بين المرحلتين الثانية والأولى للنشاط الجنسى الطفلى تمييزاً أكثر قطعاً وتحديد تاريخ أدق للمرحلة الثانية « حوالى العام الرابع »] .

(٢٧) ما تزال مشكلة العلة فى ارتباط شعور الذنب لدى العصابيين بذكرى نشاط استمنائى معين عادة ما يكون فى البلوغ ، تتطلب تفسيراً تحليلياً

جامعاً ، كما تنبه إلى ذلك « بلويلر » (Bleuler) (١٩١٣) . [إضافة ١٩٢٠] : ولا ريب أن أعم العوامل المرتبطة بالموضوع وأهمها هو أن الاستمناء يمثل السلطة التنفيذية للجنسية الطفلية بأسرها ، لذلك فى وسعه بلورة الشعور بالذنب المرتبط بها .

(٢٨) [انظر مناقشة فرويد التفصيلية لهذه النقطة فى مقاله الثانى عن دور الجنسية فى الأعصبة (١٩٠٦).] ألحق « هافلوك — إيليس» بدراسته فى « الشعور والجنس » (١٩١٣ الملحق ب) عدداً من السير لأناس ظلوا فى الأغلب أسوياء فى حياتهم اللاحقة ، تصف أولى إثاراتهم الجنسية فى الطفولة ومناسباتها . ويعيب هذه التقارير بالطبع أنها تغفل فترة ما قبل التاريخ من الحياة الجنسية ، وهى فترة يحجبها النسيان الطفلى ولا يمكن استرجاعها إلا بالتحليل النفسى فى حالة من يصبح عصابياً . بيد أن لهذه التقارير قيمتها من أكثر من ناحية والمعلومات التى نحصل عليها بطريقة مماثلة أدت بى إلى تعديل فروض العلية المذكورة فى النص .

(٢٩) [« الجنسية » فى طبعتى ١٩٠٥ و ١٩١٠] .

(٣٠) [فى الطبعة الأولى (١٩٠٥) كانت هذه العبارة كالآتى : « ونقيض . . . لا يأتى إلا متأخراً فى الطفولة حين . . . » وفى ١٩١٠ أدخلت كلمة «غالباً » ، وفى ١٩١٥ استبدلت كلمة « يأتى » بـ « يظهر » ، وفى ١٩٢٠ أدخلت كلمة « نسبياً » بعد « متأخرة » . — وقد ناقش فرويد موضوع الميل إلى الاستعراض لدى صغار الأطفال بشىء من التطويل فى كتابه « تفسير الأحلام » الفصل الخامس ، الجزء د (أ)] .

(٣١) [كتبت العبارتان الأخيرتان بصورتهما الحالية فى ١٩١٥ ، وقد كانتا كالآتى فى ١٩٠٥ و ١٩١٠ : « ولنا أن نفترض أن نوازع القسوة تنشأ عن مصادر مستقلة عن الجنسية فى الواقع ولكنها قد تتحد بها فى مرحلة مبكرة بفضل وجود رابطة مستعرضة قريبة من مواضع أصلها . إلا أن المشاهدة تعلمنا أن النمو الجنسى ونمو غريزة حب النظر والقسوة رهن بتأثيرات متبادلة تحد من هذا الاستقلال الذى نفترضة بين هاتين المجموعتين من الغرائز »] .

(٣٢) [هامش أضيف ١٩١٠] : عندما نشر التفسير المتقدم للجنسية الطفلية فى ١٩٠٥ كان جله قائماً على نتائج الفحص التحليلى النفسى للراشدين . وقد كان من المحال إذ ذاك استخدام الملاحظة المباشرة للأطفال على نحو كامل ، فلم نأخذ منها إلا لمحات متفرقة وبعض المعلومات القيمة . ومنذ ذلك الحين بات من الممكن النفاذ مباشرة إلى الجنسية النفسية لدى الأطفال من خلال تحليل بعض حالات المرض العصابى إبان سنوات الطفولة المبكرة . وأستطيع أن أقرر راضياً أن المشاهدة المباشرة قد أيدت نتائج التحليل النفسى تأييداً كاملا ، مما يعد بينة قوية على صدق هذه الطريقة الأخيرة من طرق البحث . — وقد تعلمنا من « تحليل مخافة لدى صبى فى الخامسة » (١٩٠٩) كثيراً من الطرائف لم يعدّنا لها التحليل النفسى . مثال ذلك أن الرمزية الجنسية — أى تمثيل ما هو جنسى بموضوعات وعلاقات غير جنسية — ترجع إلى السنوات الأولى لامتلاك ناصية الكلام . ثم إنى ألتفت إلى وجود نقيصة فى التصور السابق الذى يصف — بغية الوضوح — التمييز النظرى بين مرحلتى العشقية الذاتية والحب الموضوعى باعتباره انفصالاً زمنيًّا أيضاً . بيد أننا نتبين من التحليلات المذكورة (وكذلك من مكتشفات « بل ») أن الأطفال بين الثالثة والخامسة قادرون على القيام باختيار موضوعى واضح غاية الوضوح ، مصحوب بانفعالات قوية . — [وفى ١٩١٠ وحدها ، يستمر الهامش كالآتى : « وثمة إضافة أخرى لمعرفتنا بالحياة الجنسية لم يرد ذكرها بعد فى النص تتعلق بالأبحاث الجنسية لدى الأطفال وما يتأدون إليه من نظريات (قارن مقالى عن الموضوع ١٩٠٨) وأهمية هذه النظريات بالنسبة للأعصبة اللاحقة ومآل هذه الأبحاث الطفلية وعلاقتها بنمو القوى العقلية لدى الأطفال »] .

(٣٣) [هذا القسم برمته عن البحث الجنسى فى الطفولة ، ظهر أولاً فى ١٩١٥] .

(٣٤) [فى عمل متأخر ، صحح فرويد (١٩٢٥) هذه القضية بقوله إنها لا تصدق على البنات ولا تصدق دائماً على الصبية] .

(٣٥) [هامش أضيف ١٩٢٠] : لنا الحق فى الحديث عن وجود عقدة خصاء لدى النساء أيضاً . فالأطفال — ذكوراً وإناثاً — يؤلفون نظرية تنص على

أن النساء كن يمتلكن قضيباً فى الأصل ثم فقدنه بفعل الخصاء . وحين ينتهى الفرد الذكر إلى الاقتناع بأن النساء عاطلات عن القضيب ، يدفعه ذلك إلى تكوين رأى وضيع باق عن الجنس الآخر .

(٣٦) [هامش أضيف ١٩٢٤] : تنطوى هذه السنوات المتأخرة من الطفولة على ذخيرة عظيمة من النظريات الجنسية لا يورد منها النص إلا أمثلة قليلة .

(٣٧) [كل هذا القسم أيضاً ظهر فى ١٩١٥ . ويبدو أن فرويد قد أدخل مفهوم « التنظيم القبل تناسلى » لأول مرة فى مقاله عن « الاستعداد للعصاب الوسواسى » (١٩١٣) وإن كان لا يتناول إلا التنظيم السادى الشرجى . ويبدو أن فرويد يسلم بالتنظيم الفمى للمرة الأولى فى الفقرة الحاضرة] .

(٣٨) فيما يتعلق بذيول هذه المرحلة لدى العصابيين الراشدين ، قارن « أبراهام » (Abraham) (١٩١٦). [إضافة ١٩٢٤] : فى عمل متأخر آخر (١٩٢٤) ، قسم نفس المؤلف هذه المرحلة الفمية وكذلك المرحلة السادية الشرجية المتأخرة ، قسمين يتميزان باتجاهات مختلفة حيال الموضوع .

(٣٩) [هامش أضيف ١٩٢٤] : يلاحظ « أبراهام » (فى آخر المقالين المذكورين) أن الشرج قد نما عن « المخرج الأصيل » فى استعداد الجنين ، وهو ما يبدو نموذجاً بيولوجيًّا للنمو النفسى الجنسى .

(٤٠) [هامش أضيف ١٩٢٤] : لقد عدلت فيما بعد (١٩٢٣) هذا التصور بنفسى فأدخلت ــ بعد التنظيمين القبل تناسليين فى النمو الطفلى ــ مرحلة ثالثة جديدة باسم التناسلية لما تبديه من وجود موضوع جنسى وقدر من تجمع الحوافز الجنسية حول هذا الموضوع ولكنها تختلف عن التنظيم النهائى للنضج الجنسى فى نقطة جوهرية . فهى لا تعرف إلا نوعاً واحداً من الأعضاء التناسلية هى الذكرية . لذلك سميتها مرحلة التنظيم القضيبى (فرويد ١٩٢٣) . أما نموذجها البيولوجى فهو ــ فى رأى « أبراهام » (١٩٢٤) ــ الاستعداد التناسلى غير المتفاضل لدى الجنين ، وهو استعداد يستوى فيه الجنسان .

(٤١) [فى ١٩١٥ كان هذا العدد « الثالثة » ثم عدل إلى « السنتين » فى ١٩٢٠ . قارن أيضاً الهامش رقم ٢٢ من هوامش المقالة الثالثة] .

(٤٢) يستطيع بعض الأشخاص تذكر أنهم أحسوا — إبان تأرجحهم — بملمس الهواء المتحرك على أعضائهم التناسلية وكأنه لذة جنسية مباشرة . [ونجد مثالاً خاصاً على هذا فى هامش فقرة من فقرات « تفسير الأحلام » (١٩٠٠ ، قرب نهاية الفصل الخامس) حيث يناقش فرويد هذا الموضوع من كافة نواحيه] .

(٤٣) [أضيفت هاتان الكلمتان فى ١٩٢٤] .

(٤٤) "Was sich liebt, das neckt sich".

(٤٥) [هامش أضيف ١٩١٠] : إن تحليل حالات اضطراب المشى العصابى وقلق الأمكنة يرفع الشك عن الطبيعة الجنسية للذة الحركة . والتربية الحديثة ، كما نعرف ، تستخدم الرياضة على نطاق واسع لصرف الشبيبة عن النشاط الجنسى . ومن الأصوب القول إنها تستبدل لديهم لذة حركية بمتعة جنسية — وتجبر النشاط الجنسى على العودة إلى مقوماته العشقية الذاتية .

(٤٦) [هامش أضيف ١٩٢٤] : الإشارة هنا إلى ما يسمى بالمازوخية « الشهوية » .

(٤٧) [نجد بعض ملاحظات فرويد الأولى عن هذا الموضوع فى أواسط مقالته عن « الجنسية وأسباب الأعصبة » (١٨٩٨) ، وبعض المتأخر منها فى هامش من هوامش القسم الثالث من « التحليل المنتهى وغير المنتهى » (١٩٣٧) .]

(٤٨) [هامش أضيف ١٩٢٠] : ونتيجة حتمية لهذه الاعتبارات أن كل فرد لا بد أن يكون حاصلا على شبقية فمية وشبقية شرجية وشبقية حالبية إلخ ، وأن وجود هذه المركبات النفسية المقابلة لا يعنى حكماً بعدم السواء أو العصاب . وتنحصر الفوارق الفاصلة بين السوى والمرضى فى القوة النسبية للمقومات الفردية فى الغريزة الجنسية وما تستخدم فيه إبان النمو .

هوامش المقالة الثالثة

(١) [هامش أضيف ١٩١٥] : يستهدف التصوير الإجمالى الوارد فى النص إبراز الفوارق . وقد سبق ، فى صفحة ٧٩ ، تبيان مدى اقتراب الجنسية الطفلية من التنظيم الجنسى النهائى بفضل اختيارها الموضوع ونمو المرحلة القضيبية . [انظر أيضاً فيما بعد ص ٩٨] .

(٢) [أضيفت هذه العبارة فى ١٩٢٠] .

(٣) [هامش أضيف ١٩٢٤] : قمت بمحاولة لحل هذه المشكلة فى الملاحظات التمهيدية من مقالى « المشكلة الكمية فى المازوخية » (١٩٢٤) .

(٤) [انظر هامش ٣٦ من المقالة الأولى] .

(٥) انظر كتابى الذى ظهر فى ١٩٠٥ « **النكتة وعلاقتها باللاشعور** » [قرب نهاية الفصل الرابع] . « فاللذة التمهيدية » التى نحصل عليها بطريق النكتة تستخدم فى إطلاق لذة أعظم إثر رفع أنواع الكف الداخلية . [وفى مقال متأخر عن التأليف الخلاق (١٩٠٨) جعل فرويد فى أصل اللذة الجمالية عملية مماثلة] .

(٦) مما يدعو للتأمل أن اللغة الألمانية — فى استخدامها كلمة « لذة » (Lust) — تحسب حساب الدور الذى تؤديه التهيجات الجنسية التمهيدية . فهذه التهيجات تولد — على نحو ما تقدم — عنصراً من عناصر الإشباع وتزيد من التوتر الجنسى فى آن . والكلمة Lust معنيان ، فهى تستخدم لوصف إحساس التوتر الجنسى .

(Ich habe Lust = ich mœchte, ich verspuere den Drang)

وإحساس الإشباع أيضاً . [قارن هامش ٢ من المقالة الأولى] .

(٧) [سبق لفرويد مناقشة هذا الفرض فى القسم الثالث من مقاله الأول فى عصاب القلق (١٨٩٥)] .

(٨) [أضيفت هذه العبارة فى ١٩٢٠] .

(٩) [وردت العبارة التالية عند هذا الموضع فى الطبعات السابقة على طبعة ١٩٢٠ حيث حذفت منها] : « فغدد الجنس لا تؤلف الجنسية . ولم تؤكد المشاهدات التى أجريت على الذكور المخصيين إلا ما اكتشف منذ أمد بعيد نتيجة لإزالة المبيضين ، وهو أن من المحال طمس السمات الجنسية بإزالة غدد الجنس » . وكذلك بدأ النصف الثانى من العبارة التالية قبل ١٩٢٠ كالآتى : « ولكن ليس يبدو أن المسألة ههنا فقدان غدد الجنس بالفعل بل كف » . .]

(١٠) قارن كتاب « ليبشتز » (Lipschuetz) (١٩١٥) المشار إليه فى هامش ١٣ من هوامش المقالة الأولى .

(١١) [ترجع هذه الفقرة برمتها — بصورتها الراهنة — حتى هذه النقطة إلى ١٩٢٠ . وتظهر الفقرة التالية محلها فى الطبعة الأولى (١٩٠٥) والطبعتين التاليتين : « والحق أننا لا نستطيع تقديم معلومات عن طبيعة التهيج الجنسى ما دمنا نجهل خاصةً العضو أو الأعضاء التى ترتبط بها الجنسية (بعد أن اتضحت لنا المبالغة فى تقدير أهمية غدد الجنس) . ومن العقل أن نشعر أننا ما زلنا نجهل العوامل الجوهرية فى الجنسية بعد المكتشفات المدهشة لدور الغدة الدرقية فى الجنسية . ومن يحس حاجة إلى فرض مؤقت يملأ هذه الفجوة الواسعة فى معرفتنا ، فليتخذ من المواد القوية الموجودة فى الغدة الدرقية نقطة يبدأ منها ثم يستمر كما يلى . فقد نفترض وجود مادة ما منتشرة فى الكائن العضوى تتحلل من جراء تنبيه المناطق الشهوية بما يلائمها أو فى أحوال أخرى مصطحبة ببدء التهيج الجنسى . وما ينتج عن تحللها يولد منبها نوعيًّا يؤثر فى أعضاء التناسل أو فى مركز شوكى على صلة بها (ومن المألوف لدينا أن من الممكن لمواد سامة أخرى أن تحدث تغييراً مماثلا فى حالة التسمم حين تنفذ إلى الجسم من خارج ، فتحولها إلى منبه يؤثر فى عضو معين) . أما مشكلة التفاعل الذى يحدث إبان العمليات الجنسية بين آثار المنبهات السامة الخالصة والآثار الفسيولوجية فلا يمكن تناولها — حتى افتراضيًّا — ومعرفتنا على ما هى عليه الآن .

وأضيف أنى لا أعلق على هذا الفرض الخاص أية أهمية وأنى متأهب لتركه توًّا لصالح فرض آخر ، بشرط أن تبقى طبيعته الأساسية بدون تغيير — أى توكيده الكيمياء الجنسية » . وجدير بالملاحظة أن كشف الهرمونات الجنسية لم يحتم على فرويد تعديل فرضه إلا فى أضيق الحدود . ولم يستبق فرويد هذا الكشف فى سنة ١٩٠٥ فحسب بل فى سنة ١٨٩٦ ، كما يتضح من رسالتين إلى « فليس » بتاريخ أول مارس والثانى فى أبريل من نفس السنة (فرويد ١٩٥٠ ، رسالتان رقم ٤٢ و ٤٤) . وكذلك أكد أهمية العامل الكيمائى فى مقاله الثانى عن دور الجنسية فى الأعصبة ، وقد نشر فى حوالى نفس الوقت الذى نشر فيه كتاب « **ثلاث مقالات فى نظرية الجنس** » (١٩٠٦) .]

(١٢) [وضع هذا القسم برمته — ما عدا الفقرة الأخيرة — فى سنة ١٩١٥ . وجل الاعتماد فيه على مقال فرويد فى النرجسية (١٩١٤)] .

(١٣) [غنى عن البيان أن فرويد يقصد التصورات الذهنية (Vorstellungen) للموضوعات لا موضوعات العالم الخارجى ، حين يتحدث عن تركز اللبيدو فى « الموضوعات » وتركه « للموضوعات » وما إلى ذلك] .

(١٤) [هامش أضيف ١٩٢٤] : فقد هذا التحديد صدقه الأول منذ أن أصبح من الممكن إلى حد بعيد إخضاع أعصبة أخرى غير « أعصبة التحويل » للتحليل النفسى .

(١٥) [هامش أضيف ١٩٢٤] : انظر الهامش السابق .

(١٦) [هامش أضيف ١٩١٥] : قارن مقالى فى النرجسية (١٩١٤) . [إضافة ١٩٢٠] : إن « هافلوك — إيليس » (Havelock-Ellis) وليس « نيكى » (Naecke) — كما ورد هناك خطأ — هو الذى نحت لفظة « نرجسية » . [وقد ناقش « إيليس » نفسه هذه النقطة مناقشة تفصيلية فيما بعد (١٩٢٨) وارتأى أن الواجب يقضى بتقسيم الفضل] .

(١٧) [أضيفت هذه الفقرة فى ١٩٢٠] .

(١٨) [قبل ١٩٢٤ كان ثمة خط تحت الكلمات التى تبدأ بـ « لبيدو » حتى

نهاية الفقرة . — هامش أضيف ١٩١٥] : لابد من تبيان أن مفهومى « المذكر » و « المؤنث » أكثر المفاهيم العلمية اختلاطاً رغم ما يبدو لعامة الناس من عدم التباس مضمونها . ومن الممكن تمييز ثلاثة معان لهما على الأقل . ف « مذكر » و « مؤنث » يستخدمان أحياناً بمعنى الإيجاب والسلب وأحياناً بمعنى بيولوجى وأحياناً بمعنى اجتماعى . وأول هذه المعانى هو الجوهرى وأكثرها فائدة فى التحليل النفسى . فحين يوصف الليبدو فى النص بأنه « ذكرى » فإن الكلمة تستخدم بهذا المعنى لأن الغريزة موجبة دائماً حتى إن كان هدفها سلبيًّا . أما المعنى الثانى أو البيولوجى ل « مذكر » و « مؤنث » فأسهل ما يكون تطبيقاً . وإن ما يميز « المذكر » و « المؤنث » ههنا هو وجود الحيوانات المنوية أو البويضات على التوالى وما يستتبعها من وظائف . وترتبط الإيجابية والظواهر المصاحبة لها (من نمو عضلى أقوى وعدرانية واشتداد الليبدو اشتداداً أعظم) بالذكورة البيولوجية عامة لاحتماً ، لأن هناك على الضد أنواع حيوانية تتميز فيها الأنثى بهذه الصفات . أما مضمون المعنى الثالث أو الاجتماعى فتحدده مشاهدة الذكور والإناث الموجودين بالفعل . وتدل هذه المشاهدة على أن الذكورة أو الأنوثة الخالصة لا وجود لها لدى البشر لا بالمعنى السيكولوجى ولا بالمعنى البيولوجى . و يبدى كل فرد على الضد خليطاً من سمات جنسه وسمات الجنس الآخر ويظهر مزيجاً من الإيجابية والسلبية سواء اتفقت هذه السمات الأخيرة وسماته البيولوجية أو لم تتفق . [ثمة مناقشة لاحقة لهذه النقطة فى هامش على نهاية الفصل الرابع من كتاب « **الحضارة ومنغصاتها** » (١٩٣٠) .]

(١٩) [نجد فى طبعة سنة ١٩٠٥ وحدها : «عن طريق فلهلم فليس » . راجع نهاية الهامش ١٢ من المقالة الأولى] .

(٢٠) [تعرض فرويد لفحص تطور الجنسية لدى النساء فى مناسبات أربع أخرى على وجه التخصيص : فى تقريره عن امرأة مثلية الجنسية (١٩٢٠) وفى نقاشه ما ينتج عن التمييز التشريحى بين الجنسين من نتائج (١٩٢٠)

وفى مقاله عن الجنسية الأنثوية (١٩٣١) فى المحاضرة الثالثة والعشرين من « **محاضرات تمهيدية جديدة** » (١٩٣٣)] .

(٢١) [هامش أضيف ١٩١٥] : يعلمنا التحليل النفسى أن ثمة طريقتين للوصول إلى الموضوع . الأولى موصوفة فى النص ، هى الطريقة « الاعتمادية » (anaclitic) أو طريقة «التعلق » (attachment) وأساسها التعلق بنماذج طفلية مبكرة . والثانية هى الطريقة النرجسية التى يسعى بها الشخص إلى ذاته ويجدها ثانية لدى غيره من الناس . ولهذه الطريقة الأخيرة أهمية عظمى لاسيما فى الحالات التى تنتهى إلى المرض ولكنها خارجة عن السياق الحالى . [ويتعمق فرويد هذه النقطة فى الجزء الأخير من القسم الثانى من مقاله فى النرجسية (١٩١٤) . — وليس يبدو أن هذه الفقرة من فقرات النص — وقد كتبت فى سنة ١٩٠٥ — تتسق والملاحظات الخاصة بالموضوع الوارد فى صفحتى ٩٨ و ١٠٨ ، وقد كتبت فى ١٩١٥ و ١٩٢٠ على التوالى] .

(٢٢) من يعتبر هذا « تدنيساً للحرمات » نوصيه بقراءة آراء « هافلوك إيليس » (١٩١٣ ، ١٨) التى تكاد تتفق تمام الاتفاق وآرائى ، فى العلاقة بين الأم والطفل .

(٢٣) إنى مدين بالشكر لطفل فى الثالثة من العمر على هذا التفسير لأصل القلق الطفلى . سمعته يصيح مرة وهو فى حجرة مظلمة : « حادثينى يا خالة ، فأنا خائف لأن المكان مظلم جداً » . فأجابته الخالة : « وما جدوى ذلك ؟ فأنت لا تستطيع أن ترانى » . فأجاب الطفل : « ذلك لا يهم فالظلام ينقشع حين يتحدث أحد ما » . ومن ثمة فهو لا يخشى الظلام بل غياب شخص يحبه وهو يحس يقيناً بأن روعه سيهدأ حالما يتأكد من حضور ذلك الشخص . [إضافة ١٩٢٠] : ومن أهم ما تأدى إليه البحث التحليلى النفسى من نتائج ، اكتشافه أن القلق العصابى ناشئ عن الليبيدو وأنه نتاج لاستحالته وأنه من ثمة مرتبط به ارتباط الخل بالنبيذ . وثمة مناقشة أخرى لهذه المشكلة فى كتابى « **محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى** » (١٩١٦ — ١٩١٧) المحاضرة الخامسة عشرة ، وإن كانت المشكلة لم تتضح

بعد اتضاحاً نهائيًّا حتى فى ذلك الموضع . [فيما يتعلق بآراء فرويد الأخيرة فى موضوع القلق ، انظر كتابه « **الكف والأعراض والقلق** » (١٩٢٦) وكتابه « **محاضرات تمهيدية جديدة** » (١٩٣٣) الفصل الثانى والثلاثون] .

(٢٤) [حذف هذا العنوان الجانبى ، وربما سقط عفواً، منذسنة١٩٢٤رمابعدها] .

(٢٥) [هامش أضيف ١٩١٥] : قارن ما قيل فى صفحة ٨٠ عن اختيار الموضوع لدى الأطفال و « التيار الوجدانى » .

(٢٦) [هامش أضيف ١٩١٥] : من المرجح أن يكون حاجز الزنا بالمحارم ضمن المكاسب التاريخية التى كسبتها الإنسانية ولابد أن يكون قد رسخ لدى أفراد عديدين عن طريق الوراثة العضوية رسوخ المحرمات الأخلاقية الأخرى . (قارن كتابى « **الطوطم والطابو** » ١٩١٢ – ١٩١٣) . إلا أن البحث التحليلى النفسى يبين شدة مصارعة الفرد إغراء الزنا بالمحارم إبان الفترة التى ينمو فيها وكثرة اختراقه هذا الحاجز فى الخيال بل فى الواقع . —
[تلك هى أول مرة يظهر فيها « الفزع من الزنا بالمحارم » فى الأعمال المنشورة، بيد أن فرويد ناقشه فى ٣١ مايو ١٨٩٦ (المسودة N من فرويد ١٩٥٠) ، أى قبل أن تتكشف له عقدة أوديب ببضعة أشهر . ويفسره أيضاً فى تلك المسودة على أساس أن الزنا بالمحارم « مضاد للمجتمع » .]

(٢٧) [هامش أضيف ١٩٢٠] : إن الأبحاث الجنسية التى تركت فى الطفولة هى نقطة البدء فى أخيلة فترة البلوغ . وهى توجد أيضاً قبل نهاية مرحلة الكمون ، وقد تظل لاشعورية برمتها أو إلى حد بعيد ولذلك كان من المحال فى أحيان كثيرة تحديد تاريخها تحديداً دقيقاً . وهى على جانب عظيم من الأهمية فى نشأة كثير من الأعراض لأنها تؤلف المراحل التمهيدية فى هذه الأعراض ومن ثمة تحدد الصور التى تتخذها العناصر اللبيدية المكبوتة فى إشباعها . وهى بالمثل نماذج تحتذيها الأخيلة الليلية التى تصبح شعورية فى شكل أحلام . وما الأحلام غالباً إلا إحياء لمثل هذه الأخيلة بتأثير منبه خلفته حياة اليقظة فى اليوم السابق وعلى صلة به (« بقايا النهار ») .
[انظر الفصل السابع ، القسم الأول من « **تفسير الأحلام** » الطبعة النهائية

ص ٤٩٢] . ومن الأخيلة الجنسية فى مرحلة البلوغ ما يكون بارزاً بروزاً خاصًا ويتميز بوروده لدى الجميع واستقلاله إلى حد ما عن الخبرة الفردية . مثال ذلك أخيلة المراهق الخاصة باستراق السمع على والديه إبان الجماع وتعرضه فى سن مبكرة لتغرير شخص يحبه ووقوعه تحت التهديد بالخصاء [قارن مناقشة « الأخيلة الأولية » فى المحاضرة الثالثة والعشرين من كتاب فرويد « **محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى** » (١٩١٦ — ١٩١٧] . والمثل يقال عن أخيلته المتصلة بوجوده فى الرحم وما خبره فيه ، رما يسمى بـ « قصة العائلة » وفيها رد على تباين موقفه من والديه فى الحاضر والطفولة . وقد دلل« أوتو رانك» (Otto Rank) فى حالة المثال الأخير على وجودعلاقات وثيقة تربط هذه الأخيلة بالأساطير . [قارن أيضاً مقال فرويد فى « أقاصيص العائلة » (١٩٠٩) والهامش المستفيض على الفصل (و) من القسم الأول من حالة « رجل الجرذان » (١٩٠٩)] . ولقد قيل بحق إن عقدة أوديب هى العقدة النووية فى الأعصبة وإنها تمثل الجانب الجوهرى من مضمونها . فهى ذروة الجنسية الطفلية وتؤثر تأثيراً حاسماً فى جنسية الراشدين . وكل وافد من بنى البشر يواجه مهمة السيطرة على عقدة أوديب ، ومن يفشل فى ذلك يصبح فريسة للعصاب . وبتقدم دراسات التحليل النفسى زادت أهمية عقدة أوديب وضوحاً وبات التسليم بها هو الدستور الذى يميز أشياع التحليل النفسى من معارضيه .

[إضافة ١٩٢٤] : فى كتاب آخر (١٩٢٤) أرجع « رانك » الارتباط بالأم إلى فترة ما قبل التاريخ داخل الرحم مبيناً على هذا النحو الأساس البيولوجى لعقدة أوديب . وهو يختلف عما سبق فى استنباط حاجز الزنا بالمحارم من أثر صدمة القلق عند الميلاد .

[انظر الفصل العاشر من كتاب « **الكف والأعراض والقلق** » (١٩٢٦)] .

(٢٨) قارن ملاحظاتى فى « **نفسير الأحلام** » (١٩٠٠) عن حتمية القدر فى أسطورة أوديب (الفصل الخامس ، القسم د (ب) ، الطبعة النهائية

Standard Edition ، ص ٢٦٠ وما يليها] .

(٢٩) [هامش أضيف ١٩٢٠] : قارن مقالى : « نمط خاص من اختيار الموضوع يقوم به الرجال » (١٩١٠) .

(٣٠) [هامش أضيف ١٩١٥] : ليس يمكن أن نفهم ألبتة ما نجده فى الحياة العشقية لدى البشر من غرائب عدة ولا الطابع القهرى لعملية الوقوع فى الحب ذاتها ما لم نرجعها جميعاً إلى الطفولة وما لم نعتبرها آثاراً متبقية منذ الطفولة .

(٣١) [هامش أضيف ١٩٢٤] : هنا موضع التنبيه إلى كتاب « فيرنزى » (Ferenczi) « معالم نظرية تناسلية » (*Versuch einer Genitaltheorie*) (١٩٢٤) ، وهو عمل على جانب عظيم من الأهمية رغم ما يشوبه من بعض الإغراق فى الخيال . وفيه إرجاع للحياة الجنسية لدى الحيوانات العليا إلى تطورها البيولوجى .

(٣٢) [ترجع بقية هذه العبارة والعبارتين التاليتين إلى سنة ١٩١٥ . وتحل محلها الفقرة التالية فى طبعتى ١٩٠٥ و ١٩١٠ : « بينما تؤدى نوازع المنافسة فى حالة البنات اللائى يمررن على أى حال بفترة من الكبت فى المراهقة ، دوراً فى إثباط همتهن عن حب أفراد من جنسهن نفسه »] .

هوامش الخلاصة

(١) [هامش أضيف ١٩١٥] : لا يصدق هذا على الميول « السلبية » للانحراف البادية فى الأعصبة فحسب بل على الانحرافات الإيجابية بمعنى الكلمة أيضاً . ومن ثمة فإن هذه الأخيرة لا تشتق من تثبيت فى الميول الطفلية فحسب وإنما من نكوص هذه الميول إثر انسداد القنوات الأخرى فى التيار الجنسى . ولهذا السبب يتناول العلاج التحليلى النفسى الانحرافات الإيجابية أيضاً .

(٢) [أضيفت الكلمات السبع الأخيرة فى سنة ١٩١٥. بيد أن الأعمار المذكورة فى طبعة تلك السنة كانت « ما بين الثالثة والخامسة » ثم حلت محلها « الثانية » فى ١٩٢٠] .

(٣) [أضيفت هذه الجملة الاعتراضية فى ١٩١٥] .

(٤) [أضيفت الكلمات « لا تكون ذات مركز واحد ثم إنها تكون أولاً » فى ١٩٢٠] .

(٥) [أضيفت هذه الفقرة والفقرتان التاليتان فى ١٩٢٠] .

(٦) [أضيفت هذه العبارة فى ١٩٢٤] .

(٧) [قارن نهاية هامش ٢١ من هوامش المقالة الثالثة] .

(٨) [لا تتناول هذه المقالات مشكلة العلاقة الممكنة بين نقطة التثبيت ونوع العصاب — أى مشكلة « اختيار العصاب » — رغم أنها كانت تشغل بال فرويد منذ أمد طويل . انظر مثلا رسالتيه إلى فليس بتاريخ ٣٠ مايو سنة ١٨٩٦ و ٩ ديسمبر ١٨٩٩ (فرويد ١٩٥٠ ، رسالتان رقما ٤٦ و ١٢٥) . وقد لمس فرويد الموضوع فى مقال يكاد يكون معاصراً للكتاب الحالى (١٩٠٦) وناقشها مناقشة أكمل فى مقال متأخر عن « الاستعداد للعصاب الوسواسى » (١٩١٣)] .

(٩) [ورد ذكر شجرة عائلية تفصيلية من هذا القبيل فى رسالته إلى « فليس » بتاريخ ١١ يناير ١٨٩٧ (فرويد ١٩٥٠ ، الرسالة رقم ٥٥)] .

(١٠) [هامش أضيف ١٩١٥] : كثيراً ما نجد فى هذه الظروف تياراً جنسياً سوياً يظهر أول ما يظهر فى البلوغ ولكنه لا يلبث أن يتهاوى ، لما به من ضعف داخلى ، عند أولى العقبات الخارجية ومن ثمة يتحول بالنكوص إلى التثبيت الانحرافى .

(١١) "Junge Hure, alte Betschwester"

(١٢) [هامش أضيف ١٩٢٠] : كان من الممكن فى حالة بعض سمات الخلق الربط بينها وبين مقومات شهوية معينة . فالعناد والتقتير والنظام تنشأ عن استغلال الشهوية الشرجية بينما يتحدد الطموح باستعداد شهوى حالبى قوى.

(١٣) يصف « إميل زولا» (Emile Zola) بما له من ثاقب البصر فى ملاحظة الطبيعة الإنسانية ، فى قصته « فرحة الحياة » (La joie de vivre) كيف ضحت فتاة بكل ما تملك وما تطالب به من مال وآمال من أجل من تحب — عن طيب خاطر وإيثار ودون تفكير فى الثواب . وقد هيمن على طفولة هذه الفتاة ظمأ لا يرتوى للحب ، استحال إلى قسوة عندما وجدت نفسها تهان من أجل فتاة أخرى فى إحدى المناسبات .

(١٤) [أضيفت بقية هذه الفقرة والفقرة التالية برمتها فى ١٩١٥] .

(١٥) [كانت الكلمة المستخدمة فى ١٩١٥ هى « السلسلة العلية » ثم عدلت فى ١٩٢٠ إلى « السلسلة المتتامة » . ويبدو أن فرويد استخدم هذه اللفظة الأخيرة أول ما استخدمها فى المحاضرة الثانية والعشرين من كتاب « المحاضرات التمهيدية » (١٩١٦—١٩١٧) . ولم يمتد تصحيح العبارة إلى حيث وردت ثانية بعد ورودها هنا بأسطر] .

(١٦) [قارن الملاحظات التى تدور حول هذه النقطة فى حالة « هانس الصغير » (١٩٠٩) قرب مفتتح القسم الثالث من الفصل الثالث . — أضيفت الفقرة التالية فى ١٩١٥] .

(١٧) "Gestrenge Herren regieren nicht lange"

(١٨) "das unglückselige Kind des Angenblickes"

وقد تكون زيادة التثبت نتيجة لظهور الجنسية فى السنوات الأولى فى صورة بدنية ذات شدة خاصة .

مراجع الكتاب

يتضمن ثبت المراجع الكتب والمقالات التى يشير إليها فرويد إشارة مباشرة فى النص والهوامش . وقد رجعنا فى وضعه إلى طبعة « ستريتشى » لأعمال فرويد المترجمة للإنجليزية Standard Edition . ومن ثمة يجد القارئ العنوان الألمانى مصحوبًا بترجمته الإنجليزية وموضع نشرها وتاريخه بين قوسين معقوفين .

المترجم



LIST OF ABBREVIATIONS

G.S.	= Freud, Gesammelte Schriften (12 vols.), Vienna, 1924-34
G.W.	= Freud, Gesammelte Werke (18 vols.), London, from 1940.
C.P.	= Freud, Collected Papers (5 vols.), London, 1924-50
Standard Ed	= Freud, Standard Edition (24 vols.), London, from 1953.
S.K.S.N.	= Sammlung kleiner Schriften zur Neurosenlehre (5 vols.), Vienna, 1906-22
S.P.H.	= Selected Papers on Hysteria and Other Psychoneuroses, 3rd. ed., New York, 1920.

***

Abraham, K. (1916) : Untersuchungen ueber die frueheste praegenitale Entwicklungsstufe der Libido, *Int. Z. Psychoanal.*, 4, 71. (198 n.)
[Trans. : The First Pregenital Stage of the Libido, *Selected Papers*, London, 1927, Chap. XII.]
(1924) *Versuch einer Entwicklungsgeschichte der Libido*, Vienna. (198 n., 199 nn.)
[Trans. : A short Study of the Development of the Libido, *Selected Papers*, London, 1927, Chap. XXVI.]

Adler, A. (1907) *Studie ueber Minderwertigkeit von Organen*, Vienna. (184, n. I)

Andreas-Salomé, L. (1916) Anal und Sexual, *Imago*, 4, 249. (187 n.)

Arduin (1900) Die Frauenfrage und die sexuellen Zwischenstufen, *Jb. sex. Zwischenst.*, 2. (143 n.)

Baldwin, J.M. (1895) *Mental Development in the Child and the Race*, New York. (173, n. 2)

Bayer, H. (1902) Zur Entwicklungseschichte der Gemubaemutter, *Dtsch. Arch. klin. Med.*, 73, 422. (177 n.)

Bell, S. (1902) A Preliminary Study of the Emotion of Love between the Sexes, *Amer. J. Psychol.*, 13, 325. (173, n. 2, 193, n. 2)

Bernfeld, S. (1944) Freud's Earliest Theories and the School of Helmholtz, *Psychoanal. Quart.*, 13, 341. (283, n. 2)

Binet, A. (1888) Etudes de psychologie expérimentale: le fétichisme dans l'amour, Paris. (154, 171)

Bleuler, E. (1908) Sexuelle Abnormitaeten der Kinder, *Jb. schweiz. Ges. Schulgesundh.* Pfl., 9, 623. (173, n. 2)
(1913) Der Sexualwiderstand, *Jb. psychoanal. psychopath. Forsch.*, 5, 442. (189 n.)

Bloch, I. (1902-3) *Beitraege zur Aetiologie der Psychopathia sexualis* (2 vols.), Dresden. (51, n. I, 139, n. 2)

Chevalier, J. (1893) *L'inversion sexuelle*, Lyon. (141, 143 n.)

Diskussionen der Wiener Psychoanalytischen Vereinigung (1912) II, Die Ononie, Wiesbaden. (185, n. I, 188, n. I)

Ellis, Havelock (1910) *Studies in the Psychology of Sex*, Vol. I : *The Evolution of Modesty*; *the Phenomena of Sexual Periodicity and Auto-erotism*, 3rd ed., Philadelphia. (Ist ed., Leipzig London, 1899.) (181).

(1913) *Studies in the Psychology of Sex*, Vol. III : *Analysis of the Sexual Impulse*; *Love and Pain*; *the Sexual Impulse in Women*, 2nd ed., Philadelphia. (Ist ed., Philadelphia, 1903.) (159, n. 4, 173, n. 2, 190 n., 223 n.)

(1928) *Studies in the Psychology of Sex*, Vol. VII : *Eonism, etc.*, Philadelphia (218, n. 3)

Ferenczi, S. (1909) Introjektion und Uebertragung, *Jb. psychoanal. psychopath. Forsch.*, I, 422. (150 n.)

[Trans.: Introjection and Transference, *Contributions to Psycho-Analysis*, Boston, 1916, Chap. II.]

(1914) Zur Nosologie der maennlichen Homosexualitaet (Homoaerotik), *Int, Z. Psychoanal.*, 2, 131. (144 n.)

[Trans.: The Nosology of Male Homosexuality (Homoerotism), *Contributions to Psycho-Analysis*, Boston, 1916, Chap. XII.]

(1920) Review of Lipschuetz, *Die Pubertaetsdruese*, *Int. Z. Psychoanal.*, 6, 84. (177 n.)

[Trans.: *Int. J. Psycho-Anal.*, 2 (1921), 143.]

(1924) *Versuch einer Genitaltheorie*, Vienna. (229, n. 2)

[Trans.: *Thalassa, a Theory of Genitality*, New York, 1928.]

Fliess, W. (1906) *Der Ablauf des Lebens*, Vienna. (143 n.)

Freud, S. (1895 b) Uber die Berechtigung, von der Neurasthenie einen bestimmten Symptomenkomplex als Angstneurose abzutrennen, *G.S.*, I, 306; *G.W.*, I, 313. (80n., 127, 213 n., 272 n.)

[Trans.: On the Grounds for Detaching a Particular Syndrome from Neurasthenia under the Description Anxiety Neurosis, C.P., I, 76; *Standard Ed.*, 3.]

(1895 d) With Breuer, J., *Studien ueber Hysterie*, Vienna. (*G.S.*, I; *G.W.*, I. 75. Omitting Breuer's contributions.) (7 n., 12, 24, 27, n. I, 31, 2, 53 n., a17 n., 164 n., 248-9, 257, 272)

[Trans.: *Studies on Hysteria*, *Standard Ed.*, 2.]

(1896c) 'Zur Aetiologie der Hysterie', *G.S.*, I, 404; *G.W.*, I, 423. (7n., 27, n. 2, 176, n. I, 190, 257 n., 273)

—[Trans.: 'The Aetiology of Hysteria', *C.P.*, I, 183; *Standard Ed.*, 3.]
(1900 a) *Die Traumdeutung*, Vienna. (*G.S.*, 2-3; *G.W.*, 2-3.)
[Trans.: *The Interpretation of Dreams, Standard Ed.*, 4-5.]
(1916 b) *Zur Psychopathologie des Alltagslebens*, Berlin. (*G.S.*, 4; *G.W.*, 4.)
(3-4, 21, n. I, 76, n. 2, 121, n. 1, 129, 143 n., 175, n. 1)
[Trans.: *The Psychopathology, of Everyday Life, Standard Ed.*, 6]
(1905 c) *Der Witz und seine Beziehung zum Unbewussten*, Vienna, (G.S., 9, 5; G.W., 6.) (129, 211 n.,)
[Trans.: *Jokes and their Relation to the Unconscious, Standard Ed.* 8.]
(1905 e) 'Bruchstueck einer Hyterie-Analyse', *G.S.*, 8, 3; *G.W.*, 5, 163. (129, 156, n. 2, 163, 165, n. 2, 167, n. 2, 286, n. 2)
[Trans.: 'Fragment of an Analysis of a Case of Hysteria', *C.P.*, 3 13; *Standard Ed.*, 7, 3.]
(1906 a) 'Meine Ansichten ueber die Rolle der Sexualitaet in der Aetiologie der Neurosen', *G.S.*, 5, 123; *G.W.*, 5, 149. (113 n., 128 n., 190 n., 216 n., 235 n.)
[Trans.: 'My Views on the Part played by Sexuality in the Aetiology of the Neuroses', *C.P.*, I. 272; *Standard Ed.*, 7, 271.]
(1908 b) 'Charakter und Analerotik', *G.S.*, 5, 261; *G.W.*, 7, 203. (185, n. 2, 239, n. 2)
[Trans.: 'Character and Anal Erotism', *C.P.*, 2, 45; *Standard Ed.*, 9.]
(1908 c) 'Ueber infantile Sexualtheorien', *G.S.*, 5, 168; *G.W.*, 7, 171. (193, n. 2)
[Trans.: 'On the Sexual Theories of Children', *C.P.*, , 59; *Standard Ed.*, 9.]
(1908 e) 'Der Dichter und das Phantasieren', *G.S.*, 10, 229; *G.W.*, 7, 213. (211 n., 305, n. 2)
[Trans.: 'Creative Writers and Day-Dreaming', *C.P.*, 4, 173; Standard Ed. 9.]
(1909 b) 'Analyse der Phobie eines fuenfjaehrigen Knaben', *G.S.*, 8, 129; *G.W.*, 7, 243. (13 n., 52, n. 2, 193, n. 2, 241, n. 1)
[Trans.: 'Analysis of a Phobia in a Five-Year-Old Boy', C.P., 3, 149; *Standard Ed.*: 10.]
(1909 c) 'Der Familienroman der Neurotiker', *G.S.*, 12, 371; *G.W.*, 7, 227. (226 n.)
[Trans.: 'Family Romances', *C.P.*, 5, 74; *Standard Ed.* 9.]
(1909 d) 'Bemerkungen ueber einen Fall von Zwangsneurose', *G.S.*, 8, 269; *G.W.*, 7, 381. (13 n., 17, n. 2, 155, n. 2, 226 n., 248)
[Trans.: 'Notes on a Case of Obsessional Neurosis', *C.P.*, 3, 293; *Standard Ed.*, 10.]

—(1910 h) 'Ueber einen besonderen Typus der Objektwahl beim Manne', *G.S.*, 5, 186; *G.W.*, 8, 66. (228 n.)

[Trans.: 'A Special Type of Choice of Object made by Men'. C.P., 4, 192; *Standard Ed.*, 11.]

(1912 c) 'Ueber neurotische Erkrankungstypen', *G.S.*, 5, 400; *G.W.*, 8, 322. (165 n. I)

[Trans.: 'Types of Onset of Neurosis', *C.P.*, 2, 113; *Standard* Ed., 12.)

(1912 f) 'Zur Onanie-Diskussion', *G.S.*, 3, 324; *G.W.*, 8, 332. (185, n. 1, 188, n. 2]

[Trans.: 'Contributions to a discussion of Masturbation', *Standard Ed.*, 12.]

(1912-13) *Totem und Tabu*, Vienna, 1913. (*G.S.*, 10; *G.W.*, 9.) 225, n. 3, 306 n.)

[Trans.: *Totem and Taboo*, London, 1950; *Standard Ed.*, 13.]

(1913 i) 'Die Disposition zur Zwangsneurose', *G.S.*, 5, 227; *G.W.*, 8, 442. (197 n., 235 n., 275, n. 2)

[Trans.: 'The Predisposition to Obsessional Neurosis', *C.P.*, 2, 122; *Standard Ed.*, 12.]

(1914 c) 'Zur Einfuehrung des Narzissmus', *G.S.*, 6, 155; *G.W.*, 10, 138. (178, n. 2, 182, n. 1, 217, n. 1, 218, n. 3, 322 n.)

[Trans.: 'On Narcissism : an Introduction', *C.P.*, 4, 30; *Standard Ed.*, 14.]

(1915 c) 'Triebe und Triebschicksale', *G.S.*, 5, 443; *G.W.*, 10, 210 (168 n. 1)

[Trans.: 'Instincts and their Vicissitudes',*C.P.*, 4, 60; *Standard Ed.*, 14.]

(1915 d) 'Die Verdraengung', *G.S.*, 5, 466; *G.W.* 10, 248. (29, n. 1, 175, n. 2)

[Trans.: 'Repression', *C.P.*, 4, 84; *Standard Ed.*, 14].

(1916-17) *Vorlesungen zur Einfuehrung in die Psychoanalyse*, Vienna. (*G.S.*, 7; *G.W.*, 11) (43 n., 224 n., 226., 240 n.)

[Trans.: *Introductory Lectures on Psycho-Analysis*, revised ed., London, 1929; *Standard Ed.*, 15) 16.]

(1917 c) 'Ueber Triebumsetzungen inbesondere der Analerotik', *G.S.*, 5, 268; *G.W.*, 10, 402. (185, n. 2, 186 n.)

[Trans.: 'On the Transformation of Instincts with Special Reference to Anal Erotism', *C.P.*, 2, 164; *Standard Ed.*, 17.]

(1919 e) ' "Ein Kind wird geschlagen" ', *G.S.*, 5, 344; *G.W.*, 12, 197. (143 n.)

—[Trans.: ' "A Child is being Beaten" ', *C.P.* 2, 172; *Standard* Ed. 17.]

(1920 a) 'Ueber die Psychogenese eines Falles von weiblicher Homosexualitaet', *G.S.*, 5, 312; *G.W.*, 12, 271. (221 n.)

[Trans.: 'The Psychogenesis of a Cases of Female Homosexuality', *C.P.* 2 202; *Standard Ed.* 18.]

(1920 g) *Jenseits des Lustprinzips*, Vienna. (*G.S.*, 6, 191; *G.W.*, 13, 3. (29, n. 1, 136, n. 1, 168, n. 2, 305, n. 2)

[Trans.: *Beyond the Pleasure Principle*, London, 1950 : *Standard* Ed., 18.]

(1912 c) *Massenpsychologie und Ich-Analyse*, Vienna. *G.S.*, 6, 261; *G.W.*, 13, 73. (150 n. 296 n.)

[Trans.: *Group Psychology and the Analysis of the Ego*, London, 1922; *Standard Ed.*, 18]

(1923 b) *Das Ich und das Es*, Vienna. (*G.S.*, 6, 353; *G.W.*, 13, 273. (46 n., 168, n. 2, 178, n. 2)

[Trans.: *The Ego and the Id*, London, 1927; *Standard Ed.*, 19.]

(1923 b) 'Die infantile Genital Organization', *G.S.*, 5, 232; *G.W.*, 13, 293. (126 n., 199, n. 2)

[Trans.: 'The Infantile Genital Organization of the Libido', *C.P.*, 2, 244; *Standard Ed.*, 19.]

(1924 c) 'Das oekonomische Problem des Masochismus', *G.S.*, 5, 374; *G.W.*, 13, 371. (158, n. 2, 209, n. 1)

[Trans.: 'The Economic Problem of Masochism', *C.P.*, 2, 255; *Standard Ed.*, 1.]

(1925 h) 'Die Verneinung', *G.S.*, 11, 3; *G.W.*, 14, 11. (57, n. 2, 184, n. 3)

[Trans.: 'Negation', *C.P.*, 5, 181; *Standard Ed.*, 19.]

(1925 j) 'Einige psychische Folgen des anatomischen Geschlechtsunterschieds', *G.S.*, 11, 8; *G.W.*, 14, 19. (195, n. 1, 221 N.)

[Trans.: 'Some Psychological Consequences of the Anatomical Distinction between the Sexes', *C.P.*, 5, 186; *Standard Ed.* 19.]

(1926 d) *Hemmung, Symptom und Angst*, Vienna. (*G.S.*, 11, 23; *G.W.* 13, 113.) (29, n. 1, 43 n., 80 n., 24 n., 276 n.)

[Trans.: *Inhibitions, Symptoms and Anxiety*, London, 1936; *The Problem of Anxiety*, New York, 1936; *Standard Ed.*, 20.]

(1927 e) 'Fetischismus', *G.S.*, 11, 295; *G.W.*, 14, 311. (155, n. 2)

[Trans.: 'Fetishism', *C.P.*, 5, 198; *Standard Ed.*, 21.]

(1930 a) *Das Unbehagen in der Kultur*, Vienna. (*G.S.*, 12, 29; *G.W.*, 14. 421) (32 n., 155, n. 2, 219 n.)

—[Trans.: *Civilization and its Discontents*, London and New York, 1930; *Standard Ed.*, 21.]

(1931 b) 'Ueber die weibliche Sexualitaet; *G.S.*, 12, 120; *G.W.* 14, 517. (221 n.)

[Trans.: 'Female Sexuality', *C.P.*, 5, 252; *Standard Ed.*, 21.]

(1933 a) *Neue Folge der Vorlesungen zur Einfuehrung in die Psychoanalyse*, Vienna. (*G.S.*, 12, 151; *G.W.*, 15) (221 n., 224 n.)

[Trans.: *New Introductory Lectures on Psycho-Analysis*, London and New York, 1933; *Standard Ed.*, 22.]

(1937 c) 'Die endliche und die unendliche Analyse', *G.W.*, 16, 59. (204, n. 2)

[Trans.: 'Analysis Terminable and Interminable', *C.P.*, 5, 316; *Standard Ed.*, 23.]

(1940 a) (1938) *'Abriss der Psychoanalyse'*, *G.W.*, 17, 67. (155, n. 2)

[Trans.: *An Outline of Psycho-Analysis*, London and New York, 1949; *Standard Ed.*, 23.]

(1940 e) [1938] 'Die Ichspaltung im Abwehrvorgang', *G.W.*, 17. 59. (155, n. 2)

[Trans.: 'Splitting of the Ego in the Process of Defence', C.P., 5, 372; *Standard Ed.*, 23.]

(1950 a) (1887-1902) *Aus den Anfaengen der Psychoanalyse*, London. Includes the 'Entwurf einer Psychologie' (1895), a translation of which, under the title of 'Project for a Scientific Psychology' will be found in Volume I of the *Standard Edition.*)

Galant, S. (1919) 'Sexualleben im Saeuglings - und Kindesalter', *Neurol. Zbl.*, 38, 652. Reprinted, *Int. Z. Psychoanal*, 6 (1920), 164 (181, n. 1)

Gley, E. (1884) 'Les abérrations de l'instinct sexuel', *Revue philosophique*, 17, 66. (143 n.)

Groos, K. (1899) *Die Spiele der Menschen*, Jena (173, n. 2)

Halban, J. (1903) 'Die Entstehung der Geschlechtscharaktere', *Arch. Gynaek.*, 70, 205. (142).

Hall, G. Stanley (1940) *Adolescence : its Psychology and its relations to Physiology, Anthropology, Sociology, Sex, Crime, Religion and Education*, 2 vols., New York. (173, n. 2)

Heller, T. (1904) *Grundriss der Heilpaedagogik*, Leipzig. (173, n. 2)

Hermann, G. (1903) *'Genesis'*, *das Gesetz der Zeugung*, Bd. 5, *Libido und Mania*, Leipzig. (143 n.)

Hirschfeld, M. (1899) 'Die objecktive Diagnose der Homosexualitaet', *Jb. sex. Zwischenst.*, 1, 8. (143 n.)
(1904) 'Statistiche Untersuchungen ueber den Prozentsatz der Homosexuellen', *Jb. sex. Zwischenst.*, 6. (136, n. 2)

Hug-Hellmuth, H. von (1913) *Aus dem Seelenleben d s Kindes*, Vienna. (173, n. 2)
[Trans.: *A study of the Mental Life of the Child*, New York, 1919.]

Krafft-Ebing, R. von (1895) 'Zur Erklaerung der contraeren Sexualempfindung', *Jb. Psychiat. Neurol.*, 13, 1. (142, 143 N.)

Lœwenfeld, L. (1897) *Lehrbuch der gesamten Psychotherapie*, Wiesbaden. (258)

Mœbius, P.J. (1900) 'Ueber Entartung', *Grenzfr. Nerv.-u. Seelenleb.*, 3. (138 n.)

Moll, A. (1898) *Untersuchungen ueber die Libido sexualis*, Bd. 1, Berlin. (169, n. 2, 180, n. 2)
(1909) *Das sexualleben des Kindes*, Berlin. (173, n. 2, 180, n. 2)

Nachmansohn, M. (1915) 'Freuds Libidotheorie verglichen mit der Eroslehre Platos', *Int. Z. Psychoanal.*, 3, 65. (134)

Pérez, B. (1886) *L'enfant de trois à sept ans*, Paris (173, n. 2)

Preyer, W. (1882) *Die seele des Kindes*, Leipzig. (173, n. 2)

Rank, O. (1909) *Der Mythus von der Geburt des Helden*, Vienna (226 n.)
[Trans.: *The Myth of the Birth of the Hero*, New York, 1914.]
(1924) *Das Trauma der Geburt*, Vienna. (226 n.)
[Trans.: *The Trauma of Birth*, London 1929.]

Rieger, C. (1900) *Die Castration*, Jena. (214).

Rohleder, H. (1899) *Die Masturbation*, Berlin. (185, n. 1)

Struempell, L. (1899) *Die paedagogische Pathologie*, Leipzig. (173, n. 2)

Sully, J. (1895) *Studies of Childhood*, London. (173, n. 2)

Taruffi, C. (1903) *Hermaphroditismus und Zeugungsunfaehigkeit* (German trans. by R. Teuscher), Berlin. (141 n.)

Weininger, O. (1903) *Geschlecht und Character*, Vienna. (143 n.)
[Trans.: *Sex and Character*, London, 1906].

معجم المصطلحات

يتضمن هذا المعجم شرحاً للمفهومات الرئيسية التى ورد ذكرها فى متن الكتاب دون بيان واف. وقد روعى فى وضعه الرجوع إلى أمهات النصوص المختاره لدى فرويد وغيره من كبار المشتغلين بالتحليل النفسى والطب النفسى على حد سواء ، كما لقيت فيه نشأة المفاهيم من الناحية التاريخية عناية خاصة ، بغية تبيان الوضع الحاضر للمشاكل من ناحية وتحديد إضافات التحليل النفسى للنظريات السابقة عليه فى ميدان الطب النفسى من ناحية أخرى . وقد وضع أمام كل مصطلح فى هذا المعجم مقابلاته فى الألمانية والإنجليزية والفرنسية بهذا الترتيب .

دكتور سامى محمود على

(١) إدماج : Introjektion Introjection

الإدماج عملية نفسية لا شعورية تشير إلى تمثل شخص موضوعاً ما تمثلا خياليًّا بحيث يصبح جزءاً من الأنا أو الأنا الأعلى لديه . ويصف « فيرنزى » (Ferenczi) هذا المفهوم الذى يرجع إليه الفضل فى وضعه فيقول: « لكى نفهم الطابع الأساسى للمرضى العصابيين فهماً أفضل ، لابد من المقارنة بين سلوكهم وسلوك مرضى الجنون المبكر والبارانويا . فالمجنون يفصل اهتمامه عن العالم الخارجى فصلا تامًّا ويصبح عاشقاً لذاته (« يونج » ، « أبراهام ») . ويود مريض البارانويا لو فعل بالمثل — كما بيّن فرويد — ولكنه لايستطيع ، فهو يسقط على العالم الخارجى الاهتمام الذى أصبح عبئاً عليه . والعصاب على نقيض البارانويا من هذه الوجهة . فبينما يبعد مريض البارانويا عن الأنا لديه الحوافز وقد غدت مؤلمة ، يسعف العصابى نفسه بتمثله فى ذاته أكبر جزء ممكن من العالم الخارجى ، جاعلا منه موضوعاً لأخيلته اللاشعورية . ذلك ضرب من عمليات التخفيف يحاول بها تلطيف شدة النوازع والرغبات اللاشعورية المنطلقة بدون إشباع وبدون إشباع ممكن . ويمكن تسمية هذه العملية **بالإدماج** ، فى مقابل الإسقاط (projection) .

فالعصابى لا يفتأ يبحث عن موضوعات يتوحد بها وينقل إليها مشاعره ويدخلها فى نطاق اهتماماته ، أى يدمجها فى ذاته . ونرى مريض البارانويا يسعى سعياً مماثلا إلى موضوعات تصلح لإسقاط الجوع الجنسى ، الذى يولد لديه شعوراً مؤلماً . وأخيراً يتجلى التضاد فى سمات الخلق : فالعصابى كبير القلب ، سريع التأثر والاستثارة يتأجج فى سهولة حبًّا للعالم أجمع أو يدفع إلى كراهية العالم قاطبة . بينما يكون مريض البارانويا صغير النفس ، متريباً ، يعتقد أن الناس جميعاً يراقبونه ويضطهدونه أو يحبونه . فالعصابى يعانى من اتساع الأنا ومريض البارانويا يشكو من انكماشها » [١].

(١) S. Ferenczi : Introjection & transference. *Selected Papers*, I, p. 47-8. Basic Books, N.Y. 1950.

والإدماج من العمليات النفسية المميزة للمراحل الأولى من النمو النفسى ، ونموذجها الأصيل هو الابتلاع وما يتسم به من معان رمزية . ويعتبر الإدماج والإسقاط حيلتين نفسيتين مسئولتين عن تفاضل الأنا عن العالم الخارجى وتحديد الخطوط التى تفصل بينهما . وقد توسعت « ميلانى كلاين » (Melanie Klein) فى دراسة هذه المراحل المبكرة من النمو النفسى وأبرزت دور الإدماج والإسقاط فى العلاقات الأولى بالموضوعات [١] .

والملاحظ أن «أبراهام» (K. Abraham) يطلق على العملية ذاتها اسماً مختلفاً هو "Incorporation" [٢]

(٢) استقطاب :

Polaritaet
Polarity
Polarité

تتسم الحياة النفسية ، كما تتصورها نظرية الدوافع الغرزية لدى فرويد ، بوجود ضروب من الثنائية تحدد للفرد إمكانيات نموه ، وتجعل من مفهوم الصراع النفسى مفهوماً أساسيًّا نصف على هديه التطور النفسى فى صوره السوية والمرضية على حد سواء . والحياة النفسية تخضع لثلاثة أنواع من الثنائية أو الاستقطاب ، هى التقابل القائم بين الذات (الأنا) والموضوع (العالم الخارجى) ، وبين اللذة والألم ، وبين الإيجابية والسلبية . يقول فرويد : « إن التقابل بين الأنا واللاأنا (الخارج) أى بين الذات والموضوع ، يفرض نفسه على الفرد منذ ساعة مبكرة حين يدرك هذا الأخير أنه يستطيع أن يقضى على التهيجات الصادرة من خارج بتحريك عضلاته ، ولكنه يظل بلا حيلة إزاء التهيجات الصادرة عن الغريزة . ويتحكم هذا التقابل فى مجال النشاط العقلى على وجه التخصيص ويمد البحث بموقف أساسى لا يستطيع أى قدر من الجهد تعديله . أما الاستقطاب الخاص

---

(١) راجع Melane Klein : *Contributions to psychoanalysis.* Hogarth Press, London 1950.

(٢) K. Abraham : A short history of the development of the Libido, viewed in the light of mental disorders. *Selected Papers.* Hogarth Press, London 1949.

باللذة والألم فرهن بسلسلة من المشاعر لها أهميتها التى لا تقدر فيما يتعلق بتحديد أفعالنا (الإرادة) . وليس ينبغى الخلط بين المتضادين : النشاط والسلبية وبين المتضادين الأنا — الذات ، والموضوع — الخارج . فالأنا يسلك من العالم الخارجى مسلكاً سلبياً عندما يتقبل منه التهيجات ومسلكاً إيجابياً عندما يرد عليها . ودوافعه الغرزية تجبره على القيام بقدر من النشاط الخاص بالنسبة للعالم الخارجى ، بحيث يمكننا إبراز لب الموضوع فى قولنا إن الأنا — الذات سلبى بالنسبة للمنبهات الخارجية وإيجابى بفضل دوافعه الغرزية الخاصة به . والمتضادان الموجب والسالب يمتزجان فيما بعد بالمتضادين المذكر والمؤنث اللذين لم يكن لهما من قبل دلالة سيكولوجية . والتصاق الإيجابية بالذكورة والسلبية بالأنوثة يبدو لنا واقعة بيولوجية ولكنها ليست ألبتة قاطعة على الدوام ولا هى بالنهائية كما قد نجنح للاعتقاد » [1]

(٣) إسقاط : Projektion Projection

يستخدم مفهوم الإسقاط فى مجالات ثلاث :

١ — فى مجال علم النفس الفسيولوجى حيث يدل على عمليه يحدد بها الكائن العضوى الوضع المكانى للانطباعات الحسية التى يتقبلها . مثال ذلك أن الصور البصرية أو السمعية تسقط على نقط محددة من المكان .

٢ — فى مجال التحليل النفسى ، يشير الإسقاط أولا إلى حيلة لاشعورية من حيل دفاع الأنا بمقتضاها ينسب الشخص إلى غيره ميولا وأفكاراً مستمدة من خبرته الذاتية ، يرفض الاعتراف بها لما تسببه من ألم وما تثيره من مشاعر الذنب . فالإسقاط بهذه المثابة وسيلة للكبت أى أسلوب لاستبعاد العناصر النفسية المؤلمة عن حيز الشعور . والعناصر التى يتناولها الإسقاط يدركها الشخص ثانية بوصفها موضوعات خارجية منقطعة الصلة بالخبرة الذاتية الصادرة عنها أصلا . « فالإدراك الداخلى —

(١) S. Freud : Instincts & their vicissitudes. *Collected Papers*, IV. Hogarth Press, London 1950.

كما يقول فرويد – يُلغى ويصل مضمونه إلى الشعور عوضاً عنه فى شكل إدراك صادر عن الخارج ، بعد أن يكون قد لحقه بعض التشويه »[١]. والإسقاط من حيث هو حيلة دفاعية مميز للمرض العقلى ولاسيما البارانويا و إن كان ذلك لا يمنع وجوده فى أحوال مرضية أخرى ، والفيصل فى الموضوع هو بناء الشخصية المميز .

ويدل الإسقاط ثانياً على عملية نفسية غير متصلة مباشرة بالكبت ألا وهى عملية صياغة الحلم حيث تتخذ أفكار الحالم صور موضوعات مادية خارجية . ويقول فرويد : « يدل الحلم على حدوث شىء قادر على إقلاق النوم ويتيح لنا فهم النحو الذى أمكن به تجنب هذا الإقلاق . فالنتيجة النهائية هى أن النائم رأى حلماً وفى وسعه إذن مواصلة النوم : فبدلا من المطلب الداخلى الذى كان يسعى إلى الاستحواذ عليه ، ظهرت واقعة خارجية وأشبع مطلبها . فالحلم إذن إسقاط أيضاً أى تعبير خارجى عن عملية داخلية »[٢].

٣ – فى مجال ما يسمى بعلم النفس الإسقاطى (Projective Psychology) يعرف الإسقاط بأنه « حيلة نفسية ينسب فيها الشخص سماته الذاتية وعواطفه وميوله لموضوعات بيئته من أشخاص وأشياء[٣] . فالإسقاط لا يقصر ههنا على كونه حيلة دفاعية وإنما يفهم بالمعنى الواسع للفظة . ومن ثمة فهو أساس لما يعرف بالطرق الإسقاطية (Projective Methods) مثل اختبار بقع الحبر لـ « رورشاح »(Rorschach) واختبار تعرف الصور (T.A.T.) لـ « ميرى » (Murray) وهى أساليب غير مباشرة تكشف عن اتجاهات الفرد بأن تجعله يستغرق فى أداء مهمة يستعين فيها على قدرته على التخيل والابتكار الفنى عامة ، بحيث يغفل عن الضبط الإرادى ويتجنب الحرج إن وجه إليه السؤال مباشرة[٤] .

---

(١) S. Freud : Psycho-analytic notes upon an autobiographical account of a case of paranoia (Dementia Paranoides). *Collected Papers III*, p. 452.

(٢) S. Freud : Metapsychological supplement to the theory of dreams. *Collected Papers IV*, p. 139.

(٣) E. Schachtel : Projection & its relation to character attitudes & creativity in the Kines thetic responses. *Psychiatry* 1950, 13.

(٤) L.K. Frank : *Projective methods*. Charles Thomas, U.S.A., 1948.

(٤) أعصبة التحويل :

Uebertraegungsneurosen
Transference neuroses
Névroses de transfert

العصاب مرض يتميز بوجود اضطرابات وظيفية لا أساس تشريحي لها ولا تغير من شخصية المريض (شأن الذهان) . لذلك فإن المريض يحس بمرضه إحساساً مؤلماً ويعمل جاهداً على مقاومته .

ويميز التحليل النفسي تمييزاً أولياً بين « الأعصبة الفعلية » (Actual neuroses) و« الأعصبة النفسية » (Psychoneuroses) . وتشير الأولى إلى « النورستانيا » (Neuresthenia) (راجع هذا البند) و« عصاب القلق » (Anxiety neurosis) و « توهم المرض » (Hypochondriasis) وفيها تكون الأعراض جسمية بحتة ناتجة عن عدم تصريف الطاقة الغرزية تصريفاً ملائماً ، ولا دخل في ذلك لحيل الدفاع النوعية المسئولة عن تكوين الأعراض المختلفة في الأعصبة النفسية .

ومن جهة أخرى يميز التحليل النفسي بين « الأعصبة النرجسية » (Narcissistic neuroses) « وأعصبة التحويل » . ويقصد بالأولى أمراضاً تتميز بوجود نكوص في النمو النفسي أعمق مما نراه في أعصبة التحويل ، بحيث يصبح « التحويل » في الموقف العلاجي ممتنعاً أو صعباً لترك اللبيدو عالم الموضوعات وانحصاره في الذات . والموقف بهذه المثابة استعادة للمرحلة النرجسية من مراحل تطور اللبيدو (راجع في النص « نظرية اللبيدو ») . وهذا المفهوم مطابق في الواقع لمفهوم الذهان أو المرض العقلي وينطبق على « الفصام » (Schizophrenia) (انظر بند « الجنون المبكر ») و « السوداء » (Melancholia) مثلا . والأعصبة النرجسية لا تخضع مباشرة للتحليل النفسي لانقطاع الصلة الانفعالية التي تربط المريض بالعالم الخارجي ، وإن كان ذلك لا يعني أن المريض منقطع الصلة بالعالم انقطاعاً تاماً نهائياً كما لا يعني أن من الممتنع حدوث ظاهرة التحويل في الذهان على الإطلاق . والواقع أن التحويل موجود أيضاً في الذهان ويتخذ فيه صوراً مميزة ، بحيث يصبح من الممكن تطبيق التحليل النفسي

فى هذه الحالة أيضاً بشرط أن يعدل تعديلا عميقاً يلائم مستوى النكوص الذى بلغه المريض [١].

أما أعصبة التحويل — وأهمها الهستيريا (Hysteria) بأنواعها والعصاب الوسواسى (Obsessional neurosis) — فتتسم بأن الصلة فيها لم تنقطع بالموضوعات رغم ما طرأ عليها من اضطراب نتيجة « لانطواء » الشخص وتقلص مجال اهتماماته وانحصار الجانب الأكبر من طاقته اللبيدية فى موضوعات الخيال . وبفضل وجود هذه العلاقة بالموضوعات يصبح المريض قادراً على « التحويل » ومن ثمة يمكن إخضاعه للتحليل النفسى من حيث إن أساس هذا الفن من العلاج استغلال ظاهرة التحويل استغلالا منهجياً .

يبقى أن نقول إن التحويل ظاهرة لاشعورية معقدة تحدث تلقائياً فى موقف التحليل النفسى وتميزه عما عداه من المواقف فى الحياة . وقد وصف فرويد طبيعة التحويل وأهميته العلاجية فى النص التالى :

يقول : « لا يكتفى المريض بأن ينظر إلى المحلل على ضوء الواقع بوصفه معيناً وناصحاً ، يكافأ على الجهود التى يبذلها ، ويقنع هو نفسه بدور الدليل فى الجبال أثناء تسلق وعر ، بل يرى المريض فى محلله بعثاً أو نسخاً لشخص هام فى طفولته أو ماضيه . ومن ثمة يحول إليه مشاعر ومواقف سلوكية كانت تنصب بلا ريب على ذلك المثال . وسرعان ما يتضح أن عامل التحويل هذا عامل ذو مغزى لا نحلم به ؛ فهو من ناحية أداة معونة لا تضارع وهو من ناحية أخرى مصدر لأخطار فادحة . فهذا التحويل مزدوج الميل ، فهو يتضمن اتجاهات إيجابية ودية وأخرى سلبية عدائية تجاه المحلل الذى يحله المريض دائماً محل أحد والديه : أبيه أو أمه . وما دام التحليل إيجابياً فهو يقدم لنا أعظم العون ، فهو يغير الموقف التحليلى كله وتُطرح جانباً رغبة المريض العقلية فى الشفاء والتخلص من متاعبه وتقوم مقامها الرغبة فى إرضاء المحلل والظفر بتأييده ومحبته ، بحيث تصبح القوة الدافعة الحقيقية لمشاركة

---

(١) قارن J. Rosen : *L'analyse directe.* P.U.F., Paris 1960.
Frieda Fromm-Reichmann : *Psychoanalysis & psychotherapy.* Bullard, Chicago 1959.

المريض في العملية التحليلية ، فيقوى الأنا الضعيف . وبتأثير هذه الرغبة يحقق المريض أموراً كانت محالة بدونها فتختفي أعراضه ويبدو أنه قد شفي ، وما كان ذلك إلا حباً للمحلل . ويجب على المحلل أن يعترف لنفسه بتواضع أنه أخذ على عاتقه مهمة شاقة دون أن يخطر بباله ما سيقع تحت تصرفه من قوى جبارة .

وبالإضافة إلى هذا فإن علاقة التحويل تحمل معها ميزيتين أخريين . فعندما يضع المريض المحلل مكان أبيه أو أمه ، فإنه يتيح له السيطرة التي يمتلكها الأنا الأعلى عنده على الأنا من حيث أن أبويه — كما نعلم — كانا أصل الأنا الأعلى عنده ، فيتاح للأنا الأعلى الجديد — آنذاك — أن يقوم بما يشبه التربية اللاحقة للعصابي ، فيستطيع أن يصحح الأخطاء التي تعد التربية الأبوية مسئولة عنها . ولكن يجب أن نحذر ههنا من أن يساء استخدام هذا النفوذ الجديد . فمهما استبد بالمحلل الإغراء بأن يصبح معلماً ونموذجاً ومثالا لغيره من الناس ، بأن يصوغهم على صورته ، فعليه ألا ينسى أن مهمته غير ذلك في العلاقة التحليلية ، بل لن يكون مخلصاً في مهمته إن ترك ميله يسيطر عليه . ولن يعدو إذن أن يكرر أحد أخطاء الوالدين عندما كانا يقضيان على استقلال طفلهما بما لهما من تأثير ، وأن يحل محل الاعتماد المبكر اعتماداً جديداً . ويجب على المحلل أن يحترم المريض في كل المحاولات التي يبذلها لتحسين حالته وإنماء فرديته . ولا يكون مقدار النفوذ الذي يمارسه ممارسة مشروعة إلا بقدر ما أصاب المريض من الكف في نموه الانفعالي . فهناك عصابيون كثيرون ظلوا على النمط الطفلي بحيث لابد أن يعاملوا كأطفال أثناء التحليل . وهناك ميزة أخرى للتحويل ، هي أن المريض يبرز لنا بوضوح مجسم جزءاً هاماً من تاريخ حياته ، لم يكن ليستطيع — لولا التحويل — إلا أن يعرضه لنا عرضاً ناقصاً . ويبدو أنه يحيا هذا الجزء أمامنا بدلا من أن يرويه لنا » [1] .

---

(١) فرويد : الموجز في التحليل النفسي ، ص ٤٧ — ٤٩ . ترجمة سامي محمود علي وعبد السلام القفاش . دار المعارف — القاهرة .

(٥) انحلال (تحلل) : Degeneration Degenerancy Dégérescence

يدل هذا المفهوم فى معناه الشائع على التدهور التدريجى . وقد كان « موريل » (Morel) (١٨٥٧) أول من أدخل هذا المصطلح فى الطب النفسى وحده بأنه « انحراف مرضى يطرأ على نمط أولى » . وقد ربط « موريل » ربطاً وثيقاً بين الطب النفسى والطب العام ، رافضاً الفصل بين النقائص النفسية والنقائص البدنية وعرض نظريته فى كتابه "Traité des dégénerescences physiques, intellectuelles et morales de l'éspèce humaine".

وتوسع « مانيان » (Magnan) فى أواخر القرن التاسع عشر فى مفهوم الانحلال فجعله يشمل مجال المرض العقلى بأسره ، سواء كان ذلك من ناحية مبحث العلل (étiologie) أو من ناحية التصنيف الإكلينيكى (classification clinique) للظواهر المرضية . ويعرف الانحلال فى كتاب له عن « إدمان الكحول » (Alcoolisme) صدر فى ١٨٩٥ بالاشتراك مع «لوجران » (Legrain) بأنه « حالة مرضية للموجود الذى يكون ناقصاً فى مقاومته النفسية والجسمية ، إن قارناه بوالديه المباشرين » . وتقوم تصنيفات « مانيان » الأمراض العقلية على أساس من تقسيمها قسمين كبيرين :

١ — فثمة من ناحية أنواع وراثية من الجنون تظهر لدى من يكون مهيئاً لها . والجنون الوراثى إما بسيط ويشمل « الهوس » (Manie) و « السوداء » (Mélancolie) و «الجنون المتقطع» (Folie intermettante) و «الهذاء المزمن» (Délire chronique) ، وإما مصحوب بانحلال ويشمل حالات التخلف العقلى كلها من النقص العقلى إلى البله ، فضلا عن « الجنون المصحوب بالشعور » (Folie avec conscience) والهوس العاقل (Manie raisonnante) وحالات الهذيان . وفى هذه المجموعة الثانية نجد علامات الانحلال التى كان ينسب إليها أهمية عظمى .

٢ — وثمة من ناحية أخرى قسم يحتوى على الأمراض التى تطرأ عرضاً على حياة الإنسان السوى مثل « الهذاء العصابى » (Délire névrosique) والهستيريا (Hystérie) و « الصرع » (Epilépsie) و « جنون التسمم » (Folie toxique) والأحوال العضوية.

وقد لاقى هذا المفهوم رواجاً كبيراً وأفرط المؤلفون فى تطبيقه فى مختلف مجالات النشاط الإنسانى . وقد بلغ هذا التطبيق أوجه عند « لمبروزو » (Lombroso) فى تحديده نمطاً وراثياً من المجرمين لهم خصائص جسمية ونفسية محتمة .

(٦) بارانويا : Paranoia

كان مفهوم البارانويا فى المبدأ مرادفاً للمرض العقلى عامة (وفقاً لاشتقاق الكلمة عن اليونانية : ما هو مضاد للعقل) وكان الغرض من هذه التسمية المقابلة بين الاضطرابات العقلية التى تشتمل عليها البارانويا كلها والاضطرابات الوجدانية التى لا صلة لها بها .

وقد وصف الأطباء النفسيون الألمان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ولا سيا « سنيل » (Snell) و « ساندر » (Sander) ما يدعى بـ « البارانويا الأولية » التى تتصف باتخاد المرض فيها طابعاً منطقياً منظماً ينفى وجود الضعف العقلى . ويربط « كرافت — إيبنج » (Kraft-Ebing) (١٨٤٠ — ١٩٠٣) ، ومن حذا حذوه من المؤلفين الإيطاليين (أمثال « موروسيلى» Morselli و « بيكولا» Buccola) البارانويا بالجبلة الانحلالية .

بيد أن هذه المحاولات التى بذلها هؤلاء الكتاب وغيرهم مثل« مندل» (Mendel) (١٨٣٩— ١٩٠٧) و « فستفال »(Westphall) (١٨٢٣ — ١٨٩٠) ، للتوسع فى مفهوم البارانويا وبسطه بحيث يستوعب مظاهر المرض العقلى برمتها ، لم يكتب لها التوفيق .

وانتهى الأمر بأن وضع «كريبلين » [1] (Kraeplin) (١٨٥٥ — ١٩٢٦) الحدود الفاصلة بين البارانويا والأمراض العقلية الأخرى وقصر البارانويا على صور الهذاء المزمن الذى يتميز : ١ — بوجود نسق منطقى دائم لا يمكن زعزعته . ولا ينفك ينمو نمواً بطيئاً غير ملحوظ بتأثير أسباب داخلية فى نفس المريض . و ٢ — باحتفاظ المريض بكامل قدراته العقلية والإرادية . وتتسم الصورة الإكلينيكية التى

---

(١) راجع بند « الجنون المبكر» .

يرسمها الطب النفسى للبارانويا بأربع علامات مميزة أساسية هى :

١ — مبالغة المريض فى تقدير ذاته ، والزهو الذى يستتر أحياناً خلف تواضع مصطنع ، وأحياناً يتراوح بين الإعجاب بالذات وجنون العظمة . وقد يؤدى حبه الذات هذا إلى الاستعراض العقلى أو الرواقية إلخ .

٢ — عدم الثقة بالغير ، وهو موقف انفعالى يمهد لأفكار الاضطهاد ويولد القلق والريبة من الغير ، ويتجلى فى شكل حساسية مفرطة تجعل المريض سريع الإحساس بالتجريح وميالا من جراء ذلك إلى الخلوة بنفسه ، مما يدفع المريض إلى اعتبار نفسه ضحية للآخرين .

٣ — زيف الحكم ، ومصدره تغلب العوامل الانفعالية على المعطيات الموضوعية والإفراط فى الولع بالمنطق . والمريض بالبارانويا ينجح فى تبرير آرائه كلها حتى ولو أمعن فى التبرير إلى حد اللامعقول ، دون أن يتزحزح عنها قيد شعرة . فثمة إذن استعداد ملموس لتفسير الأحداث تفسيراً هذائياً .

٤ — العجز عن التوافق الاجتماعى ، نتيجة للميول السابقة وإن كان المرجح أنه اضطراب أولى . ويمكن حده بأنه عجز عن الخضوع لنظام اجتماعى معين والتناغم مع الجماعة . ومظاهره منوعة منها الملل والعزلة الإرادية وهيام المريض على وجهه على غير هدى ، أو التمرد الذى يبديه المريض إذ يرغب فى إخضاع العالم لإرادته ، والموقف الملتبس الذى يقفه المريض حين يحاول التوفيق بين فكرته عن نفسه وفكرته الزائفة عن العالم (١) .

وقد تعرض فرويد لموضوع البارانويا فى دراسته المطولة لحالة « الرئيس شريبر » (President Schreber) من خلال سيرته الذاتية ، فكشف عن أهمية الجنسية المثلية والموقف الأوديبى السلبى فى نشأة جنون الاضطهاد . فالمريض يحس دافعاً جنسياً للحلول محل الأم بالنسبة للأب ، وهو دافع مرفوض أصلا ولا يمكن تقبله شعورياً ، مما يحدو بالأنا إلى مواجهته للتخلص منه . وأسلوب هذه المواجهة هو الذى يميز الذهان . فيحدث كبت للدوافع الجنسية المثلية عن طريق نكوص

---

(١) راجع A. Porot : *Manuel alphabétique de psychiatrie*. P.U.F., Paris 1952.

الليبدو إلى المرحلة النرجسية من مراحل النمو وفيها تتقطع الروابط التى تربط المريض بالعالم . ويستتبع هذا النكوص فشل الكبت وعودة العناصر المكبوتة وتكوين مضمون هذيان الاضطهاد وإسقاطه على العالم الخارجى ، فى محاولة أخيرة لاستعادة العلاقة السابقة بالموضوعات . بحيث يمكن تحديد مراحل تكون البارانويا كالآتى : أنا (رجل) أحبه (هو رجل) (حب جنسى مثلى) . ويتحول هذا الحب – نتيجة لثنائية العواطف وعدم إمكان إشباع الرغبة – إلى نقيضه أى إلى « أنا أكرهه » ثم « بالإسقاط » إلى « هو يكرهنى » (يضطهدنى) ، وأخيراً إلى « أنا أكرهه لأنه يضطهدنى » . والملاحظ أن الشخص الذى يوجه إليه المريض مشاعره العدوانية هو عين الشخص الذى كان فيما مضى موضوعاً لمشاعر الحب وهو فى الحالين بديل للأب [1] .

(٧) تحول : Convertion

يستخدم فرويد مفهوم التحول فى معرض كلامه عن تكوين الأعراض البدنية فى « هستيريا التحول » (Convertion hysteria) . فقد تبين له فى أول تطبيق مستفيض بالاشتراك مع « جوزيف بروير » (J. Breuer) لمنهج التطهير [2] فى علاج الهستيريا [3] أن الأعراض البدنية التى تظهر لدى هذه الفئة من المرضى لا أساس تشريحى لها بل هى تعبير رمزى عن فكرة لاشعورية متخيلة وتحقيق مقنع لرغبة مكبوتة ، مثلها فى ذلك مثل الحلم الذى تكون فيه الصور البصرية تجسيداً لأفكار الحلم اللاشعورية وإشباعاً هلواسياً لرغبة غير مصرح بها . والتحول بهذا المعنى يفترض شرطين أساسيين : شرط مادى هو أن أعضاء الجسم المختلفة مصادر فعلية للذة بحيث تصبح قادرة على التعبير عن التهيج الجنسى تعبيراً رمزياً بديلا ، وشرط نفسى هو تحول الواقع إلى صورة خيالية يمكن أن تفصح عن نفسها عن طريق الجسم ووظائفه المتباينة فى

---

(١) S. Freud : Psychoanalytic notes upon an autobiographic account of a case of paranoia (Dementia paranoides). *Collected Papers, III.*

(٢) راجع هذا البند فى المعجم

(٣) ظهرت « دراسات فى الهستيريا » (Stueden ueber Hysterie) لفرويد وبروير فى ١٨٩٥ .

هيئة « لغة جسمية » يمكن قراءتها وترجمتها على نحو ما نقرأ الحلم ونترجمه إلى معانيه.
وقد بين فرويد الطابع المتخيل لأعراض الهستيريا أقوى بيان إذ تعرض لمقارنة الشلل الهستيرى بالشلل العضوى ، فيقول : « تسلك الهستيريا فى الشلل وفى مظاهره الأخرى وكأن التشريح لا وجود له أو وكأنها لا علم لها به »[١] . وقد وضح فرويد أن التحول وسيلة تستخدم فى الهستيريا لاستبعاد الدوافع الجنسية غير المقبولة من الشعور ونقلها إلى مجال البدن . فالتصور المؤلم يجرد عن كل شحنة انفعالية تتصل به أصلا ، وتحول هذه الشحنة إلى الظواهر البدنية المختلفة فتنصرف انصرافاً رمزياً فى شكل اضطرابات وظيفية بحتة . فالتحول إذن صورة مميزة للكبت فى الهستيريا وفيها يمكن أن نتبين وجود الرغبة اللاشعورية المحرمة محققة تحقيقاً جزئياً والقوى اللاشعورية التى تمنع هذا التحقيق فى الآن نفسه[٢] .

(٨) تكوين عكسى :

Reactionsbildung
Reaction-formation
Formation réactionnelle

يقصد بالتكوين العكسى سمة من سمات الخلق نشأت كرد فعل على ميل غرزى مرفوض لدى الأنا . فهو ينتج عن عملية كبت سابقة ويدعم وجودها . والتكوين العكسى — متى توطد — يغنى عن اللجوء إلى حيل دفاعية مساعدة لدرء الخطر الناجم عن احتمال رفع الكبت فى أحوال معينة ، لأنه تغيير نهائى يطرأ على الشخصية فيحصنها ويجعلها فى منأى عن الخطر الغرزى المستبعد . ومن أمثلة التكوين العكسى الشفقة المفرطة من حيث هى رد فعل على دافع لاشعورى أصيل إلى القسوة والمبالغة فى النظافة من حيث هى رد فعل على ميل لاشعورى إلى القذارة .

---

(١) S. Freud : Some points in a comparative study of organic & hysterical paralysis. *Collected Papers, I.*

(٢) راجع S. Ferenczi : The phenomena of hysterical materialization. *Selected Papers II.* Basic Books 1952.

O. Fenichel : *Théorie psychanalytique des névroses*, chap. XII. P.U.F., Paris 1953.

والتكوين العكسى إحدى الحيل الدفاعية الأساسية التى نجدها فى العصاب الوسواسى (Obsessional neurosis)، و « عصاب الخلق » (Character neurosis)[1].

(٩) توحد : Identifikation Identification

من المفاهيم الأساسية التى يستعين بها التحليل النفسى على تفسير نشأة الشخصية وتكونها عن طريق تمثل الطفل خصائص والديه أو من يقوم مقامهما . والتوحد يختلف عن المحاكاة اختلافاً جوهرياً . فالمحاكاة عملية شعورية قصدية يضع بها الفرد نفسه مؤقتاً موضع فرد آخر فيسلك على نحو ما يسلك دون أن ينتج عن ذلك تغيير جوهرى فى شخصيته . أما التوحد فهو — على الضد — عملية لاشعورية ذات تأثير عميق دائم ، تتشكل بها أنية الشخص وفقاً لأنية شخص آخر تربطه به رابطة انفعالية قوية . « فالأنا يسعى إلى التشبه بمن اتخذه نموذجاً يحتذيه »[2].

ويميز التحليل النفسى بين نوعين من التوحد ؛ التوحد الأولى الذى يحدث فى الأشهر والسنوات الأولى من مراحل نمو الطفل وبه يصبح الطفل ماهو بتمثله شخصية والديه أو بديليهما . أو كما يقول « بولبى » (J. Bowlby) : « توصف العملية التى ينمى بها الطفل الأنا والأنا الأعلى لديه فى نفس الآن الذى ينمى فيه قدرته على الاحتفاظ بالروابط الوجدانية فى غياب الغير ، بأنها عملية توحد أو استبطان أو إدماج ، من حيث أن وظائف الأنا والأنا الأعلى تدمج فى الشخصية وفقاً لنمط يخلقه الوالدان »[3]. وتلقى هذه التوحدات المبكرة وما يعتريها من اضطراب يفضى إلى المرض ، اهتماماً خاصاً من جانب المحللين النفسيين فى الوقت الحاضر[4].

---

(١) راجع O. Fenichel : *ibid.*, p. 186-8.

(٢) S. Freud : *Group psychology & the analysis of the Ego*, p. 63.

(٣) Hogarth Press, London 1949.
J. Bowlby : *Les soins maternels et la santé mentale.*
Organisation mondiale de la santé, Genève 1954.

(٤) انظر مثلا P. Luquet : Les identifications précoces dans la structuration et la restructuration du moi. *Revue française de psychanalyse*, XXVI, 1962.

أما النوع الثانى من التوحد فهو التوحد الثانوى الذى يحدث فى أعقاب التوحد الأولى ويكون الدافع إليه عادة تجنب القلق المرتبط بموقف نفسى معين . فهو من ثمة حيلة دفاعية وعملية نفسية مسئولة عن تكوين الأعراض المرضية لا سيما فى الهستيريا . ومن هذا النوع الأخير ما تسميه « أنا فرويد » (Anna Freud) « بالتوحد بالمعتدى »[١] وفيه يسيطر الطفل على مخاوفه من شخص أو موضوع بتوحده به ، « فيتحول الشخص المهدد إلى شخص يهدد » .

كذلك يقوم التوحد بدور هام فى النمو العقلى لدى الطفل وفى اكتشافه ما يجهل من موضوعات العالم الخارجى . وقد درست « أليس بالنت » (Alice Balint) « التفكير التوحدى » لدى الأطفال وبينت كيف يستخدم الطفل خبرته المباشرة بجسمه نموذجاً يتصور على نمطه الموضوعات الجديدة التى لم يألفها بعد . « مثال ذلك أن الطفل الصغير يعتبر أى كتلة غليظة من المادة برازاً وأى سائل بولا ، لأن البراز والبول أشياء له بها ألفة سابقة »[٢] .

(١٠) ثنائية الميول : Ambivalenz Ambivalence

مصطلح أتى به « بلويلر » (E. Bleuler) (١٩١١) فى معرض ذكره الأعراض الأساسية لمرض الفصام [٣] . ويصف « بلويلر » المقصود بهذا المفهوم على النحو التالى :

يقول : « إن تصوراً بعينه يكون مصحوباً بمشاعر اللذة والألم فى الآن نفسه (الثنائية الوجدانية affective ambivalence) فالزوج يكره زوجته ويحبها معاً . وهلاوس المريضة تكشف للأم عما « تصبو إليه » من موت طفلها بيد زوجها الذى لا تحبه ، ثم تنطلق فى نحيب وبكاء لا نهاية لهما . وهى تحس أشد القلق من أنها سوف ترمى بالرصاص ولكنها لا تنفك تتوسل إلى الملاحظ أن يرميها بالرصاص . وهى تشكو من وجود رجل أسود خارج حجرتها ثم تندفع فى خليط عجيب من المطالب

(١) Anna Freud : *Le moi et les mécanismes de défense*, p. 97. P.U.F., Paris 1949.

(٢) Alice Balint : *The early years of Life*, p. 93. Basic Books, N.Y. 1954.

(٣) راجع بند « الجنون المبكر » .

المدمعة والشكاوى والعنف . طالبة البقاء فى المستشفى والسماح لها بلقاء الرجل الأسود وتهذى : « يا شيطان ، يا ملاك ، يا شيطان ، يا ملاك » (والإشارة هنا إلى حبيبها).

وفى ثنائية الإرادة (ambivalence of the will) يرغب المريض ولا يرغب فى الأكل . فيشرع فى رفع الملعقة إلى فمه عشرات المرات دون أن يكمل حركته أو قد يأتى بحركة أخرى لا جدوى منها . وقد يضج مطالباً بالإفراج ثم يبدى مقاومة مصحوبة بالسباب حين يبلغه أنه سوف يترك المستشفى . وما إن يطلب عملا حتى يثور ، إن وكل إليه عمل شىء ما ، ولا يحزم رأيه على القيام بما أسند إليه . . .

وثمة ثنائية عقلية (intellectual ambivalence) حين يقول المريض فى نفس اللحظة : « أنا الدكتور هـ . ، أنا لست الدكتور هـ . » ، أو « إنى كائن إنسانى مثلك رغم أنى لست كائنا إنسانياً » . .

ومن السهل البرهنة على أن المرضى لا يلقون بالا إلى التناقض حين نأخذ إجاباتهم السلبية مأخذ الإيجاب . فقد سألت مريضاً : « هل تسمع (أصواتاً) ؟ » فنفى ذلك نفياً قاطعاً . فأردفت : « وماذا تقول لك ؟ » ، فأجاب : « آه ، أشياء كثيرة جداً » . وأخذ يذكر مثالا على ما يقول . . . » [١] .

وقد اقتبس فرويد هذا المفهوم وأسبغ عليه معنى ديناميًّا جديداً ، فدرس على هديه الدوافع الغرزية فى نشأتها وتطورها ، مبيناً كيف تتميز الدوافع القبل تناسلية (الفمية والشرجية) بشدة الثنائية وكيف تبقى الدوافع المميزة لمرحلة من مراحل تطور الليبدو بجانب الدوافع الجديدة ثم كيف تتحول الدوافع إلى نقيضها إبان النضج النفسى وتكوين الشخصية [٢] .

(١١) الجنون المبكر : Dementia Praecox

مرض عقلى يصيب الفرد ما بين البلوغ وسن النضج فيفضى إلى تغيير بناء شخصيته تغييراً تدريجيًّا وقد يتسبب فى إحداث اضطرابات فى الوظائف النفسية

(١) E. Bleuler : *Dementia Praecox or the group of schizophrenias*, p. 53-4. Intern. Univers. Press, N.Y. 1953.

(٢) S. Freud : The instincts & their vicissitudes. *Collected Papers IV*.

والعقلية لا يمكن إصلاحها . وقد وضع مفهوم هذا المرض « كربلين » (Kraeplin) (١٨٥٥—١٩٢٦) بناء على نظريته العامة فى الأمراض العقلية . فهو يقسم الأمراض العقلية قسمين كبيرين : الذهان الهوسى الاكتئابى (Manic-depressive psychosis) من ناحية ، والجنون المبكر بصوره المختلفة من ناحية أخرى . وقد راعى « كربلين » فى هذا التقسيم التطور المميز لكل من هذين المرضين والنهاية التى ينتهى إليها كل منهما . فالجنون المبكر يفضى عادة إلى تدهور القوى العقلية (الجنون) تدهوراً سريعاً ، بينما يتخذ الذهان الهوسى الاكتئابى مساراً دورياً يمر فيه المريض بفترة انقباض تليها فترة هياج وهكذا دواليك . ويرى « كربلين » أن العرض الأساسى فى الجنون المبكر ينصب على الحياة الانفعالية ، فهى مفتقدة كلية لدى المريض[1].

وقد عدل « بلويلر » (Bleuler) (١٩١١) مفهوم الجنون المبكر بناء على دراسته الاضطرابات الأساسية التى تصيب الوظائف النفسية الكبرى فى هذا المرض (تداعى الأفكار والحياة الانفعالية والعلاقة بالعالم الخارجى) . فتأدى إلى وضع مفهوم الفصام (Schizophrenia) ، لما تبين له أن الجنون المبكر ليس له من الجنون إلا المظهر (وإلا فكيف نفسر شفاء بعض حالات هذا المرض « المزمنة » وقد لاح لأول وهلة أن التدهور العقلى فيها نهائى ودائم ؟) ، كما أن الحياة الانفعالية موجودة فيه على أية حال ؛ فجوهر المرض إذن شىء آخر هو — فى رأى « بلويلر » — انفصام العمليات النفسية وانتفاء الوحدة منها ، ويقول « بلويلر » : « نعنى بكلمة « الجنون المبكر » أو « الفصام » مجموعة من الأمراض العقلية تزمن أحياناً وتتسم أحياناً أخرى بتقطع هجماتها ، وقد تتوقف أو تتراجع فى أية مرحلة ولكنها لا تسمح بالعودة إلى الحالة الأصلية . ويتميز المرض بنمط معين من تغير التفكير والشعور والعلاقة بالعالم الخارجى تغيراً لا يتبدى فى أى موضع آخر على هذا النحو الخاص .

وفى كل حالة نواجه انفصاماً فى الوظائف النفسية متفاوت الوضوح . فإن اشتد المرض فقدت الشخصية وحدتها . وأحياناً يبدو أن المركبات النفسية المختلفة تمثل الشخصية بأسرها كما يبدو أن تكامل المركبات والميول المختلفة غير كاف بل غير موجود . فالمركبات النفسية لا تتجمع فى مزيج من الدوافع ذى نتاج موحد

---

(١) راجع G. Zilboorg : *A history of medical psychology.*

كما يحدث لدى الشخص السوى . وإنما نجد مجموعة من المركبات تتحكم فى الشخصية وقتاً ما بينما تصبح مجموعات أخرى من الأفكار « فى حالة انفصام » وكأنها فقدت قوتها جزئياً أو كلياً . وغالباً ما لا تتكون الأفكار إلا تكوناً جزئياً وترابط أجزاء من أفكار على نحو غير منطقى لتكوين فكرة جديدة . فتفقد المفاهيم اكتمالها وتبدو كأنها تخلت عن أحد مركباتها الأساسية أو أكثر من مركب »[١] .

وابتداء من هذا العرض الأساسى تظهر أعراض ثانوية أخرى متنوعة غاية التنوع مثل الأفكار الهاذية والهلاوس واعتقاد المريض بأن الغير يؤثر فيه عن بعد ، وهى أعراض تخلع على المرض صورة متباينة كل التباين ، وتجعل من مفهوم « الفصام » مفهوماً أعم بكثير من تصور « الجنون المبكر » . وإن اتفق معه فى المعارضة بينه وبين الذهان الهوسى الاكتئابى (ويقسم « بلويلر » الفصام إلى أربع صور هى :
Paranoid Schizophrenia, Simple schizophrenia, Hebephrenia, Catatonia[٢]

(١٢) ذكرى ساترة :

Deckerinnerung
Screen-memory
Sourvenir-écran.

وضع فرويد هذا المصطلح للدلالة على طائفة من ذكريات الطفولة الصادقة أو الكاذبة ، تافهة المضمون ، مجردة عن الانفعال ، معاصرة لأحداث هامة أخرى وهى ذكريات تحل فى الواقع محل ذكرى مؤلمة أصيلة كبتت واستبعدت عن مجال الشعور . وهناك — على ما يقول فرويد — « قوتان نفسيتان مسئولتان عن ظهور ذكريات من هذا القبيل . وتتخذ إحدى القوتين من أهمية الخبرة دافعاً إلى محاولة تذكرها ، بينما تحاول الأخرى — وهى المقاومة — منع إظهار مثل هذا التفضيل . وهاتان القوتان لا تلغى إحداهما الأخرى ولا تنتصر إحداهما على الأخرى (سواء خسرت هى ذاتها شيئاً أو لم تخسر) . ويبدو بدلا من ذلك حل وسط على مثال المحصلة فى معين القوى ، وإليك الحل الوسط : فالذاكرة لا تستبقى الخبرة الحقيقية —

---

(١) E. Bleuler : *Dementia Praecox or the group of schizophrenias* p. 9.

(٢) راجع آخر الآراء عن موضوع الفصام فى الكتاب التالى :

L. Bellak : *Schizophrenia. A review of the syndrome*. Logos Press, N.Y. 1958.

ومن هذه الوجهة تسير المقاومة قدماً فى طريقها — وإنما تستبقى عنصراً نفسياً آخر وثيق الصلة بالعنصر المرفوض — ومن هذه الوجهة تظهر قوة المبدأ الأول الذى يعمل على تثبيت الانطباعات الهامة فى شكل صور ذكروية يمكن استرجاعها . ويفضى الصراع إلى استعادة ذكرى أخرى بدلا عن الذكرى المرتبطة بالحدث الأصيل. ذكرى منقولة إلى حد ما عن الأولى بطريق التداعى . ولما كانت أهم العناصر هى التى دفعت إلى الرفض ، افتقدت الذكرى البديلة بالضرورة هذه العناصر الهامة وبدهتنا بتفاهتها » [١] .

(١٣) سادية :

Sadismus
Sadism
Sadisme

تنسب السادية إلى « الماركى دى ساد » (Marquis de Sade) من كبار الكتاب الفرنسيين فى القرن الثامن عشر (١٧٤٠ — ١٨٨٤) ، عاصر الملكية والثورة الفرنسية وما بعدها . وأمضى الجانب الأكبر من حياته (٢٧ سنة) سجيناً متنقلا بين سجون فرنسا المختلفة إيفاء لأحكام صدرت ضده ، دوافعها سياسية (فقد اتهم مثلا بالاعتدال إبان الثورة الفرنسية التى ناصرها) أو أخلاقية إثر ما ارتكب من أفعال جنسية فاضحة يغلب عليها طابع القسوة والتجريح وإنزال الألم بالغير . ولم يكن « ساد » مجرد ماجن ينوع اللذات ويتذوق منها ما امتزج بالألم ، وإنما كان مفكراً وفيلسوفاً استغل خياله الخصب إبان السنوات الطويلة التى أمضاها بين جدران السجن فى تصوير فلسفته فى الحياة . ومحور هذه الفلسفة التمرد على نظام الكون الذى يبيح الشر وعلى الطبيعة الإنسانية التى تستطيبه وعلى بنى البشر الذين يدينون بعضهم بعضاً باسم قيم لا مبرر نهائياً لها . ويتخذ هذا التمرد صورة النشاط الجنسى المدمر . ومن ثمة فإن « ساد » يحتل مكاناً فريداً فى عداد المفكرين الذين واجهوا الحياة برفض مطلق [٢] .

---

(١) S. Freud : Screen-memories. *Collected Papers*. V.

(٢) أنظر A. Camus : *L'homme révolté*, p. 54 et suiv. P.U.F, Paris, 1951.

ومن كتبه القصصية « جوستين أو شقاء الفضيلة » (١٧٩١) (Justine ou les malheurs de la vertu) و « أيام سـودوم المائة والعشرون » (١٧٨٩) (Les 120 jours de Sodome) و«الفلسفة فى المخدع »(١٧٩٥) (La philosophie dans le baudoir) و « جرائم الحب » (١٨٠٠) (Les crimes de l'amour) و«حوار بين قس ومحتضر»(١٧٨٢) (Dialogue entre un prêtre et un moribond)[1]

وتدل السادية على انحراف ينحصر عامة فى استمداد اللذة الجنسية مما يلحق الغير من ألم بدنى ونفسى . والشخص الذى يقع عليه هذا الألم قد يكون من نفس الجنس الذى ينتمى إليه السادى أو قد يكون طفلا أو حيواناً ، وفقاً لارتباط الانحراف بالجنسية المثلية أو عشق الأطفال أو الحيوانية .

وقد يكون الألم الذى ينزل بالضحية ألماً مادياً (من ضرب ووخز وعض وتشويه قد يصل إلى حد القتل) أو نفسياً (فى صورة التجريح والإذلال) . وقد لا يعدو أن يكون الألم فى بعض الأحايين مجرد افتعال (وهو ما يسميه « كرافت — إيبنج » (Kraft-Ebing) بالسادية الرمزية) .

وقد يكتفى السادى بمشاهدة الألم ولكنه عادة ما يتسبب فيه ذاته . وكذلك فقد يكون الإشباع مقصوراً على المجال النفسى ولو أن الغالب أن يكون مصحوباً بإحساس جنسى ينتهى بالتفريغ الجنسى تلقائياً أو عن طريق الجماع أو الاستمناء .

وثمة صورتان للسادية يرد وصفهما عادة :

السادية فى صورتها الملطفة ، وفيها يتحقق الإشباع بتخيل مناظر القسوة أو بأداء طقوس تتمثل فيها القسوة . وهى أكثر الحالات ذيوعاً ، وأعمال « ساد » مليئة بأمثلة عليها . والضرب — بالسوط عادة — هو أحد الأساليب التى يلجأ إليها الساديون من هذه الفئة . فهم يجدون فى ضرب من يواقعونه جنسياً إشباعاً جنسياً فعلياً أو تمهيداً له . ويرتبط بهذا النحو من الإشباع الجنسى ، مضاجعة الموتى أو تأمل جثثهم أو لمسها . وقد ظهرت حالات نادرة تمثل فيها هذا النوع من الشذوذ .

أما السادية فى صورتها المشددة فانحراف لا يتحقق فيه الإشباع الجنسى إلا بإتيان أفعال تتسم بالقسوة الفعلية وقد تفضى إلى القتل . ويصحب هذه الأفعال

(١) G. Lely : *Morceaux choisis de D.A.F. de Sade.* Seghers, Paris 1948.

التمثيل بالضحية أو مص دمها أو أكل أجزاء منها ، مما يقربها من افتراس البشر في بعض المجتمعات البدائية . والتمثيل يشمل الأعضاء التناسلية والأرداف والأثداء ويكشف عن وجود ميول فتشية وثيقة الصلة بالسادية .

وتتسم الجرائم السادية بالبشاعة وبتكرارها تكراراً رتيباً يتناول المظهر العام ودقائق الجريمة . ولا بد من التنبيه إلى ارتباط السادية بضدها وهو المازوخية لدى الفرد الواحد ، مما يجعل الأصوب الكلام عن « السادية — المازوخية » كوحدة نفسية وإكلينيكية لا يمكن أن نفصل بين حديها إلا فصلا نظرياً [١] .

Kathartisches Verfahren
Cathartic Method
Méthode cathartique

(١٤) طريقة التطهير (التنفيس) :

يشير « أرسطو » إلى فكرة التطهير في معرض كلامه عن الأثر الانفعالي الذي تولده المأساة في نفس المتفرج . « فالمأساة — على حد قوله — ذات أحداث تثير الشفقة والخوف كيما يتحقق تطهير مثل هذه الانفعالات »[٢] . وطريقة التطهير في العلاج النفسي تعتمد على فكرة مماثلة وتحيل إلى ملاحظة « أرسطو » هذه .

« أما الطريقة التي يستخدمها فرويد في العلاج النفسي ويطلق عليها اسم التحليل النفسي ، فمشتقة من العلاج التطهيري الذي تعرض له بالنقاش — بالتعاون مع « جوزيف بروير » (Joseph Breuer) في « دراسات في الهستيريا » (Stueden ueber Hysterie) المنشورة سنة ١٨٩٥ . وقد ابتكر « بروير » هذا العلاج التطهيري واستخدمه لأول مرة في علاج مريضة بالهستيريا (. . .) وبه نفذ إلى النشأة المرضية لأعراضها . وقد بعث فرويد هذه الطريقة من رقدتها — بناء على اقتراح « بروير » — وجربها في عدد كبير من المرضى .

وتفترض طريقة التطهير أن من الممكن إنامة المريض ، وأساسها توسيع مجال الشعور توسيعاً يتم إبان التنويم . أما هدفها فإزالة الأعراض المرضية . وهي تدرك

---

(١) A. Hesnard : *Manuel de Sexologie normale et pathologique*, p. 329 et suiv. Payot, Paris 1951.

(٢) Aristotles : *De Poetica*, 6. The Works of Aristotles, Oxford 1952.

هذه الغاية بأن تجعل المريض يستعيد الحالة النفسية التى ظهرت فيها الأعراض لأول مرة . وفى هذا الحال يعود إلى فكر المريض ما سبق استبعاده عن الشعور من ذكريات وأفكار ونوازع . ولا يلبث أن يختفى المرض إلى غير رجعة حالما يحكيها للطبيب ويصحب هذا التعبير بالانفعال الشديد . وقد أول المؤلفان هذه التجربة فى مقالهما المشترك بأنها تعنى أن الأعراض تمثل عمليات مكبوته لم تصل إلى الشعور أى أنها تمثل تغيراً (تحولا)[١] يطرأ على هذه العمليات . وقد فسرا فاعلية علاجهما بتصريف الانفعال الذى ظل « مختنقاً » لارتباطه بالأفعال النفسية المكبوته (التطهير) . بيد أن بساطة العملية كانت تتعقد دائماً فى التطبيق نظراً لأن العرض لم يكن ناتجاً عن انطباع (صدمى) واحد وإنما ينشأ فى معظم الحالات عن سلسلة من الانطباعات لا يمكن الإحاطة بها إلا بصعوبة »[٢].

(١٥) عصاب الصدمة :

Taumatische Neurose
Traumatic Neurosis
Névrose traumatique

يتصور التحليل النفسى الصدمة حالة من حالات الكائن العضوى تتميز بالإفراط فى الاستثارة إلى حد يمتنع فيه التصريف ، فيجهد الكائن العضوى فى التوافق مع الموقف بأن ينأى بنفسه عن أى استثارة إضافية ، مستعيناً فى ذلك بالإغماء مثلا .

وتنص نظرية التحليل النفسى على أن الأنا يتحكم فى الإثارات المعتادة باستخدامه حيلا نفسية معينة تقيه خطرها . ولكن حين يواجه الأنا منبهاً صادماً ، أى منبهاً لا يمكن التحكم فيه فى الفترة الزمنية المألوفة ، فإنه لا يلبث أن يُغمر بكميات مفرطة من الطاقة تهدد وسائله فى الوقاية بل قد تقضى عليها . فإن تهاوت بالفعل ولم يظهر للقلق أثر ففى ذلك دليل على أن الصدمة قد وقعت وأن الموت قد يستتبعها وشيكاً . أما إن كانت وسائل الوقاية مهددة بالانهيار فإن الأنا يفقد قدرته على الاستجابة بما يقتضيه الواقع وتصبح استجابته من قبيل القلق . ومن يفاجأ بحدث داهم خطير يفقد معه السيطرة على الموقف يغدو ضحية لعصاب

---

(١) راجع بند « تحول » من المعجم الحالى

(٢) S. Freud : Freud's psycho-analytic method. *Collected Papers*. I, p. 264-5.

الصدمة . وذلك لأن الصدمة تولد كميات من التوتر تنصرف فى صورة أعراض مرضية أهمها تعطل وظائف الأنا المختلفة أو ضعفها ، وأزمات انفعالية قهرية (يغلب عليها القلق والغضب خاصة) وأرق واضطراب فى النوم مصحوب بأحلام يتكرر فيها موقف الصدمة بغية السيطرة على الانفعالات المرتبطة به . وقد يسترجع المريض موقف الصدمة فى حالة اليقظة أيضاً فيحياه المرة تلو المرة فى أخيلته وأفكاره ووجدانه . وقد يزيد الأمر تعقيداً ظهور أعراض عصابية ثانوية[١] .

(١٦) عقدة أوديب :

Œdipuskomplex
Œdipus-complex
Complexe d'œdipe

عقدة الخصاء :

Kastrationskomplex
Castration Complex
Complexe de Castration

إن وجود علاقة وثيقة بين العقدتين (أو بالأحرى المركبين) يبرر الجمع بينهما فى تقديم واحد . وتشير عقدة أوديب إلى الأسطورة اليونانية التى تصور « أوديب » يقتل أباه ويتبوأ عرش « طيبة » الذى خلا بموته ثم يتزوج أمه دون أن يعلم حقيقة ما فعل وإنما يكون فى ذلك منقاداً لقدر لا مرد له .

والطفل يواجه موقفاً مماثلا لمصير أوديب . فنى فترة متأخرة من فترات نمو الطفل النفسى (حوالى السنة الخامسة) ، يتعلق الطفل بالوالد من الجنس الآخر (الابن بالأم والابنة بالأب) تعلقاً لا يلبث أن يقع عليه الكبت بسبب الصراع الناشئ عن اصطدام هذا التعلق بمشاعر الغيرة والكراهية والخوف التى يستشعرها الطفل تجاه الوالد من نفس الجنس (الأب بالنسبة للابن والأم بالنسبة للابنة) ، فتجعله يرغب فى إقصائه والاستئثار بموضوع الحب . تلك هى عقدة أوديب الإيجابية . أما عقدة أوديب السلبية فتتكون حين يحل التعلق العشقى محل مشاعر العدوان التى يحسها الطفل حيال الوالد من نفس الجنس ، ومثال ذلك ما نراه عند

---

(١) راجع O. Fenichel : *Théorie psychanalytique des névroses*, chap. VII. P.U.F., Paris 1953.

H. Numberg : *Principes de psychanalyse*, chap. VII. P.U.F., Paris 1957.

الصبى من سلبية لاشعورية مصدرها الجنسية المثلية وموضوعها شخص الأب .

أما عقدة الخصاء فتدل على الخوف اللاشعورى من فقدان الأعضاء التناسلية أو ما يقابلها من الأعضاء ، عقاباً على إتيان الفرد بعض الأفعال الجنسية المحرمة أو شعوره ببعض الدوافع الجنسية تجاه موضوع محرم . فالخوف من الخصاء يتولد عن وجود الموقف الأوديبى ، كما أنه قد يؤدى إلى الموقف الأوديبى السلبى السالف الذكر وممارسة الجنسية المثلية عامة . وهو الذى يجعل الطفل يقلع فى النهاية عن اتخاذ الوالد من الجنس الآخر موضوعاً للحب الجنسى فيستبطن التحريم الذى يقع على الزنا بالمحارم والذى يتمثل فى الوالد من نفس الجنس . فيتجه الطفل إلى حل الصراع الأوديبى ويكون ذلك بالتوحد بالوالد من نفس الجنس من حيث هو سلطة أخلاقية اجتماعية ، فتنشأ لديه نواة الضمير الأخلاقى (الأنا الأعلى) .

والموقف الأوديبى بهذه المثابة مرحلة ضرورية يمر بها الطفل نتيجة لنموه النفسى والجنسى . والسواء والمرض اللاحقان يتوقفان على الطريق الذى يختاره الطفل حلا للصراع الأوديبى .

ويجب التنبيه إلى تعقد الموقف الأوديبى فى صلته بالخصاء لدى الطفلة لأنها عاطلة فعلا عن القضيب . ولسنا بحاجة ههنا إلى تناول خصائص عقدة أوديب لدى الطفلة بشرح تفصيلى ؛ وإنما نكتفى بالإشارة إلى أن الموقف الأوديبى يبدأ لدى الطفلة بتصور الخصاء بينما ينتهى لدى الطفل بفكرة الخصاء .

ويقول فرويد : « عند ما يدخل الطفل الذكر (بين سنتيه الثانية والثالثة) المرحلة القضيبية من تطوره اللبيدى ، ويستشعر أحاسيس اللذة فى عضوه الجنسى ، ويتعلم كيف يحصل عليها وفق هواه بالاستثارة اليدوية — حينئذ يصبح حبيباً لأمه ويتمنى أن تكون له جسدياً على النحو الذى استنتجه من مشاهداته وتخميناته عن الحياة الجنسية . ويحاول أن يغويها بأن يعرض أمامها قضيبه الذى تفعمه حيازته إياه فخراً . وبعبارة موجزة ، فإن ذكورته المبكرة الاستيقاظ تحمله على السعى للحلول لديها محل أبيه ، فقد ظل أبوه حتى الآن نموذجاً يتطلع إليه بعين الحسد للقوة الجسدية التى يبديها والسلطان الذى يحف به . أما الآن فقد غدا أبوه منافساً يقف فى طريقه ويريد أن يبعده عن الطريق . وعند ما يتاح له إبان غيبة أبيه أن يشاطر أمه الفراش

وعند ما يقصى عنه ثانية عند عودة أبيه ، فإنه يشعر شعوراً عميقاً بالرضى عند غيبة أبيه والسخط عند عودته . هذا هو مضمون عقدة أوديب التى نقلتها الأسطورة اليونانية من عالم تخيلات الطفولة إلى عالم الواقع المزعوم . وتدخر حضارتنا الراهنة لهذه العقدة نهاية رهيبة .

وتفهم الأم حق الفهم أن تهيج الطفل الجنسى منصب عليها . ولا تلبث أن تقرر الأم أن من الخطأ أن تترك له الحبل على الغارب . فهى تعتقد أنها تحسن صنعاً عند ما تمنعه من اللعب اليدوى بعضوه . على أن هذا التحريم لا يحدث أثراً كبيراً ولا يؤدى — على أكثر تقدير — إلا إلى تعديل فى طريقته للحصول على الإشباع الذاتى . وأخيراً تلجأ إلى أعنف الإجراءات ، فتهدده بأن تسلبه ذلك الشىء الذى يتحداها به ، ولكى تجعل التهديد أكثر وقعاً وأقرب إلى التصديق ، تعلن عادة أنها ستكل التنفيذ إلى الأب ، وتقول إنها ستخبره حتى يقوم ببتر القضيب . والغريب حقاً أن هذا التهديد لا يحدث أثره إلا إذا تحقق شرط آخر إما قبله أو بعده ، أما التهديد فى حد ذاته فلا يصدقه الطفل ، ولا يتصور إمكان حدوث مثل هذه العقوبة . ولكنه إذ يذكر — أثناء التهديد — منظر الأعضاء التناسلية الأنثوية ، أو إذا اختلس — بعد مثل هذا التهديد بقليل — نظرة إلى تلك الأعضاء التى ينقصها بالفعل ذلك الجزء القيم ، حينئذ يصدق جدية التهديد الذى سمعه ، فيقع تحت تأثير عقدة الخصاء ، ويعانى أقصى صدمة فى حياته المبكرة[1] » .

(١٧) كف (تعطل) :

Hemmung
Inhibition

يدل الكف أولا على عملية عصبية فسيولوجية :

١ — فهو يشير إلى ما يطرأ على نسق قابل للاستثارة (كعضو من الأعضاء أو نسيج أو جزء من نسيج) من توقف أو نقص أو إبطاء فى النشاط التلقائى أو المتعمد ، نتيجة لتنبيه عصب أو منطقة عصبية مركزية على صلة بهذا النسق . وكان المقصود بهذا اللفظ بادئ ذى بدء الدلالة على الظاهرة التى كشف عنها

(١) سيجموند فرويد : الموجز فى التحليل النفسى ص ٦٢ — ٦٣ . ترجمة سامى محمود على وعبد السلام القفاش .

الأخوان « فيبر » (Weber) فى تجربة لهما ألا وهى إبطاء حركة القلب إلى حد التوقف إثر تنبيه العصب الحائر .

٢ — ويدل الكف أيضاً على ما تنطوى عليه الظاهرة السالفة الذكر من عمليات موضعية مختلفة : كيمائية وكهربية إلخ .

٣ — حالة ضمنية على درجات متفاوتة من الشدة ، يفترض وجودها نظرياً لتفسير النقص التلقائى أو المتعمد فى قابلية نسق معين للاستثارة . وبهذا المعنى يتحدث « شرنجتون » (Sherrington) عن حالة كافة مركزية (Central inhibitory state) تنطوى على درجات ومستويات مختلفة .

٤ — عملية يفترضها « جاكسون » (H. Jackson) لتفسير التوقف الذى يحدث فى الجهاز العصبى نتيجة لتأثير مستوياته العليا فى مستوياته الدنيا [١] .

أما فى التحليل النفسى فيؤخذ الكف بمعنى نفسى ، فهو يدل على « التقييد الوظيفى للأنا » الذى يرجع إلى أسباب منوعة (. . .) ويمكن تمييز هذا الاتجاه أيسر تمييز فى حالات الكف النوعية . فإن لحق العزف على البيان والكتابة والمشى ضروب الكف العصابى ، فإن التحليل يمدنا بالسبب . فالأعضاء التى تستخدمها هذه الوظائف قد اكتسبت معنى جنسياً مفرطاً . ونحن نعرف عامة أن الوظيفة التى يؤديها العضو فى خدمة الأنا تقل كلما زادت شحنتها الشهوية أو معناها الجنسى (...) فإن اتخذت الكتابة ، وهى تنحصر فى إراقة سائل من قلم على صفحة بيضاء ، معنى الجماع الرمزى ، وإن أصبح المشى هو المقابل الرمزى لمس جسم الأرض — الأم ، توقف هذان الفعلان ، الكتابة والمشى ، لأن القيام بهما يعنى ممارسة نشاط جنسى محرم . والأنا يتخلى عن هاتين الوظيفتين اللتين تعتمدان عليه لكى لا يقوم بمحاولة كبت جديد ، ومن ثمة لتجنب صراع مع الهو .

وثمة ضروب أخرى من الكف تصدر بوضوح عن رغبة فى عقاب الذات ، تلك هى غالباً حالة أنواع الكف التى تلحق بالنشاط المهنى . فقد منع الأنا عن ممارسة بعض أنواع النشاط التى تعود عليه بالفائدة والتوفيق والنجاح لأن الأنا الأعلى

---

(١) H. Piéron : *Vocabulaire de la psychologie*. P.U.F., Paris 1951.

الصارم حرم عليه ذلك . والأنا يتخلى ههنا عن هذه الأنواع من النشاط حتى لايدخل في صراع مع الأنا الأعلى[١] .

Verschiebung
Displacement
Déplacement

(١٨) نقل :

عملية نفسية لاشعورية تنحصر في زحزحة دافع معين أو انفعال ما من موضوعهما الأصيل إلى موضوع بديل ، وهي تقوم بدور هام في العصاب الوسواسي كما تعتبر حيلة الدفاع الأساسية في « أعصبة المخاوف » (Phobias) للتحكم في القلق المرضي . وقد وصف فرويد كيف تنشأ هذه الأعصبة ، نتيجة لنقل دافع غرزي من الداخل إلى الخارج . فهذا الضرب من المرض النفسي يبدأ بشعور الشخص بقلق لا سبب ظاهري له ولا مبرر عقلي يبرره فهو يجهل من أين أتى وكيف ظهر . والواقع أن القلق يظهر عند ما تنتقل شحنة لبيدية من اللاشعور إلى الشعور (أو بالأحرى من الهو إلى الأنا) . والأنا لا يتمثل هذه الشحنة وإنما يفر منها بأن ينبذ التصور الذي ارتبط به الانفعال اللاشعوري . وبتكرار هذه العملية وتراكم القلق بالتدريج حتى يبلغ درجة لا تطاق تظهر حيلة دفاعية أخرى . فالشحنة اللبيدية تنقل إلى تصور آخر على صلة ما بالتصور الأصيل وإن كانت الرابطة التي تربط بينهما متباعدة ، بحيث يفلت التصور الثاني من الكبت ويتمكن من الدخول في نطاق الشعور . ومثل هذا التصور البديل يمنع احتمال عودة التصور الأصيل ويكون هذا المنع بإطلاق نذير القلق . ففي مخافة الحيوانات الطفلية مثلا ، لا يظهر القلق إلا حين يشتد الدافع اللبيدي اللاشعوري أو حين يظهر الحيوان الذي يستثير القلق . والواقع أن الطفل يسلك وكأنه يخشى الحيوان حقاً ولا يحس بأي ميل جنسي نحو والده . فإن اشتدت وطأة الخوف من الحيوان ظهرت حيلة دفاعية أخيرة هي تجنب موضوع المخافة وكل ما يتصل به من قريب أو بعيد . والأنا يسلك وكأن خطر تكوين القلق ليس صادراً عن دافع غرزي بل عن مدرك حسي ؛

(١) S. Freud : *Inhibition, symptôme et angoisse*, p. 4-5. P.U.F., Paris 1951.

لذلك استطاع مواجهة هذا الخطر بسعيه إلى الفرار منه مستعيناً بأساليب التجنب التى تتميز بها المخافة [١].

وقد بين فرويد فى حالة الطفل « هانس » الذى كان يخاف خوفاً مرضياً من عضة الحصان ، أن خوفه انفعال منقول من شخص الوالد كما يتخيله الطفل لا شعورياً ، أى من حيث إنه يهدد الطفل بالخصاء لرغبته المحرمة فى الأم وفقاً للموقف الأوديبى ، إلى الحيوان موضع الخوف [٢] .

(١٩) مازوخية : Masochismus Masochism Masochisme

يدل هذا الانحراف على ارتباط اللذة الجنسية التى يستشعرها الشخص بما يعانيه من ألم بدنى ونفسى . ونسبته إلى الكاتب النمساوى « ساخر مازوخ » (Sacher Masoch) (١٨٣٦ — ١٨٩٥) الذى تفنن فى وصف المواقف التى تتجلى فيها سطوة المرأة وقسوتها فى الحب واستخدامها السوط فى تعذيب من تحب واستعبادها الحبيب استعباداً مطلقاً . ويصحب هذا الألم الجسمى عذاب نفسى مصدره خيانة المرأة خيانة يتعمدها الحبيب ويسعى إليها سعياً مقصوداً . والمحب فى ذلك كله يحس لذة جنسية تشتد كلما اشتد الألم وتتنوع بتنوعه . ويغدو البحث عن اللذة طقساً من الطقوس التى تتطلب إعداداً خاصاً يختلط فيه الواقع بالخيال ويقوم فيه كل من الرجل والمرأة بدور محدد له سلفاً . وعادة ما تتقمص المرأة شخصية يتوفر لها بالضرورة صفات معينة كأن تكون قوية البنية ترتدى ثوباً من الفراء وفى يدها سوط . والشروط الأخيرة تربط هذا النوع من الانحراف بالفتشية . وتعتبر قصص « مازوخ » تصويراً لواقع حياته الخاصة ، وأهم هذه القصص « فينوس ذات الفراء » (La Vénus aux fourrures) [٣]

أما من ناحية الإكلينيكية ، فتتسم المازوخية بالرتابة وقلة التنوع إذا ما قورنت بالسادية . ويمكن أن نميز لها صورتين :

١ — المازوخية الانحرافية : وتنحصر فى أن الإشباع الجنسى يكون مرتبطاً بالألم البدنى ، من جلد ووخز وعض وقرص وضغط أو مرتبطاً بالألم النفسى المتولد

---

(١) S. Freud : The unconscious. *Collected Papers, IV.*

(٢) S. Freud : Analysis of a case of phobia in a five-year-old boy. *Collected Papers, III.*

(٣) L. Stern : *Sacher Masoch ou l'amour de la souffrance.* Grasset, Paris 1943.

عن الإهانة والتحقير والإذلال . وكذلك فقد يمارس المازوخى هذه الأفعال وحيداً فيتخيل أشخاصاً يتزلون به صنوف الألم ويضيف إليها مناظر التعذيب من سجن وأغلال ، وقد يقصر خيال بعض المازوخين على استحضار مواقف تهددهم فيها امرأة ما ويقومون فيها بأعمال مهنية أو ألعاب فيها صفة العنف .

٢ ــ المازوكية العصابية : وفيها يمتزج الانحراف بالعصاب ، ونجدها لدى أفراد يحسون بالذنب نتيجة ميولهم المازوخية ، فهم عاجزون عن ممارسة الجنسية السوية عجزهم عن إشباع ميولهم الانحرافية . لذلك فهم ينطوون على أنفسهم ويمارسون العشقية الذاتية ويخلقون عالماً من الأخيلة يشبع لهم حاجتهم إلى الاستثارة الجنسية المؤلمة (١). وقد نبه فرويد إلى أهمية صورة كثيرة الورود فى أخيلة المازوخيين وأرجع إليها نشأة هذا الانحراف ، ألا وهى أن المريض يرى نفسه طفلا يُضرب أو يُساط ويعانى صنوفاً أخرى من القسوة . وعادة ما يقوم أحد الوالدين بدور الضارب أو السائط (٢) .

ولا بد من الالتفات إلى أن المازوخية لا تنفصل عن السادية وأن القسوة على الذات مشوبة بالقسوة على الغير . فنحن فى الواقع حيال حدين متضايفين .

(٢٠) نورستانيا :

Neurasthenie
Neurasthenia
Neurasthénie

مفهوم غير محدد المعالم أطلقه « بيرد » (Beard) فى ١٨٧٩ للدلالة على عدد ضخم من الأعراض النفسية والجسمية التى تنم عن الضعف أو الإرهاق العصبى . وقد وصف « بيرد » هذا الإرهاق بأنه تفريغ لطاقة الخلايا العصبية إثر استهلاك شحنتها المختزنة .

---

(١) A. Hesnard : *Manuel de sexologie normale et pathologique*, p. 340 et suiv. Payot, Paris 1951.

(٢) S. Freud : 'A child is being beaten'. A contribution to the study of the origin of sexual perversions. *Collected Papers II.*

ويشمل مفهوم النورستانيا الأنواع التالية من الظواهر المرضية :

١ ــ اضطرابات فى الحساسية : صداع متصل أو منقطع وأوجاع متنقلة وحساسية مفرطة وإحساسات متوهمة لا أساس عضوى لها .

٢ ــ اضطرابات حسية : زيادة فى حساسية الشخص وطنين الأذنين .

٣ ــ اضطرابات حشوية وظيفية .

ــ خاصة بالهضم : ارتخاء الأمعاء وتقلصات المعدة ومغص معوى واضطراب فى إفرازات المعدة والمعى والكبد فضلا عن الإمساك إلخ .

ــ خاصة بالأوعية الدموية : هبوط فى ضغط الدم .

ــ ضعف جنسى متفاوت وافتقاد الحساسية الجنسية .

٤ ــ اضطرابات التنفس : ضيق فى التنفس والربو الكاذب .

٥ ــ اضطرابات عصبية نفسية منوعة : أرق ودوار وترنح ورجفة وقلق واكتئاب وتهيج عصبى وخور فى العزيمة واندفاع وسرعة التعب وصعوبة البدء فى عمل ما وتشتت الانتباه وضعف التركيز .

وتبلغ هذه الأعراض ذروتها فى الصباح عند اليقظة وتخف حدتها بالتدريج أثناء النهار [١]. ويدرج فرويد النورستانيا فى عداد « الأعصبة الفعلية » (Actual neuroses) شأنها فى ذلك شأن « عصاب القلق » (Anxiety neurosis) و « وتوهم المرض » (Hypochondriasis) والأعراض التى تظهر فى كل من هذه الأعصبة أعراض فعلية بمعنى أنها لا تنتج عن « صراع نفسى » . فهى من ثمة « لا معنى لها » لأنها تتولد مباشرة عن الطاقة اللبيدية وما تحدثه من آثار حين لا تجد لها منصرفاً ملائماً . وأساس العملية كلها عصبى فسيولوجى لا دخل فيها للعمليات النفسية على عكس السائد فى « الأعصبة النفسية » (Psycho-neuroses) [٢] .

ويرى التحليل النفسى أن أعراض النورستانيا مظاهر للإفراط فى نوع من النشاط الجنسى (الاستمناء) لا يقضى على التوتر الأصيل ، على حين أن أعراض عصاب القلق ترجع إلى امتناع تصريف الطاقة الجنسية إطلاقاً . أو كما

---

(١) A. Porot : *Manuel alphabétique de psychiatrie*. P.U.F., Paris 1952.

(٢) S. Freud : *Introduction à la psychanalyse*, p. 145. Payot, Paris 1947.

يقول فرويد : «تنشأ النورستانيا كلما حل نشاط أقل ملاءمة محل النشاط الملائم ؛ ومن ثمة حين يحل الاستمناء أو الإنزال التلقائى محل الجماع العادى فى أكثر الظروف ملاءمة ، بينما يتولد عصاب القلق من تلك العوامل التى تمنع تمثل الاستثارة الجسمية تمثلا نفسياً . وأعراض عصاب القلق الإكلينيكية تظهر حين تنصرف الاستثارة الجنسية الجسمية — وقد حادت عن المجال النفسى — تحت اللحاء (subcortically) فى هيئة أرجاع غير ملائمة على الإطلاق »[١] .

---

(١) S. Freud : The justification for detaching from Neurasthenia a particular syndrome : The Anxiety Neurosis. *Collected Papers, I.*

S. Ferenczi : Actual and psychoneuroses in the light of Freud's investigations and psycho-analysis. *Selected Papers, II.*

وفيما يتصل بالدراسات الأخيرة فى هذا الموضوع انظر :

G. Chrzanowski : Neurasthenia and Hypochondriasis. In : S. Arieti (Editor) : *American Handbook of Psychiatry.* Basic Books, N.Y. 1959.

مراجع معجم المصطلحات

1. K. Abraham : A short history of the development of the libido, viewed in the light of mental disorders. *Selected Papers*. Hogarth Press, London 1949.
2. S. Arieti (Editor) : *Handbook of American Psychiatry*. Basic Books, N.Y. 1954.
3. Alice Balint : *The early years of life*. Basic Books, N.Y. 1954.
4. L. Bellak (Editor) : *Schizophrenia. A review of the syndrome*. Logos Press, N.Y. 1958.
5. E. Bleuler : *Dementia Praecox or the group of schizophrenias*. Intern. Univers. Press, N.Y. 1953.
6. J. Bowlby : *Les soins maternels et la santé mentale*. Organisation mondiale de la santé, Genève 1954.
7. A. Camus : *L'homme révolté*. Gallimard, Paris 1951.
8. O. Fenichel : *Théorie psychanalytique des névroses*. P.U.F., Paris 1953.
9. S. Ferenczi : Introjection & transference. *Selected Papers, I*. Basic Books, N.Y., 1950.
10. — : Actual - and Psycho-neuroses in the light of Freud's investigations and psycho-analysis. *Selected Papers, II*. Basic Books, N.Y. 1950.
11. — : The phenomena of hysterical materialisation. *Ibid.*
12. L.K. Frank : *Projective methods*. Charlez Thomas, U.S.A. 1948.
13. Anna Freud : *Le moi et les mécanismes de défense*. P.U.F., Paris 1949.
14. S. Freud : The instincts and their vicissitudes. *Collected Papers, IV*. Hogarth Press, London 1950.
15. — : Psychoanalytic notes upon an autobiographic account of a case of paranoia (Dementia Paranoides). *Collected Papers, III*.
16. — : Metapsychological supplement to the theory of dreams. *Collected Papers, IV*.
17. — : Some points in a comparative study of organic and hysterical paralysis. *Collected Papers, I*.
18. — : *Group psychology & the analysis of the Ego*. Hogarth Press, London 1949.
19. — : Screen-memories. *Collected Papers, V*.

20. — : Freud's psychoanalytic method. *Collected Papers, I.*

21. — : *Inhibition, symptôme et angoisse.* P.U.F., Paris 1951.

22. — : The unconscious. *Collected Papers, IV.*

23. — : Analysis of a phobia in a five-year-old boy. *Collected Papers, III.*

24. — : 'A child is being beated'. A contbution to the study of the origin of sexual perversions. *Collected Papers, II.*

25. — : *Introduction à la psychanalyse.* Payot, Paris 1947.

26. — : The justification for detaching from neurasthenia a particular syndrome : The anxiety-neurosis. *Collected Papers, I.*

27. A. Hesnard : *Manuel de sexologie normale et pathologique* Payot, Paris 1951.

28. Melanie Klein : *Contributions to psychoanalysis.* Hogarth Press, London 1950.

29. G. Lely : *Morceaux choisis de D.A.F. Sade.* Seghers, Paris 1948.

30. P. Luquet : Les identifications précoces dans la structuration et la restructuration du moi. *Rev. franç. de psychanalyse, XXVI,* 1962.

31. H. Nunberg : *Principes de psychanalyse.* P.U.F., Paris 1957.

32. H. Piéron : *Vocabulaire de la psychologie.* P.U.F., Paris 1951.

33. A. Porot : *Manuel alphabétique de psychiatrie.* P.U.F., Paris 1952.

34. E. Schachtel : Projection and its relation to character attitudes and creativity in the kinesthetic responses. *Psychiatry,* 13, 1950.

35. L. Stern : *Sacher Masoch ou l'amour de la souffrance.* Grasset, Paris 1933.

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف
سنة ١٩٦٣

ثلاث مقالات فى نظرية الجنسية

لقد ضمن فرويد هذا الكتاب كشفاً من أخطر كشوف التحليل النفسى : فكما بين أن الشعور ليس هو كل الحياة النفسية ، فكذلك وضح ههنا أن الحياة التناسلية ليست كل الحياة الجنسية وأن ثمة صوراً مميزة للدوافع الجنسية فى الطفولة . وقد تتبع فرويد نشأة هذه الصور نشأة تدريجية تساير النضج النفسى الجنسى من الطفولة حتى البلوغ ، وأبرز الدور الحاسم الذى تقوم به فى تشكيل وجود الإنسان من حيث الصحة والمرض والانحراف على حد سواء .

المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى

● صدر منها :

* مقدمة فى التحليل النفسى	لسيجموند فرويد	ترجمة الدكتور إسحق رمزى
* ما فوق مبدأ اللذة	« «	ترجمة « « «
* حياتى والتحليل النفسى	« «	ترجمة الدكتورين مصطفى زيور وعبد المنعم المليجى
* تفسير الأحلام	« «	ترجمة الدكتور مصطفى صفوان
* الموجز فى التحليل النفسى	« «	ترجمة الدكتور سامى محمود على والأستاذ عبد السلام القفاش
* ثلاث مقالات فى نظرية الجنسية	« «	ترجمة الدكتور سامى محمود على

ص
٤٠